رواية تاريخية غرامية

تشرح حال الاسلام من أول ظهوره
الى فتوح الشام والعراق مع بسط عادات العرب
في آخر جاهليتهم وأول اسلامهم ووصف
أخلاقهم وأزيائهم وسائر أحوالهم

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

الجزء الثاني

(الطبعة السادسة)

مطبعة الهلال بشارع نوبار بمصر
سنة ١٩٢٢

مقدمة

الجزء الثاني من فتاة غسان

طبعنا الطبعة الاولى من هذه الرواية سنة ١٨٩٧ بعد أن نشرناها في الهلال وقرأها ألوف من الناس . ومع ذلك فقد نفدت الطبعة الاولى وألح القراء في طلبها فاضطررنا الى اعادة طبعها فطبعناها الطبعة الثانية سنة ١٩٠٣ فنفدت . فطبعناها الطبعة الثالثة ثم الرابعة والخامسة وهذه السادسة

وفتاة غسان هي الحلقة الاولى من سلسلة الروايات التاريخية الاسلامية التي أخذنا في تأليفها ونشرها منذ بضعة عشر عاماً وقد صدر منها الى اليوم ١٨ رواية آخرها رواية شجرة الدر

ويسرنا اقبال أهل اللسان العربي على مطالعة هذه الروايات وارتياحهم الى مواضيعها وأسلوبها

وقد ترجمت فتاة غسان هذه الى اللغة الاوردية (الهندستانية) والى لغة التاميل (في سنقافور) والى الانكليزية
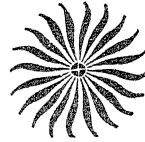
الفصل الاول

المناجاة

تركنا حماداً وسلمان في مكة وقد غلب عليهما اليأس بعد ان تكبدا مشاق الاسفار ولم يظفرا بشيء مما أملاه وخصوصاً حماد فانه اصبح يئساً تتقاذفه عوامل الحب من جهة وعوامل الشهامة من جهة أخرى وهو بين ذلك لا يرجو لقاء والده ولا يأمل الظفر بحبيبته فكان كلما تصور ذلك ثارت الحمية في رأسه وعظم عليه العود الى البلقاء فحدثته نفسه أن يبتعد عن الناس ويأوى الى مكان لا يعرفه فيه احد او أن يقيم في دير او نحوه لان الحياة أصبحت لديه شراً من الموت

أما سلمان فانه أدرك حال سيده وعلم ما هو فيه من اليأس فثارت في نفسه عاطفة الشهامة وعول على أن يبذل نفسه في سبيل تعزيته فخرج من الغرفة ذات صباح متظاهراً بحاجة يفتش عنها وترك حماداً وحده فلما خلا حماد بنفسه خرج من الغرفة وصعد الى سطح الخان وقد ضاق صدره وصغرت نفسه والسطح تظلله خيمة من ورق الشجر فجلس على وسادة واخذ ينظر الى مكة وما يحيط بها فاذا هي عبارة عن ارض منبسطة في واد تحف به الجبال فلم تشغله تلك المناظر الا هنيهة ثم عاد الى هواجسه فتذكر حبيبته ووالده وتصور مقدار ما تراكم عليه من الهموم وما ألم به من الفشل وقد قطع البراري والقفار حتى جاء للبحث عن قرطي مارية مهراً لخطيبته هند ومرضاة لوالديها فعلم من حرب الخزاعي أن القرطين لا يمكن العثور عليهما هناك . وبعد ان كان على أمل من لقاء والده مع ابي سفيان في مكة تحقق ضياعه ويئس من حياته فتصور نفسه مغلول اليدين مقصوص الجناحين فعظم الامر عليه كثيراً واشتد به اليأس حتى تناثرت الدموع من عينيه ثم تذكر أنه في غربة لا يجدر به الاستسلام للعواطف فامسك نفسه ولكن اليأس غلب عليه فانقبض صدره واشتد به الهيام فاخذ يناجي هنداً قائلا :

« آه منك يا هند بل آه من هـذا القلب الذي عصاني وأطاعك ونعم ما فعل فانك والله جديرة بحبه ولـكن والدك — آه من والدك — فانه أنما أراد مستحيلا فطلب مني مهراً العنقاء أقرب منه منالا وكأني به لا يرضاني له صهراً وعذره مقبول طالما كان نسبي مجهولا . . . فالقرطان لم يوجدا فهنـد بعيدة المنال مني .... آه يا هند أأعود اليك بصفقة المغبون واذا عدت كذلك ما يكون رأيك . . . لا ريب عندي ان ذينك القرطين لا يهمك امرهما ولا رضيت أن اشقى في سبيل التفتيش عنهما الا مجاراة لوالديك . . . ولـكن ما هذا يا حماد كيف تعود الى هند صفر اليدين وكيف تقابل جبـلة وماذا تقول له ؟ ... لا لا لا ... لن أعود الى البلقاء على هذه الحالة وقـد فقدت والدي في بلاد لا اعرف فيها اليفاً ومن يدريني أين هو وأين النـذر ووفاء النذر يا ليته قص شعري قبل ضياعه فقد كنت على موعد منـه انه متى وفى النذر وقص الشعر يطلعني على أمور تهمني وقد يكون لها علاقة بامر زواجي فاين والدي الان . آه يا ابتاه أين انت العلك لا تزال في قيد الحياة من يعلمني أين مقرك فاطير اليك مسرعاً . أما اذ يئست منك ومن هند فلا يعود لي في الحياة مأرب . فاما ان ألجأ الى دير او صومعة أقضي بقية الحياة منفرداً لا أرى أنيساً او أن القي نفسي بتهلكة ... ولـكن لا لا ان قتل النفس ضعف ومذلة وكيف أفعل ذلك ونفسي رهينة أمر هند وهنـد لا تريد قتلها . . . اذن لاصبرنّ صبر الرجال وأعيـد الكرة في البحث عن القرطين فاذا تيقنت فقدانهما عمدت الى هند وبسطت لها امري وأطلعتها على كنـه ضميري فاذا رأيتها تؤثر مرضاة والديها وحفظ تقاليد عائلتها على رضاي قلت على الدنيـا ومن فيها السلام والا فاني أرضى من الدنيا برضاها فنتعاقد ونتراضى على امر يكون لنا فيه منجاة من والديها . . . واما والدي . . . آه أين انت يا ابتاه ان ضياعك عرقل مساعيّ وأغل يدي ولا ريب انك لو شاركتني في هـذا الامر لسهلت كل صعب وهديتني صراطاً مستقيما ... ولـكن الاقدار أبت الا معاندتي فصبراً جميلا . . . »

مرت كل هذه الخيالات في ذهن حماد وهو متكىء على الوسادة

تارة يبكي وطوراً يحرق اسنانه وآونة يصبر نفسه وكان لم ينم في الليل الماضي الا قليلا فغلب عليه التعب والملل والضجر فجاء النعاس فغمض جفناه

الفصل الثاني

حسان بن ثابت الانصاري

مضى بعض ذلك النهار وحماد بين نائم وهاجس فوق السطح لم يذق طعاماً حتى اذا كان العصر أفاق من صوت سلمان خادمه ففتح عينيه فرآه واقفاً عند رأسه يناديه وعلى وجهه امارات البشر كانه أتى أمراً جديداً فانبسطت نفس حماد فهب من رقاده وجلس وصاح ما وراءك يا سلمان ؟

قال ما ورائي الا الخير باذن الله

قال أرى على وجهك امارات البشر فهل اهتديت الى طريق جديد يوصلنا الى ساحة الفرج

قال نعم يا سيدي اظنني توفقت الى شيء من هذا القبيل

قال قل ما هو

قال خرجت في هذا الصباح على بركة الله وقد عولت في باطن سري ان لا أعود اليك الا ببشرى خير فسرت في أسواق مكة وأنا اتوسل الى الله ان يلهمني رشداً وسداداً او يهديني سبيلا اخفف به اليأس عن مولاي فمررت ببعض البيوت فرأيت عند بابه بغلة عليها بردعة ثمينة والى جانبها غلام فحدثتني نفسي ان أسأله عن صاحب البغلة فقال هو حسان بن ثابت شاعر الانصار فتذكرت اني أعرف هذا الاسم فاخذت في التفكر لعلي اذكر الرجل فعلمت اني كنت اسمع اسمه منذ كنت في العراق وانه كثيراً ما كان يؤم الحيرة فينظم القصائد في مدح الملك النعمان رحمه الله وكان كثيراً ما يفد على ملوك بني غسان فيمتدح الملك جبلة والحارث بن ابي شمر [1] وغيرهم فقلت في نفسي اظنني اصبت ضالتي ان الرجل يجالس أعظم ملوك العرب فربما كان له المام بامر القرطين . فسألت الغلام عن حسان فقال انه في البيت فاستأذنت

(١) الاغاني

في الدخول عليه فاذن فدخلت حتى اقبلت علي الرجل فاذا هو جالس على وسادة في بعض زوايا الغرفة فتأملته فاذا به قد تبدلت حاله عما كنت اعرفه فاحناه الكبر وضعف بصره وشاب شعره واسترسلت لحيته[1] فبادرت الى يده فقبلتها وحييته فرد التحية ورحب بي واجلسني الى جانبه وسألني عن امري فما زلت ادخل معه في حديث واخرج من آخر حتى توصلت الى القرطين فسألته عما يعرفه من امرهما ففكر قليلاً ثم قال اظنني سمعت ذكرهما في بعض مجالس النعمان بن المنذر في الحيرة . فقلت وكيف كان ذلك

فقال يغلب على ظني ان بعض تجار الفرس الذين يحملون الاقمشة الفارسية الى مكة عاد منها ذات عام ومعه قرطا مارية فعرضهما على النعمان وأظنه اشتراهما منه فاذا صدق ظني كان القرطان الآن في خزينة الملك النعمان في الحيرة

فلما سمعت ذلك هرولت اليك مسرعاً لنسير اليه فهل تسير معي

قال نعم لا بد من المسير واني أرى في كلام الشاعر باباً للفرج هلم بنا

فنهض حماد وقد انبسطت نفسه وعادت اليه بعض الآمال وان لم يكن في الخبر ما يدعو الى الامل ولكن المرء اذا كان في ضيق كان سريع التعلق بالامل ولو كان أوهى من خيط العنكبوت . واحس حماد بفراغ معدته فتناول شيئاً من التمر يسد بها جوعه وخرج مع سلمان ماشيين حتى أتيا بيت حسان فاستأذنا فدخلا فتقدم أولا سلمان فسلم وذكر اسم حماد أمام حسان وقال انه سيده وانه من أمراء العراق ولما سمع بوجود حسان هناك أراد المثول بين يديه . فتقدم حماد وهمَّ بتقبيل يدي الشيخ فمنعه ولكنه رفع نظره اليه وتفرس فيه كأنه يراجع في ذاكرته صورة أمراء الحيرة لعله يعرف حماداً فتشابه عليه أمره فسأله عن اسمه واسم عائلته

فقال أني حماد بن الامير عبد الله

فقال حسان لا اذكر رجلاً بهذا الاسم في بلاط النعمان أو لعلي نسيته فقد قتل النعمان رحمه الله قتلوه غدراً منذ نيف وعشرين عاماً وتفرق اصدقاؤه على انني انقطعت عن الحيرة قبل ذلك العهد فلم أعد اقدمها ولا رأيت أحداً

---

(١) طبقات الشعراء

من امرائها ولكن سقى الله تلك الربوع وأعاد سلطة المناذرة فقد كانوا زينة الدولة الفارسية وبيت قصيدها وخصوصاً النعمان بن المنذر رحمه الله وجازى الباغين عليه شراً

فقال حماد وهل كنت تفد عليه كثيراً

قال لم يكن يمضي العام قبل أن أزوره مراراً فاركب ناقتي من المدينة حتى آتي البلقاء فادخل على جبلة بن الايهم أو الحارث بن أبي شمر الغسانيين ثم اقصد العراق فادخل مجلس النعمان بن المنذر فيخلع عليّ الخلع ويأمر لي بالعطايا وهكذا كان يفعل الغسانيون أيضاً . ثم كان ما كان من أمر قتله فانقطعت عن العراق الى البلقاء حتى ظهر الاسلام وأسلم اهل المدينة فكنت ممن تشرف بالاسلام ولازمت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسير معه وألحق به حيثما أقام. وقد عاد الان بجيشه الى المدينة ولا البث أن اتبعه عاجلاً

فقال سلمان ذكرت يا مولاي أن القرطين بيعا للملك النعمان فماذا تم لهما بعد موته قال لا أدري وربما كانا في جملة ما استولى عليه قاتلوه من التحف فاذا صح هذا الظن كان القرطان في خزينة ملوك الحيرة الان

وكان حسان يخاطب سلمان وعيناه لم تحولا عن وجه حماد وهو يتفرسه ويلاحظ حركاته كأنه يعرف له شبهاً وحماد غافل عن ذلك بما كان غارقاً فيه من الهواجس بعد ان سمع ما سمعه من امر القرطين وصعوبة الحصول عليهما بعد وصولهما الى خزينة ملوك الحيرة ولكنه عول على البحث عنهما ما استطاع الى البحث سبيلاً

وبعد قليل همَّ حماد بالخروج فسأله حسان أين تقصدون

قال سلمان أننا نقصد منزلنا لنتهيأ للخروج في الغد

قال هل تريدون الذهاب الى المدينة

قال ربما مررنا بها في طريقنا الى البلقاء

قال اري انكما غريبان فربما عسر عليكما المسير منفردين وقد آنست فيكما عنصراً جيداً فهل تقبلان مرافقتي الى المدينة تقيمان فيها ريثما تعزمان الى البلقاء وربما ارفقتكما بمن يوصلكما اليها

فنهض سلمان نهوض الاحترام واثنى على حسان ثناء طيباً وقال أننا نشكر فضل الشاعر شكراً جزيلاً ولا نعد ذلك منه الا كرماً ومنة عرف بها عرب الحجاز منذ القدم

قال عفواً يا اخا لخم أني لا أجود الا بال المناذرة ولا ارتع الا في بحبوحة خيرهم ولا انكر فضل العراق عليّ وعلى كل من نزل ديارهم من الغرباء وذلك أمر مشهور لا يجهله أحد فكيف باهله فاذا شئتما المسير إلى منزلكم الليلة فاعدوا حوائجكم وها أني مرسل معكم من يحملها الينا فنبيت الليلة هنا ونصبح سائرين ان شاء الله

الفصل الثالث

اللقاء

فباتوا تلك الليلة في منزل حسان وأصبحوا جميعاً قاصدين المدينة وحسان يطرفهم في أثناء الطريق بلطائف منظوماته في مدح ملوك الحيرة وملوك غسان وحماد يستزيده مما نظمه في جبلة بن الايهم ويطرب لكل بيت يسمعه . ولم يكن ذلك الا ليزيد أشجانه ويذكره بخطيبته هند ثم تذكر ثعلبة وأباه الحارث ابن ابي شمر فقال

وكيف رأيت الحارث بن ابي شمر

قال رأيته كريماً محباً للشعراء ولكنه كان حاسداً لجبلة فكنت اذا مدحت جبلة في حضرته ظهر الحسد على وجهه مع ما كان يحاول اخفائه من عواطفه (١) .

فتحقق حماد أن ثعلبة أنما ورث ذلك الخلق عن والده وزاد عليه اللؤم والخساسة . ولما تذكر ذلك غلب عليه الانقباض وأوجس خيفة على هند من غدره أثناء غيابه وخصوصاً اذا عاد خالي الوطاب فاستولى عليه السكوت فادرك سلمان منه ذلك فاراد اخفاء الامر عن حسان فقال وكيف رأيت جبلة

(١) الأغاني

قال رأيته شهماً عزيز النفس كريم الخلق كثيراً ما عرضت بحسد الحارث أمامه وهو لا يبالي بل كان يلتمس له عذراً ويغالطني متجاهلاً فكنت لا ازداد الا اعجاباً به . فقال سلمان وأي الملكين أشد بطشاً الان

قال ان جبلة ارفع مقاماً واعز جانباً ولكن بعض القادمين علينا من البلقاء أنبأنا بوفاة الحارث

فبغت سلمان وانتبه حماد من هواجسه . فقال سلمان وهل تحققتم وفاته

قال نعم وقد نقله الينا بعض الذين ارسلناهم لنجسس أحوال الروم بعد واقعة مؤتة (١)

فالتفت سلمان الى حماد فرآه يبتسم ولكن البغتة ما زالت ظاهرة على وجهه تخللها بعض الانقباض فاشار اليه بملامح وجهه اشارة فهم حماد منها انه يهنئه بانكسار شوكة ثعلبة لكنه تحول الى حسان وقال له ما ظنك بمن يرث الامارة بعده

قال لا اظن أحداً من اهله أهلاً لهذه الامارة والغالب أن تجتمع كلمة قبائل غسان تحت لواء جبلة بن الايهم

فانشرح صدر حماد ولكن أمر القرطين ما زال حاجزاً بينه وبين كل سرور

وساروا حتى اتوا المدينة فوصلوها صباحاً فوجدوا أهلها في فرح وعز لما أتوه من النصر بفتح مكة ورأوا الناس عكوفاً على الصلاة وما زالوا سائرين حتى اناخوا جمالهم امام منزل حسان فهمّ الخدم بحمل الامتعة الى المنزل وأخذوا الجمال الى العلف ونزل سلمان وحماد وقد اعجبا بما آنساه من عكوف المسلمين على الصلاة وما رأيا من خشوعهم وتدينهم فضلاً عما شاهداه من بسالتهم في فتح مكة

أما حسان فلم يكد يصل منزله حتى طلب الراحة من وعثاء السفر لشيخوخته وعجزه ودعا ضيفيه اليها فجلسا متأدبين فقال لهما تذكرت امراً

(١) لم يرد في تواريخ العرب ذكر السنة التي توفي فيها الحارث ولكنهم ذكروا انه كان في واقعة مؤتة ثم اغفل خبره

اظنه يهمكما كثيراً وقد فاتني ذكره لكما قبل الان

قال سلمان وماذا عسى أن يكون ذلك

قال ذكرت لكم واقعة مؤتة وأظنكم لم تفهموا ما هي

قال سلمان كلا يا سيدي لم نفهم المراد جيداً

قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ارسل جنداً من المسلمين لحرب الغسانيين في العام الماضي فسار الجند وحاربهم في مكان يقال له مؤتة بالقرب من بصرى وستسمعون خبر هذه الواقعة الان ولكنني أردت ان اوجه التفاتكم الى رجل اسره جندنا في اثناء تلك الحملة وقد حملوه الينا فلما رأيته معهم عرفت انه أسر ظلماً ولما سألته عن خبره علمت أنه ليس من أهل البلقاء بل هو عراقي من أهل الحيرة ذكر انه كان يراني في اثناء وفودي على الملك النعمان منذ نيف وعشرين عاماً . وبما أنكم من اهل العراق فربما استأنستم بالرجل والوطن أحسن جامعة بين الناس . قال ذلك ونادى رجلا واقفاً بالباب فحضر فقال له أدع ضيفنا العراقي

قال لبيك وخرج ثم عاد يتبعه رجل كهل ملتف بعباءة مقطب الوجه وكان حماد وسلمان لا يزالان محمرين خمار السفر فلما وقع نظر سلمان على ذلك الرجل احس بخفقان قلبه كأنه آنس فيه مشابهة لسيده عبد الله ولكنه رأى في سحنته ملامح تخالف ما لعبد الله أهمها أن عبد الله كان طويل الشاربين مستدقهما مسترسل شعر اللحية مع خفة أما هذا فهو قصير الشاربين واللحية على أن سلمان ما زال ينظر اليه ويتأمله حتى دنى منه فوقف له وهمَّ بمصافحته فلم يكد يفوه بأول كلمة حتى تحقق سلمان انه هو سيده بعينه فهمَّ به وقبله وناداه باسمه

وكان حماد في شاغل من هواجسه في هند والقرطين ووالده فلم ينتبه الا وسلمان ينادي بأعلى صوته مولاي الامير أهلاً بمولاي الامير فالتفت حماد فاذا هو والده عبد الله فنهض ونهض سلمان فهم عبد الله بحماد يضمه وجعل يقبله ودموع الفرح تتساقط على وجهه وسلمان يقبل يد عبد الله وبهتهما بعضهما ببعض فانبسطت وجوه الجميع وزالت منها العبوسة وجلسوا وعبد الله

بجانب حماد قابضاً على يده بين يديه وحسان جالس الى جانبه وقد عجب لما رآه وسمعه فسألهم عن أمرهم فاحكى له عبد الله عما تم من الاتفاق الغريب وان حماداً وسلمان جاءا معه ففرح حسان لما تم على يده من الخير . ثم جلسوا يتحادثون

فقال سلمان لقد رأيت في وجه مولاي تغيراً كاد يحول بيني وبين معرفته فأني إعهد شعر وجهه طويلا مسترسلا فمالي أراه قصيراً

فضحك عبد الله وقال ان لهذا التغيير حديثاً غريباً سأقصه عليك بعد أن اسمع حديثكم وما كان من امر الاسد وضياع الفرس

الفصل الرابع

واقعة مؤتة

فقص سلمان حكايته مع حماد والاسد وكيف نجوا منه بتسلق تلك الشجرة وما تم لهما بعد ذلك من حديث هند ووالديها ووالدها وحب حماد لها ثم ما كان من خطبة حماد وما اقترحه عليه جبلة بن الايهم مهراً لابنته وما لاقاه حماد في سبيل ذلك من الاسفار والاخطار حتى جاءا مكة وشهدا فتحها وكيف يئسا من وجود القرطين هناك حتى تجدد أملهما بوجودهما في خزينة النعمان بن المنذر في الحيرة

وكان عبد الله في اثناء الحديث مصغياً صامتاً وامارات الاستغراب ظاهرة في وجهه كأنه سمع أموراً لم يكن يتوقع حدوثها ولا يرضاها ولكنه سكت عن ذلك وأخذ يقص عليهم حديثه فبدأ بوقوعه بالاسر في غسام ثم مسيره الى بيت المقدس . ومقابلته هرقل امبراطور الروم وما سمعه من حديث أبي سفيان ثم سفره معه وما كان من مشاهدته الفرس واستدلاله منها على ضياع حماد وكيف رافقه ابو سفيان في مسبعة الزرقاء للتفتيش عن حماد وما شاهدوه من عظام الفرس الاخر وبعض الآثار حتى انتهى الى مسيره منفرداً الى عمان ووقوعه أسيراً بين يدي الحجازيين الذين ساروا لمحاربة أهل الشام وما دار

بينه وبين بعضهم عن السبب الذي جاءت تلك الحملة من أجله الى أن قال :

فلبثت أسيراً عندهم وأنا على مثل الجمر لان أملي لم ينقطع من لقاء ولدي حماد على أني كنت في بعض الاحايين لا ارتاب من فقده وأحياناً أراجع ما شاهدته من الادلة على ذلك فلا أرى ما يقطع بوقوع القضاء فكان سجني في معسكر الحجاز قيداً ثقيلاً علي فبعد أن قضيت مدة بجوار عمان علمت ذات يوم ان الروم قد جندوا جنداً كبيراً يبلغ عـدده نحو مئتي الف وفيهم الروم والعرب من بني غسان ولخم وجذام وبهراء (١) فلما بلغ المسلمين ذلك خافوا الفشل لان عددهم لا يزيد عن الثلاثة آلاف فضلاً عما في جند الروم من العدة والسلاح . وبلغني ان جـند المسلمين اجتمعوا في خيمة بن رواحة احد امرائهم وتشاوروا في الامر فقال اكثرهم نـكتب الى رسول الله في المدينة نخبره الخبر فاما ان يمدنا بالرجال واما ان يأمرنا بأمر فنمضي له . فقام فيهم ابن رواحه وخطب خطاباً انهض هممهم فقال « يا قوم والله ان التي تكرهون هي التي خرجتم اياها تطلبون الشهادة وما نقاتل النـاس بعدد ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذي اكرمنا الله به فانطلقوا انما هي احدى الحسنيين اما ظهور واما شهادة » فقال الناس « والله صدق ابن رواحة »(٢) واشتدت عزائمهم وصمموا على الحرب وكنت أعجب لبسالتهم واقدامهم واتحاد كلمتهم واستهلاكهم في سبيل نصرة دينهم

فبعد أيام نودي بالجند فقاموا وسرت انا فيهم مخفوراً أرى كل حركاتهم وسكناتهم فما زلنا سائرين حتى دنونا من بلدة على مرحلتين من بيت المقدس يقال لها مؤتة وكان جند الروم قد عسكر هناك فالتفت الى ذلك الجند فاذا هو مالىء السهل هناك وفيهم الفرسان والمشاة ورأيت في وسط المشاة مشاة عليهم ملابس كثيرة الالوان تبهر النظر تتلألأ في ضوء الشمس فلم أكن اظن الحجازيين ينظرون الى ذلك الجند حتى يعودوا القهقرى وجلاً ومهابةً ولكني رأيت فيهم ثباتاً لم أر مثله في أسفاري كلها وما ذلك الا لوثوقهم بربهم وعدم مبالاتهم بانفسهم في سبيل نصرة دينهم

(١) السيرة الشامية (٢) السيرة الحلبية

وخلاصة القول ان المسلمين تقدموا تحت قيادة ثلاثة من الامراء ساروا امامهم مشاة على اقدامهم حتى التقى الجيشان وانتشبت الحرب وكان اللواء أولا بيد أحدهم زيد بن حارثة فقاتل وهو يعلم ضعف الجند ولكنه ظل مكافحاً حتى قتل طعناً بالرماح فتقدم الامير الثاني وهو جعفر بن ابي طالب فقاتل وهو على فرس شقراء فألجمه القتال واحاط به ونزل عن فرسه وبقرها وقاتل حتى قتل . فاخذ اللواء عبد الله بن رواحة وهو على فرسه ثم نزل عن فرسه وحارب حتى قتل فوقع الرعب في قلوب المسلمين وكادوا يفشلون لو لم يقم فيهم رجلاً باسلا اسمه خالد بن الوليد وسمعت بعضهم يسميه سيف الله فجمع كلمة الجند وهجم هجمة واحدة فظن الروم ان نجدة قد جاءتهم فاستولى الخوف على جند الروم وفشلوا وغنم المسلمون منهم شيئاً كثيراً (١) ولكنهم لم يبقوا على الحرب فعاد المسلمون يريدون المدينة وكنت أنا في اثناء هذه الواقعة في حيرة شديدة ولو كانت الحياة عزيزة عليَّ لفروت من المعسكر ساعة اشتغال المسلمين بالحرب ولكنني وددت أن أصاب بنبلة اقتل بها فلم يقض الله بذلك . فلما عاد المسلمون الى هنا عدت انا معهم أسيراً فاصابني في اثناء الطريق انحراف صحي فاصبحت وشعر لحيتي يتساقط وكذلك شعر شاربي حتى لم يبق منه الا القليل . فلما وصلت المدينة التقيت بشاعرنا (وأشار الى حسان) فتعارفنا ودعاني للاقامة في داره فاقمت عنده كما ترون . وفي اثناء ذهاب الجند الى مكة للفتح الذي شاهدتموه زارني الحرث بن كلدة طبيب العرب (٢) فوصف لي دهناً من عشب فاخذ الشعر ينمو وأرجو أن يعود الى ما كان عليه

الفصل الخامس

يوم الشعانين

فلما اتم عبد الله حديثه هنأوا بعضهم بعضاً بالسلامة ثم قال حماد وأين فرسي الآن قال هو معي هنا فهل تريد ان تراه

قال نعم . وخرجوا الى بستان بالقرب من المنزل وكان الجواد مشدوداً

(١) السيرة النبوية (٢) ابن الاثير

الى نخلة فلما وقع نظره على صاحبه أخذ في الصهيل كانه يرحب بقدومه وتقدم حماد اليه فلمس جبهته وقبله بين عينيه ثم عادوا جميعاً والفرح ملء قلوبهم الا حماد فانه عاد الى هواجسه في هند وابيها والقرطين فلماوصلوا المنزل وجلسوا نظر عبد الله الى حماد وقال له ألعلك لا تزال مصمماً على الاقتران بهند

قال نعم يا أبتاه ولا أظنني قادراً على العدول عنه بعد ان كان ما كان

قال وهل نسيت نذرنا لدير بحيراء

قال وأي نذر

قال نذر يوم الشعانين الذي سنقص فيه شعرك

قال وما دخله بمسألة الاقتران

قال ان له دخلاً كبيراً لاني سأتلو عليك في ذلك اليوم حكاية وأطلعك على امور ذات بال لها علاقة كبرى بامر الزواج

فخاف حماد أن يكون هناك ما يحول بينه وبين هند

فقال وهل في ذلك السر ما يمنعني من هند

قال لا أقدر على التصريح بشيء من ذلك الان ولكن أحد الشعانين يكشف لك كل شيء

فقال إن يوم الشعانين بعيد فهل يسوغ لنا استبداله بسواه

قال كلا يا ولدي بل يجب علينا اتمام النذر حرفاً حرفاً . فوقع حماد في حيرة وأوجس خيفة لئلا يكون في قصة يوم الشعانين ما يحول بينه وبين هند فود أن يطلع على حقيقة ذلك ليعلم كيف يتصرف وقد كان عازماً على الحيرة للبحث عن القرطين وكان يظن أن والده سيكون اكبر مساعداً له على ذلك لكثرة أصدقائه هناك فاصبح بعد ما سمعه منه لا يستطيع مكاشفته بالامر لانه قال له صريحاً أن لا يخطو خطوة في مسألة الاقتران قبل يوم الشعانين فصمت برهة يفكر في الامر فخطر له أن يستطلع سلمان على حدة لعله يكون عالماً بشيء من ذلك السر

فانفرد به في مساء ذلك اليوم وسأله عما يعلمه من أمر يوم الشعانين

فقال له ان سر ذلك اليوم مكتوم عن كل بشر أعرفه وقد قضيت مع سيدي والدك أعواماً مذ كنت طفلاً حتى صرت شاباً وانا أسمع انه نذر تصر،

شعرك في دير بحيراء عند ما تبلغ هذا السن وانه سيطلعك في ذلك اليوم على أمور تهمك كثيراً ويكون لها علاقة كبرى بمستقبل حياتك واعترف لك أني بذلت قصارى جهدي في استطلاع شيء من ذلك السر فلم أتوفق وتراني أكثر رغبة منك في معرفته فما لنا الا الانتظار الى يوم الشعانين

فقال وكيف اقضي هذه الايام وماذا أفعل بهند . فقد افصحت لك عن أمور انت تعرف اني أكتمها عن سائر العالمين فهل يخفى عليك ما بيني وبين هند من المحبة والرابطة وقد تركتها على موعد من اللقاء فمضت سنة منذ تركتها ولم أفعل شيئاً مما تعهدت لها به بعد فان القرطين لم نقف لهما على أثر ولا أرى ان أعود اليها الا والقرطان في يدي وعلمت أن الامل معقود بالتفتيش عنهما في العراق ولا نستطيع ذلك الا بمساعدة والدي وقد سمعت قوله الدال على رغبته في ايقاف كل حركة قبل يوم الشعانين فكيف أقضي هذه المدة وأنا بعيد عن هند . أتظنها لا تزال على عهدي

قال سلمان أما ما عرفته من حبها لك وثباتها في حبك فلا يترك محلاً للشك في بقائها على عهدك وانها لا يمكن أن تحول عنك يمنة ولا يسرة ولكنني أرى ان تكتب اليها كتاباً أو تنفذ اليها رسولا تبثها ما عندك وتستمهلها في انفاذ المهمة التي أنت سائر بشأنها وتطلب منها جواباً ومن جوابها تفهم ما يكنه ضميرها

فقال حماد وهل تظن والدي عازماً على البقاء هنا الى يوم الشعانين

قال لا أظنه يميل الى البقاء لان اهل المدينة لا يفترون عن الاستعداد للحروب اما لغزو أو لدفع مهاجم ولا وطر لنا في ذلك فالغالب أنه يفضل الذهاب الى بصرى يقيم فيها بقية هذا العام

قال فاذا كنا ذاهبين الى بصرى فليس ثم حاجة الى المخابرة لأني الاقيها هناك واجتمع بوالديها أو باحدهما واتلو عليهما ما وقع فما عليك الا اقناع والدي بالذهاب بنا الى البلقاء .

قال حسناً ولكنك اذا أردت مقابلتها هناك فليكن ذلك على غير علم من والدك

قال تنظر في ذلك ثم افترقا وأخذ سلمان في تحريض مولاه عبد الله على الخروج من المدينة والاقامة بقية ذلك العام في البلقاء وخصوصاً لان الحارث قد مات وخرج النفوذ من يدي ابنه ثعلبة

فوافقه عبد الله على ذلك فقضوا بضعة أيام في المدينة يشاهدون ما أحدثه المسلمون فيها من الابنية واحسنها المسجد الجامع . على أنهم كانوا يشاهدون في كل يوم شيئاً جديداً من الاعدادات الحربية للغزو أو غيره مما زادهم تهيباً لجند المسلمين وحسبوا لمستقبل دولتهم حساباً كبيراً

ثم أخذوا في الاستعداد للمسير فودعوا حساناً فارفقهم بدليل يعرفه وساروا يقطعون البراري والقفار حتى أتوا بصرى فتشاوروا في مكان ينزلون فيه فاتفق رأيهم على الاقامة في دير بحيراء فاتخذوا فيه غرفة اقاموا فيها

أما حماد فان عودته الى ذلك الدير اذكرته أموراً هاجت اشجانه فتذكر اجتماعه بهند هناك لاول مرة وما كان من مجيء ثعلبة بغتة الى آخر ما حدث في حينه ثم عزم على المسير الى جبلة للسلام عليه ثم الى صرح الغدير لملاقاة هند وبثها ما في ضميره وما بلغت اليه مهمته وما يرجوه من العثور على القرطين في العراق ولكنه كان كلما تصور وقوفه امامها موقف المعتذر أو المستمهل اشمأزت نفسه وعسر عليه ذلك الموقف

الفصل السادس

هند في صرح الغدير

فلنترك حماداً ووالده وسلمان ولنعد الى صرح الغدير لنرى ماذا تم لهند بعد سفر حماد لئلا يظن القارىء اننا نسينا عواطفها وأشجانها ولم نبال بما قاسته اثناء غيابه من الوحشة والخوف عليه ولا سيما بعد ان سمعت بفتح مكة ودخول المسلمين اليها عنوة وهي تعلم ان حماداً انما سار الى هناك للبحث عن القرطين

ودّعت هند حماداً يوم سفره وقلبها واجف عليه لعلمها انه سار في تلك المهمة والخطر ظاهر فيها ولكن ثقتها بشجاعته وتعقله هونت

عليها الامر لاول وهلة ثم اشتغلت عنه بالاضطرابات والمخاوف اثناء حرب مؤتة وحمدت الله لغيابه خوفاً عليه ان يصاب بسوء اذا تعرض لسهام الحجازيين

فلما انقضت الحرب وعادت البلقاء الى السكينة عادت هي الى الاضطراب واستبطأت حماداً لانها كانت تتوقع رسالة منه أو خبراً عنه . فلما طال الامد ولم تسمع عنه شيئاً انقبضت نفسها واستولت عليها المخاوف

وكانت والدتها تراقب حركاتها وسكناتها وقد ادركت ما بها فاخذت تشاغلها بالآمال وتؤاسيها بالوعود وهي لا يهدأ لها بال ولا ترتاح الى حديث على انها كانت تعلل نفسها بالذهاب الى دير بحيراء أيام مرور قوافل الحجاز به لعلها تسمع من أحد حديثاً يطمئنها وصارت تستأنس بالحجازيين وترتاح الى كل قادم من الحجاز وخصوصاً الذين يقدمون من مكة ولكنها كانت كلما سمعت اسم الكعبة اختلج قلبها واضطربت جوارحها وهي مع ذلك لا يهدأ لها بال الا بالسؤال عنها والبحث عن اخبارها حتى التقت يوماً بقافلة قادمة من مكة فسمعت الناس يتحدثون عن فتحها وما كان من دخول المسلمين اليها عنوة وقتل بعض اهلها فارتعدت فرائصها وتصورت حماداً في تلك المدينة عرضة لسيوف المسلمين فازداد بلبالها وودت لو انها تطير الى الحجاز فترى ما تم لحبيبها

ثم رأت ترددها الى الدير واستماع تلك الاحاديث لا يزيدها الا قلقاً فانقطعت عنه وانزوت في صرح الغدير لا ترى أحداً ولا تسمع خبراً مخافة أن يكون فيما تسمعه نبأ يسوءها . ثم سمعت بموت الحارث بن ابي شمر والد ثعلبة فاحست بارتياح لعلمها ان موته يقلل من نفوذ ابنه لدى والدها . على ان ذلك لم يزد شيئاً من اسباب سعادتها فالهموم ما زالت تتراكم عليها وليس لديها من تشكو همها اليه غير والدتها لكنها كانت تخاف مخاطبتها بهذا الشأن لئلا تسمع منها ما يزيدها يأساً ففضلت الكتمان وهي مع ذلك لا تزداد الا نحولا وانقباضاً وميلا الى الخلوة

وكانت كلما خلت بنفسها نظرت الى الاساور في يدها وجعلت تقلبها

وتتنسم منها رائحة حماد فاذا اشتد بها الهيام بكت وتحرقت ونقمت على والديها لانهما ابعدا حماداً عنها وخيل لها انهما انما ارسلاه الى تلك الاصقاع للتخلص منه. وما زال هذا الفكر يتمكن منها حتى أصبح بمنزلة الاعتقاد وصارت تنفر من مجالسة والدتها وتسيء الظن بها فلم يردها ذلك الا رغبـة في الخلوة والانقطاع عن الناس

وأما والدتها فقد كانت لنباهتها وحدة ذهنها لا تغفل عن خاطر يمر في ذهن ابنتها وكانت تعذرها على ذلك لانها شعرت هي ايضاً بارتكابهـا امراً قبيحاً بارسال حماد في مهمة خطرة الى هذا الحد . وقد زاد ندمها خبر وفاة الحارث ابن ابي شمر وضعف نفوذ ثعلبة مع كره هند له فتحققت عند ذلك أن هنداً يستحيل عليها الاقتران به وقد اصبح بعـد موت والده وضيع المنزلة ولم يعد جبلة يخشى بطشه لو رد طلبه

فاصبحت سعدى بسبب ذلك شاعرة بخطأ فظيع ارتكبته امام ابنتهـا فاحرمتها شهماً يحبها وتحبه وصارت هي اكثر رغبة من هند في عود حماد وصممت في باطن سرها على انه اذا عاد ولو خائباً لتساعدنه في الحصول عليها ولو ابى والدها . على أنها لم تكن تستحسن مخاطبة هند بهذا الشأن لئلا توطد آمالها ثم ربما لا يعود حماد من الحجاز فيكون ذلك سبباً في زيادة احزانهـا فصبرت نفسها لترى ما يأتي به القدر ولـكنها ما برحت تتنسم الاخبار لعلهـا تسمع شيئاً جديداً

أما جبلة فقد كان في البلقاء مشتغلا عن هذه الامور بما كان من الحرب في مؤتة فما تم أن رجع المسلمون حتى توفي الحارث فزاد اشتغاله وعظم اهتمامه بضم قبائل العرب في الشام والبلقاء اليـه لان العرب المتنصرة هناك قبائل وبطون لـكل منها راية وامير وكانت في زمن الحارث منقسمة الى فئتين أحداها تابعة للحارث والاخرى لجبلة . فلما توفي الحارث اشتغل جبلة بضم قبائل الحارث اليه ان لم يكن كلها ولم يطمع بذلك الا لعلمـه بضعف ثعلبة عن القيام بما قام به والده قبله ولاعتقاده ان أمراء القبائل انفسهم يكرهون ثعلبة لدناءته وشراسة أخلاقه . فوقع بسبب ذلك تنافر بين جبلة وثعلبة وأحس هذا بضعفه وخاف

العاقبة لكن سوء خلقه لم يهده الى سبيل يسترضي به عمه فاخذ يطعن فيه أمام الامراء يريد تحقيره في اعينهم فلم يحتقروا الا ثعلبة . وبلغ ذلك جبلة فحقدها عليه وزاد سعيه حتى اخرج كل العرب الغساسنة من حوزته ولم يترك منهم الا شرذمة قليلة

فازداد ثعلبة لؤماً وسفاهة وأخذ يطعن في جبلة وابنته وسائر اهل بيته . فندم جبلة لما وقع منه في حق حماد واسف لانفاذه في تلك الرسالة الخطرة ولم يزدد مع الزمان الا ندماً ولكنه كتم ندمه ينتظر ما يجيء به القدر على انه صمم في باطن سره ان يكفر عما ارتكبه في حق حماد بان يزوجه بابنته سواء عاد بالقرطين أو بدونهما فضلاً عما في ذلك من النكاية في ثعلبة

الفصل السابع

هند والقمر

وما زالت هذه حال هند حتى كاد ينقضي العام ولم تسمع عن حماد خبراً فترجح لديها أنه إما قتل أو فشل أو شق عليه الرجوع خائباً فهاجر الى مكان بعيد أو لعله فتك بنفسه فراراً من اثقال الفشل وتخلصاً من عذاب الحب فتراكمت عليها الهموم . وفي ذات يوم قضت هند نهارها في مثل هذه الهواجس ووالدتها تسارقها اللحظ وتغتنم فرصة لتخاطبها وهي تتجاهل وتبتعد . فلما سدل الليل نقابه دخلت الى غرفتها وأوصدت الباب وراءها وجلست الى النافذة المطلة على الحديقة والقت جنبها على وسادة وجعلت رأسها على كفها وكانت الليلة مقمرة والجو صافياً والبدر عند اول بزوغه من وراء التلال وقد أرسل أشعته على الاودية والجبال . فاخذت تتأمل بما احدثه من الاظلال الطويلة على السهول والبساتين ونظرت الى حديقة القصر فرأت أشجارها متشامخة تناطح السحاب لكن اظلالها أطول منها كثيراً وقد وقعت تلك الاظلال على ما هنالك من أغراس الريحان وغيره من أنواع المطريات فحجبتها عن البصر ولكنها لم تحجب رائحتها فضوع القصر منها . وقد هدأت الطبيعة

واوت الطيور الى اوكارها وسكنت الرياح فلم تسمع الا خرير ماء الغدير في وسط البستان ونقيق الضفادع . ونظرت الى ضفاف ذلك الغدير فرأت أشجار الحور مرتبة صفوفاً كأنها عذارى جئن للاستقاء فهالهن سكون الطبيعة فبهتن ووقفن على ضفاف الغدير صامتات .

فما برح القمر ان اعتلى وظهر وجهه واضحاً فاستقبلته هند وجعلت تتأمله فاحست بارتياح الى منظره فتذكرت ارتياحها الى رؤية حبيبها فاختلج قلبها فعادت الى الانقباض فارسلت نظرها الى القمر لعلها تسترجع ذلك الارتياح فامتنع عليها

ولكنها ما لبثت ان تأملت وجه القمر حتى ترقرت الدموع في عينيها وأخذت تخاطبه قائلة « ألعلك مشرق الآن على منازل مكة وجبالها . ألعل حبيبي هناك ينظر اليك ويستقبلك بوجهه . ليته يفعل ذلك فيلتقي طرفانا عندك فنجتمع على بعد الدارين

الى الطائر النسري انظري كل ليلة فاني اليه في العشية ناظرُ
عسى يلتقي طرفي وطرفك عنده فنشكو اليه ما تكن الضمائرُ

« نعم اني ارى على وجهك صورة كأنها ظل وجهه فهل يرى هو مثل ذلك ايضاً »

ثم عادت الى البكاء فاطلقت لنفسها العنان ولم تمالك عن الشهيق وهي تظن نفسها منفردة لا يسمعها احد ولكنها ما لبثت ان سمعت قارعاً يقرع الباب فعلمت أنها والدتها سمعت صوت بكائها فجاءت لتعزيتها فودت هند البقاء في خلوتها فتظاهرت بالنوم ولم تنهض لفتح الباب فقرعته ثانية وألحت عليها ان تفتحه فمسحت عيونها ونهضت ففتحت الباب ولم يكن في الغرفة نور غير ضوء القمر الداخل من النافذة فدخلت سعدى وهمت بهند وضمتها وجعلت تقبلها وتنظر الى وجهها لتتحقق بكاءها وهند صامتة مطرقة لا تبدي حراكا . فقالت سعدى ما بالك يا ولداه ما الذي يبكيك لماذا لا تشكين اليَّ همك ألست والدتك أما أنت ولدي وفلذة من كبدي ألا تعلمين اني أحبك

فلبثت هند صامتة ولكنها نظرت الى والدتها بطرف عينها نظرة

التأنيب ولم تفه بكلمة ففهمت سعدى انها توبخها لما ارتكبته بشأن حماد ولكنها ارادت مغالطتها فأخذتها بيدها الى السرير واجلستها الى جانبها وقالت ما بالك لا تجيبيني يا هند أتكتمين عني شيئاً ألم اكن خزانة اسرارك قولي يا ولداه ما يبكيك

فنظرت هند اليها وكان ضوء القمر واقعاً على وجهها فرأت سعدى الدموع تتلألأ وهي ساقطة من عينيها فانفطر لها قلبها وهمت بها ثانية وضمتها وتناولت منديلها وجعلت تمسح لها الدموع فحولت هند وجهها نحو النافذة وتنهدت وهي تنظر الى القمر وضوءه على السهول والجبال

فنهضت سعدى ووقفت معترضة بينها وبين النافذة وقالت لها قولي يا ولداه قولي ما الذي يبكيك لقد قطعت قلبي ولم يعد لي صبر على بكاك ألا تعرفين قلب الوالدة

فوقفت هند ثم مشت نحو النافذة ووالدتها تعترضها وتمسك يدها ثم وقفت وقفة من ينتظر جواباً فنظرت هند اليها شزراً وقالت « نعم يا أماه اني أعرف قلب الوالدة ولكن الوالدة لا تعرف قلب ابنتها »

فادركت سعدى مرادها فقالت ومن قال لك يا هند اني لا أعرف قلبك

فقالت لو عرفت قلبي ما سببت له هذا الشقاء لاني أعرف حنوك

قالت كيف لا أعرف قلبك يا ولداه وقد كشفت لي غوامض اسراره

قالت اذاً عرفت حاله ولم تشفقي عليه ... ؟ فلا بأس سامحك الله وسامح والدي و ..... وشرقت بدموعها

فابتدرتها سعدى وأظهرت الاستغراب قائلة كيف تقولين ذلك يا هند كيف لم نشفق على قلبك وكل ما حصل انما حصل بمصادقتك ورضاك لما فيه من الفخر لك

فهزت هند رأسها وهمت بالجواب ثم سكتت فأتمت والدتها الكلام قائلة ومع ذلك فان الاحوال قد تغيرت بموت الحارث واذلال ثعلبة فسواء جاء حماد بالقرطين أم جاء بدونهما فليس ثم من يقف في سبيله

فلما سمعت اسم ثعلبة ارتعشت جوارحها فقالت « آه يا أماه لقد قضي

الامر .. أين حماد الآن ... آه اين هو . هل تعلمين أين هو وقد انقضى العام منذ سار من هذا المكان ولم نسمع منه شيئاً » ثم حولت وجهها نحو النافذة وقالت وهي تبكي « آه يا حماد آه ... سامح الله من كان سبباً في بعادك ... ابكي يا أماه على هند ابكيها وارثيها ولا يتعب ضميرك أو تندمي على ماحدث لي وله على يدك ويد والدي انما هي الاقدار قد كتبت علينا هذا الشقاء » ثم قالت وقد غلب عليها الشهيق وعلا صوتها « آه يا حماد حبيبي أين انت الان ألعلك على الارض أم في السماء أم اين انت . من يخبرني بمكانك لكي اطير اليك فاما ان أعيش بقربك أو ان ادفن تحت قدميك فقد كفاني ما سببته لك من الشقاء وما جزاء عملي هذا غير الموت . الموت الموت .. »

قالت ذلك ورمت نفسها على السرير ووالدتها لا تزال ممسكة بيدها تحاول تلطيف ما بها . فلما التمت نفسها خافت سعدى أن يغمى عليها فبادرت الى الماء لترشفها به وأمسكتها بيدها وجعلت تخاطبها وقلبها يتقطع ولولا اشتغالها بتعزيتها لكانت هي المغمى عليها لا محالة ولكن اشتغال الانسان بمن يحبه ينسيه نفسه. فهمت بها وخاطبتها فتحققت أنها لم يغم عليها فحاولت اجلاسها وجعلت تقبلها وهند مشتغلة بالبكاء والشهيق ويدها على وجهها

فرأت سعدى أن تتركها هنيهة ريثما يهدأ روعها فلبثت صامتة مطرقة تفكر في أمرها حتى اذا آنست منها سكينة وهدوءاً جاءت بكاس من الماء وقدمتها اليها لتشرب فشربت وهي مطرقة خجلاً لما ظهر من عواطفها رغم ارادتها

فابتدرتها والدتها قائلة خففي عنك يا ولداه فانك مثال التعقل والرزانة عندنا فكيف أطلقت لنفسك العنان

فظنت هند أنها توبخها فقالت كفاني توبيخاً فقد علمت اني أتيت امراً يعاب عليه أمثالي ولكن الكاس قد طفحت والامر نفذ

قالت سعدى لم ينفذ شيء بعد يا هند ان حماداً نصيبك وقد قلت لك سواء جاء بالقرطين أم لا فانه لك وأنت له

فتنهدت هند وقالت هذا اذا قدر الله لنا أن نراه ولا أظنه اذا فشل في مهمته الا ضارباً في بطن الارض ولا يعود الينا صفر اليدين

قالت تدبري الامر بالصبر والحكمة واتكلي على الله انه قادر على كل شيء وهلم بنا نصلي ونطلب اليه تعالى أن يعيده سالماً

فتأملت هند في حديث والدتها فترجح عندها انها تقول الصدق بشأن حماد واقترانه بها سواء جاء بالقرطين أم لا فسرها ذلك ولكنها أرادت ان تستطلع ما يكنه والدها من هذا القبيل فقالت لوالدتها

هي انك راضية بذلك شفقة على صباي فهل يرضى والدي به

قالت ان والدك اكثر رغبة مني في الامر وخصوصاً بعد أن وقع ما وقع بينه وبين ذلك الخائن من النفور على أثر وفاة والده الحارث فطيبي نفساً وقري عيناً واتكلي على الله ولنطلب اليه تعالى أن يحفظ لك خطيبك ويعيده اليك سالماً معافى وننسى اتعابنا

فسكن روع هند وبعد هنيهة سارت الى فراشها وسلمت أمرها الى الله

الفصل الثامن

البشارة

وأصبحت في اليوم التالي فعاد اليها الاكتئاب فودت انها لم تستيقظ أو انها تظل نائمة فلا تفيق الا على صوت حماد فلبثت في الفراش تلتمس النوم وأخذت تتقلب عبثاً فلما كان الضحى جاءت والدتها تستفقدها فلما رأتها في الفراش انشغل بالها واستطلعت السبب فشكت لها تكاسلها عن القيام فجلست الى جانبها تحادثها بما يذهب عنها الهواجس وهند تسمع وأفكارها تائهة حتى كانت الظهيرة فسمعتا صوتاً خارج الصرح ينادي « من نذر نذراً انجران المبارك » فخفق قلب هند لذلك الصوت وهبت من فراشها بغتة وبغتت أيضاً والدتها لانهما تسمعتا صوت سلمان وتذكرتا قدومه اليهما قبلاً بشأن حماد فهرولتا الى النافذة فرأتا راهباً على فرس مثلما رأتا سلمان قبلاً فتحققتا انه هو بعينه فخالت هند نفسها في منام لقدومه عليها بغتة على غير انتظار فنادتاه فتحول ودخل فخرجت سعدى لاستقباله وظلت هند في الغرفة جالسة وركبتاها ترتجفان من التأثر ولم

تستطع الوقوف الا بعد هنيهة وقد سمعت وقع أقدام الرجل مع والدتها داخلين الى القصر فوقفت لاستقبالهما . فوصل الرجل الى باب غرفتها وحالما وقع نظرها عليه عرفته فملتها الدهشة ولم تعد تعلم كيف تكلمه فابتدرها هو بالسلام وتبسم وهمَّ بتقبيل يديها فمنعته وصاحت ما وراءك يا سلمان وكانت والدتها قد أغلقت الباب

قال ما ورائي الا الخير يا سيدتي كيف أنت

قالت نحن في خير وكيف حماد وأين هو اخبرنا

قال هو في خير وقد تركته في دير بحيراء ينتظر أمرك ويدعو لك

قالت هل هو في خير وعافية

قال نعم يا مولاتي انه في خير وقد التقى بوالده في المدينة

فخرت هند الى الارض فقبلتها وقالت نحمد الله على سلامته قالت ذلك وقد انبسط وجهها وابرقت أسرتها

فقالت سعدى أين هو حماد ولماذا لم يأت معك

قال انه بقي في الدير خجلاً من مقابلتكم

قالت وما الذي يخجله اننا لا نريد منه شيئاً غير سلامته

قال والقرطان

قالت لا حاجة بنا اليهما فقد زال السبب الذي دعا الى طلبهما

قال ان أمر القرطين قد عاد علينا بالفشل فقطعنا الفيافي والقفار حتى أتينا الكعبة فلم نقف لها على خبر . وقص عليهما حكاية سفرهما من يوم خروجهما من صرح الغدير الى أن عادا وكيف التقيا بعبد الله وما عزما عليه من البحث عنهما في العراق

فقالت هند دعنا من الاقراط فقد أغنانا الله عنها

فعجب لذلك التغير وأراد أن يعلم اذا كان جبلة في مثل رأيها فقال وهل سيدي الملك جبلة في خير

قالت سعدى نعم هو في خير ينتظر قدوم صهره حماد بفارغ الصبر

فلما سمع قولها (صهره) زاد اطمئناناً برضاها عن حماد فقال وهل هو أيضاً مغفل أمر القرطين

قالت انه لا يريد شيئاً غير سلامة ولدنا حماد فادعه الينا لنراه

قال انه يود ذلك من صميم قلبه فأذنوا لي بفرصة لآتي به اليكم

قالت فليأت باقرب وقت ولكننا نود حضوره ووالد هند حاضر ليفرح بعودته وليأت ايضاً والده معه ليتم الفرح

ففرح سلمان بهذه الاخبار ولكن خاطراً مرّ بذهنه فاسكته بغتة فلمحت هند شيئاً غيّره فقالت ما بالك يا سلمان ما الذي أسكتك فهل هناك ما يمنع حضوره أخبرني

قال كلا يا مولاتي انه ينتظر هذا الاجتماع انتظار الظمآن للماء الزلال وهو انما تحمل الاخطار ومشاق الاسفار طمعاً بذلك ولكنه . . .

فبغتت هند وسعدى معاً وقالتا ما الذي يدعو الى ترددك قل يا سلمان لقد شغلت بالنا

قال لا يخفى عليكما ان سيدي حماداً تشرف بخطبة سيدتي هند ووالده لا يعلم ولما علم بذلك يوم اجتماعنا في المدينة سرّ كثيراً ولكنه استمهل حماداً في اتمام هذا الامر ريثما يأتي يوم الشعانين

قالت سعدى وما علاقة يوم الشعانين بذلك

قال لا علاقة له به الا من حيث النذر فقد علمتم ان سيدي حماداً منذور ان يقص شعره في دير بحيراء من يوم ولادته على أن يكون قصه يوم الشعانين في السنة الحادية والعشرين من عمره فلما كان اليوم المعين منذ عامين حدث ما حدث مما تعلمانه وفرّ ولم يتمكن من وفاء النذر فلما عاد من هذا السفر قال سيدي عبد الله لولده انه سيقص شعره في يوم الشعانين المقبل بعد بضعة أشهر وتقدم اليه أن لا يباشر عملاً مهماً قبل ذلك اليوم لانه سيطلعه على امور تهمه ولكنني لا أظن لها علاقة بهذا الامر

فلما سمعت هند ذلك الكلام استعاذت بالله مما هو مخبأ لها في عالم الغيب وقالت في نفسها ألعل أمامنا عراقيل أخرى غير التي انقضت

فقالت سعدى لا بأس ولكن ذلك لا يمنع سيدك عن الحضور ليلتقي بوالد هند وخصوصاً لانه غريب فقد يستأنس به وبمن يعرفهم على يده في البلقاء . أما ذلك الامر فما نحن في عجل اليه وانما المراد ان تطمئن قلوبنا ويهدأ بالنا ونرى بعضنا بعضاً وقد تمهدت العقبات بموت الحارث وسقوط نفوذ ثعلبة بين القبائل

فقال سلمان نحمد الله على نعمه ولا أقدر ان أصف لكم مقدار سرور مولاي حماد بهذه الاخبار فعينوا المكان والزمان اللذين تريدان الاجتماع بهما لاخبر سيدي

قالت هند فليأت حماد أولا لنراه ثم نعين يوماً يجتمع فيه الوالدان لاننا نخشى اذا انتظرنا اجتماعهما أن يطول الاجل فان والدي في البلقاء وربما لا يستطيع المجيء الا بعد بضعة أيام . وأرادت هند بذلك ان تجتمع بحماد قليلاً على انفراد لتستوضح أمر النذر وعلاقته بالاقتران

فقال سلمان ها أني ذاهب لادعوه وأظنه يكون هنا في صباح الغد ان شاء الله

فخرج وقد ندم على ما فرط منه في حديثه عن عبد الله وعلم انه أخطأ فيما ذكره بشأن النذر وخاف أن يشق ذلك على حماد فعول على التخلص من هذه التبعة بالحيلة فاسرع حتى أتى الدير في مساء ذلك اليوم وكان قد سار في هذه المهمة ولم يخبر عبد الله لعلمه انه لا يريد ذلك

فلما وصل الدير كان حماد في انتظاره فاستقبله وهو ينظر الى وجهه لعله يقرأ على ملامحه ما يبشره فرآه يبتسم ووجهه منبسط فرحب به وسأله عن الخبر

فقال ابشر يا مولاي ان الله قد محا كل شقاء كتب علينا وزالت كل الموانع التي كنا نخاف وقوعها بينك وبين هند

فقال وكيف هند هل هي مسرورة برجوعي وهل علمت اننا لم نعثر على القرطين وماذا قالت

فضحك سلمان وقال ان القرطين لم يعد لهما دخل في امر اقترانكما فقد

تغير وجه المسألة بموت الحارث بن أبي شمر . وقص عليه الخبر الى ان قال واذا شئت الاقتران في صباح الغد فهو لك لان والدة الفتاة ووالدها راضيان بك لا يريدان منك شيئاً واما هند فانت تعلم قلبها

قال وهل طلبت مواجهتي

قال كيف لا وقد طلبت أيضاً ان يأتي مولاي والدك على أن يكون الملك جبلة موجوداً لتتم المعرفة بينهما واني واثق باقبال نجم سعدنا لان اقترانك بهند فضلاً عن انه من أتم أسباب سعادتنا فهو سبيل الى اكتسابكما نفوذاً لدى ملك غسان

فقال ولكنك تعلم ان والدي لا يرضى الذهاب معي بهذا الشأن

قال أعلم ذلك وقد ذكرته أمام سيدتي هند

فبغت حماد وقال كيف ذكرته وماذا قالت

قال ذكرته على اسلوب لطيف فقلت ان سيدي عبد الله سر كثيراً بخطبتكما ولكنه يود وفاء النذر قبل عقد الاقتران

قال حماد أخشى ان تكون هند قد فهمت شيئاً يحملها على اساءة الظن

قال لا أظنها فهمت شيئاً من ذلك وعلى كل حال فانك ذاهب اليها في صباح الغد وقد أجلنا اجتماع والديكما الى فرصة اخرى فاذا اجتمعتما افهمها الحكاية كما تريد

قال اذاً نذهب الى صرح الغدير في صباح الغد وماذا نفعل بوالدي هل نخبره

قال ارى ان نخبره باننا ذاهبون لطمأنة اهل الصرح بعودتنا واننا لا نتحدث بشأن الخطبة او الاقتران مطلقاً

قال هذا هو الصواب

الفصل التاسع

حماد وهند

وفي مساء ذلك اليوم خاطب حماد والده في أمر هند وقال له ان وفاة الحارث ربما سهلت امر اقترانه وربما عدلوا عن امر القرطين . وأظهر حماد سروره بذلك فلم يجب عبد الله بكلمة

فقال حماد ألم تسر يا سيدي بذلك

قال اني أسر لسرورك ولكنني لا أزال ألح عليك بالاقتصار في هذا الموضوع ريثما يأتي يوم الشعانين ونفي نذرنا

قال اعاهدك باني لا أباشر امراً قبل مجيء ذلك اليوم ولكنني عازم في صباح الغد على الذهاب الى الصرح لاشاهد هنداً ووالدتها لاجل الاطمئنان وأظنهم يودون مشاهدتك

قال دع ذلك لبعد يوم الشعانين أما انت فاذهب لمشاهدة أهل صرح الغدير واحذر ان تمضي امراً

قال حسناً يا مولاي

وفي صباح اليوم الثاني ركب حماد باكراً وركب سلمان معه وسارا قاصدين الصرح

اما هند فانها لم تنم ليلتها تلك لعظم تأثرها فرحاً بقدوم حماد الا عند الفجر فاغمض جفناها فنامت هنيهة ثم افاقت والشمس قد طلعت فظنت نفسها قد ابطأت في الفراش وخافت ان يأتي حماد وهي نائمة فنهضت ولم يؤثر فيها السهر شيئاً لتنبه عواطفها فاغتسلت ولبست ثيابها وعادت الى غرفتها وفيها نافذة تشرف على طريق بصرى فجلست اليها وعيناها شائعتان نحو الافق لعلها ترى حماداً قادماً وكانت كلما رأت شبحاً او ظلاً او سمعت صوت صهيل او وقع اقدام خفق قلبها ولا يكاد يحدث في الصرح صوت الا سمعته [illegible] لعظم تأثرها

اما سعدى فقد كانت توصي الخدم في اعداد ما يلزم للضيافة من الذبائح ونحوها فلما فرغت من ذلك فكرت في هند وما يكون من حالها عند ملاقاتها حماداً بعد طول غيبته فخافت عليها من شدة تأثرها لئلا يظهر منها ما تعاب عليه او يؤثر في صحتها فرأت ان تسير اليها وتشاغلها لتذهب ما بها من قلق الانتظار فجاءتها فاذا هي في مثل ما خافته عليها

فلما سمعت هند وقع اقدام والدتها كادت تبغت لولا تعودها سماع ذلك فاستقبلت والدتها باشة فابتدرتها سعدى قائلة ما بالك منفردة يا هند اظنك تتمنين عدول حماد عن المجيء

فضحكت ولم تجب

فقالت هيا بنا الى الحديقة تتنسم رائحة الازهار لان بقاءك هنا ممل قالت ذلك وامسكت بيدها ومشتا حتى نزلتا الى البستان واوغلتا بين الاشجار وهند تسارق النظر من بين الشجرة لعلها ترى حبيبها قادماً ولكن والدتها سارت بها في الحديقة حتى غابت عن الطريق وكانت هند انما تمشي مجاراة لها وقلبها يحدثها بالرجوع الى القصر لئلا يصل حماد في اثناء غيابها

وفيما هما في ذلك سمعتا صوت صهيل عرفت هند حالا انه صهيل جواد حماد فخفق قلبها ونظرت اليها سعدى متجاهلة فاذا هي قد بغتت وهمت بالرجوع

فقالت لها دعينا هنا فانه لا يلبث أن يأتي فنراه . وقد أرادت سعدى ان يكون الملتقى على انفراد مخافة ان يحدث في اثناء ذلك الاجتماع ما لا يستحسن اطلاع أهل القصر عليه

فسكتت هند ولكنها ما فتئت تنظر من خلال الاشجار نحو باب الحديقة تنتظر مجيء حماد بفارغ الصبر ولم تمض هنيهة حتى رأته قادماً وعلى رأسه الكوفية والعقال وقد تقلد الحسام تحت عباءة حريرية مزركشة بالقصب فلما وقع نظرها عليه زاد خفقان قلبها واصفر وجهها ثم ما لبثت ان علته الحمرة وظلت واقفة . اما والدتها فتقدمت حتى التقت بحماد فسلمت عليه فهم بتقبيل يدها احتراماً فمنعته وهند لا تزال واقفة وقلبها يحدثها بالمسير نحوه ولكن

الحشمة والحياء منعاها

اما هو فاسرع نحوها ومد يده مسلماً ووجهه يطفح سروراً وعيناه شاخصتان اليها تتقدان ذكاء وهياماً

فمدت يدها وهي تنظر الى الارض خجلا ولكن الابتسام غلب عليها ولما امسكت يده شعرت بقوة انبثت في كل اعضائها ثم توردت وجنتاها وابرقت اسرتها كان تلك القوى مجرى كهربائي انتشر في اعضائها ثم انحصر في وجهها فاضاء . فقال حماد كيف انت يا هند لقد اطلت الغيبة عليكم ولكنني عدت مع ذلك بخفي حنين

فغلب عليها الحياء ولكنها نظرت اليه بعينين براقتين تنبعث اشعة الهيام منهما وقالت لا حاجة بنا الى الخفين ولا القرطين وانما حاجتنا الى عودتك سالماً فالحمد لله على ذلك . قالت ذلك ودموع الفرح تتناثر من عينيها وهي تبتسم فارادت اخفاء دموعها فتحولت نحو شجرة بالقرب منهما تحتها مقعد من حجر للجلوس وتحول حماد وسعدى والكل سكوت ولكن قلبي العاشقين يتكلمان أو لعلهما يضحكان فقط ولو تركا على انفراد لانطلقا لساناهما وتعاتبا وتغازلا ولكن وجود سعدى حملهما على الاكتفاء بحديث القلبين

ولما استقر بهم الجلوس قالت سعدى لقد أطلت الغيبة علينا فانشغل بالنا كثيراً ولما سمعنا حكاية سفركم من سلمان حمدنا الله على عودتك سالماً بعد ما قاسيته من الخطر

قال لا يهمني من أمر سفرتي هذه شيء ولا أحسبني اتيت امراً ولا تحملت شقاء طالما كان سفري عقيماً وأن يكن ذلك لغير قصور مني لان السبب فقدان القرطين من الكعبة في أثناء هدمها وبنائها . اما انا فاني عازم على مواصلة البحث عنهما في العراق أو غيرها حتى آتي بهما

فابتدرته هند قائلة لا لا ... لا حاجة بنا الى الاقراط فان عندنا من فضل المولى ما يكفينا مؤونة هذه الاسفار

قال وماذا يقول الناس عني وقد عدت صفر اليدين أليس عاراً على حماد ان يرجع خائباً عن أمر طلبته هند ! ! قال ذلك وعيناه تنظران الى هند

ويكاد النور ينبثق منهما

فالتفتت هي اليه وقالت وهي تبتسم لا لم يعد حماد خائباً لانه جاهد في سبيل القرطين جهاداً حسناً ولا يزال ساعياً في التفتيش عنهما في خزائن الحيرة ولكنا نحن حولناه عن عزمه فما ذلك من قبيل الخيبة لا سمح الله

ثم قالت سعدى ان أمر القرطين يا ولدي لا يهمنا مطلقاً فمثل هذه الاقراط كثير عندنا من نعم الله . من ذلك لؤلؤتان معلقتان بتاج الملك جبلة هما مثل لؤلؤتي قرطي مارية تماماً حتى لقد يحسبهما الناس نفس القرطين (١)

قال حماد اني لا أجهل نعم الله على ملوك غسان زادكم الله نعماً ولكنني وددت ان أجعل لي سبيلاً استحق به هنداً فان نسبي وحده ولا حسبي يخولاني هذا الشرف ولكن ذلك من جملة كرم الغسانيين على الغرباء . قال ذلك وتبسم والتفت الى هند فاذا هي تبتسم ايضاً وتنظر الى الارض

فالتفتت سعدى اليه وقالت ان النسب يا ولدي لا يجعل الانسان انساناً وان الرجل باصغريه لا ببرديه فان ما شهدناه من شهامتك وكرم أخلاقك لجدير بان يرفع منزلتك الى اوج الملوك وكم من ملك تحطه دناءته الى مصاف الصعاليك وشاهدنا على ذلك قريب. قالت ذلك ونظرت الى هند كانها تذكرها بدناءة ثعلبة والمقابلة بينه وبين حماد . فأدرك حماد ذلك فأطرق خجلاً لما سمعه من الاطناب ولكن قلبه رقص طرباً لتخلصه من أمر القرطين وتمثل له ملاك السعادة طوع ارادته فابرقت أسرته ثم تذكر يوم الشعانين وتأخير الاقتران بسببه فانقبضت نفسه على ان اجتماعه بهند في تلك الساعة أنساه كل انقباض . ثم أتمت سعدى كلامها قائلة أرى على ثيابك أثر الغبار ألا تحتاج الى تبديل وغسيل فاذا شئت هلم بنا الى القصر

(١) الاغاني

قال لا أشعر بتعب وان الغسيل والتبديل أمران مستدركان ولكن الجلوس في هذه الحديقة بين الاشجار ومجاري المياه والاستظلال تحت هذه الشجرة مما ترتاح اليه نفسي ولا أخفي على سيدتي اني لم اكن ارجو مثل هذا الاجتماع بعد ما قاسيته من المشاق ولا أنسى يوماً قضيته في مكة على سطح غرفتي . . . لا أذكر يوماً كنت فيه كما كنت في ذلك اليوم لا أعاده الله

قالت هند وكيف كنت

قال لا فائدة من ذكر ذلك غير الكدر ولكنني أمثل لك الامر تمثيلا . تصوري اني ركبت متن الاسفار وقطعت البراري والقفار للبحث عن قرطي مارية مهراً لحبيبتي هند والتفتيش عن والدي فنزلت بلداً شهدت فيه حرباً وخطراً ثم تحققت فقدان القرطين وضياع والدي فلما تراكمت كل هذه المصائب عليّ صعدت الى سطح غرفتي وقد ضاق صدري وتذكرت هنداً ووالدي وما أنا فيه من اليأس فماذا تكون حالي .. ؟

فقالت سعدى لقد سرنا العثور على والدك هل هو في خير وهل ينوي زيارتنا فاني أحب تعريفه بالملك جبلة ليتم سرورنا فقد زالت كل الحواجز وتمهدت كل العقبات والحمد لله

فتذكر حماد مسألة النذر وحكاية يوم الشعانين فقال في نفسه لم تزل أمامنا عقبة لا ندري ما وراءها . ولكنه أجاب سعدى قائلاً ان والدي يسر كثيراً بمقابلة الملك جبلة وهو شرف يتمناه أمثالنا ولكنه الآن في شاغل وسيغتنم اول فرصة لمقابلة مولاي الملك وانا كذلك

الفصل العاشر

جبلة

وفيما هم في مثل هذه الاحاديث آنسوا في أهل القصر حركة واهتماماً ثم جاءهم مخبر ينبئهم بمن جاء يبشر بقدوم الملك جبلة الى الصرح فبغت الجميع لقدومه على غير انتظار ونهضوا يطلبون القصر ينتظرون قدوم الملك

فمشوا صامتين كل منهم يفكر في أمر وكان حماد اكثرهم بغتة واهتماماً لانها أول مرة سيقابل بها جبلة عند عودته فخاف ان يكون فشله في البحث عن القرطين سبباً في فتور محبته . وأما هند فكانت تتوقع من والدها حنواً الى حماد بناء على ما سمعته من والدتها . واما سعدي فلم تستغرب قدومه لانها هي التي أنفذت اليه رسولا بالامس تخبره بمجيء حماد وانه سيزورهم في ذلك النهار فاذا استطاع المجيء فعل

فوصلوا القصر ودخلوا قاعة الجلوس وما استقر بهم المقام حتى نودي في القصر بمجيء الملك فخرج أهله لاستقباله وخرج حماد وهند ووالدتها الى الحديقة

وكانت الفرسان قد وصلت فتحول جبلة عن جواده وعليه لباس السفر من العباءة وقد تقلد الحسام ومشى وهو يلتفت ذات اليمين وذات الشمال يبحث عن حماد حتى اذا وقع نظره عليه دنا منه فتقدم حماد وهو يقدم قدماً ويؤخر أخرى ليرى ما يبدو منه . أما جبلة فأسرع اليه وسلم عليه مصافحة وقبله قبلة الوالد لولده والناس ينظرون . وكانت هند تراقب حركات والدها فلما رأت منه ذلك رقص قلبها طرباً وتناثرت دموع الفرح من عينيها وكذلك والدتها . أما حماد فانه قبل يدي عمه وقد تحقق رضاه عنه فقال له جبلة أهلاً بولدي وعزيزي نحمد الله على عودتك سالماً

فأجابه حماد (وملامح الامتنان ظاهرة على وجهه) الحمد لله على كل

حال ولكنني أحمده لنعمه عليَّ برضا ملك غسان فانها نعم لا أقدر على تقديرها يا عماه

ثم تحول جبلة نحو هند فقبلت يده وقبلها وحماد ينظر فتحركت فيه عاطفة الغيرة عليها حتى من والدها ثم حيا سعدى ومشى الجميع نحو القاعة وعينا حماد على هند كأنه يريد أن يلتقفها بنظره وقد شق عليه مفارقتها بعد ان تقرر له الحصول عليها

وكان سلمان في جملة اهل القصر الوقوف في انتظار جبلة ولم يشأ دخول الحديقة مع حماد عند اول مجيئه مراعاة لما قد يدور بين الحبيبين من عبارات العتاب مما لا يهون التفوه به أمام احد

ودخل جبلة وسعدى وهند وحماد القاعة فسأل حماد عن سلمان فجاء فدعاه للجلوس هناك فامتنع توقيراً للجلسة فنهض حماد وامسكه بيده وقدمه الى الملك قائلا أقدم لكم يا عماه رفيقي وصديقي سلمان فانه كان معتمدي في اسفاري وهو محب غيور للملك جبلة وسائر آل منزله

فرحب به جبلة وامره بالجلوس فجلس والجميع جلوس ثم التفت جبلة الى حماد وسأله عن والده فقال أني تركته في دير بحيراء على ان يحظى بمقابلة مولاي في فرصة اخرى

قال لقد سررت كثيراً باجتماعكما بعد طول التشتت بسبب ذلك الغلام الغرّ (يريد ثعلبة) وقد كنت في غفلة عن امره الى ما بعد وفاة والده فتبعثر اصدقاؤه فاخبرني بعضهم بما ارتكبه هذا الخائن في سبيل الفتك بك على أثر ما أظهرته من الشهامة وكرم الاخلاق ويكفي انك عفوت عن قتله في حلبة السباق بعد ما عاينت من غدره وسوء قصده ولكن ذلك الخائن قد نال جزاء ما جنته يداه وكان الناس أنما يرمقونه ببعض الاحترام مراعاة لمنصب والده فما كاد الحارث يتوفى حتى نبذ نبذ النواة وصار مضغة في الافواه . ومن أثقل المصائب عليه أن يعلم بمجيئك ونيل مرامك ولا أظنه يسمع باقترانك حتى يقع ميتاً لشدة لؤمه وحسده قبحه الله. وكان جبلة يتكلم ولحيته تهتز وعيناه تتقدان غضباً مع محاولته اخفاء ما في نفسه وتخفيف ما به . فلما أتم كلامه أخذ

يتلاهى بتمشيط لحيته بأصابعه ويشاغل نظره بالالتفات الى خيل مربوطة خارج القصر كانت تتزاحم وتتضارب

اما الحضور فانهم لبثوا بعد اتمام حديثه سكوتاً تهيباً من غضبه ولكن قلوبهم كادت تطفح سروراً بما قاله عن ثعلبة . ثم وجه جبلة خطابه الى سعدى قائلاً اسقينا شيئاً نرطب به اجوافنا ونشرب نخب اجتماعنا فرحاً بقدوم صهرنا سالماً

فقالت ألا ترى ان نجلس الى المائدة فنتناول الطعام والمدام معاً

قال حسناً تفعلين

فصفقت فجاء غلام . فقالت هل تمت معدات الطعام

قال نعم يا مولاتي

فنهض جبلة ومشى فتبعه الجميع حتى دخلوا غرفة مدت فيها الاسمطة وعليها الاطباق والمواعين وكلها من الذهب والفضة (١) فجلسوا يأكلون ويشربون والفرح شامل لهم

فلما فرغوا من الطعام وقاموا عن المائدة تقدم جبلة الى حماد وأشار اليه ان اتبعني فتبعه حتى خرجا من القصر وجعلا يتمشيان في بعض طرق الحديقة فلما خلوا قال جبلة اعلم يا حماد انك الآن بمنزلة ولدي وقد قسم الله ان تكون صهراً لي وهذا امر احسبه من حظ هند لانك شهم يفتخر بشهامته وشجاعته ما يربو على الافتخار بالحسب والنسب وقد تركت اليك تعيين زمن الاقتران ولكنني أوجه التفاتك الى امر واحد وهو ان هنداً كما تعلم وحيدة ليس لنا ولد سواها فيشق علينا فراقها فاشترط عليك اذا تم الاقتران ان تقيم عندنا انت ووالدك ومن تريده من ذويك فتنزلون على الرحب والسعة فان البلاد تحتاج الى من يتولاها وليس لي ولد ذكر فانا احسنت السياسة مع القبائل اجتمعوا بعدي تحت لوائك وكنت ملكا عليهم

فلم يعد يعرف حماد كيف يشكر نعمه ولكنه وقف وكانا ماشيين فوقف جبلة فقال حماد ان هذه النعم وهذه الشيم مما يقصر لسان الناس عن اداء الشكر عليها . ان شرطاً اشترطموه يا عماه ان هو الا نعم انعمت بها علي جزاك الله

(١) الاغاني

عني خيراً . اما وقت الاقتران فلا يمكننا تحديده الآن لدواع لا اخفيها عنك

قال وما هي

قال لعل مولاي رأى طول شعري لما لبست الدرع يوم السباق

قال نعم اذكر ذلك وما سبب طوله

قال ان والدي نذرني اذا عشت لا يقص شعري الا في السنة الحادية والعشرين من عمري في دير بحيراء وضرب لذلك أجلا يوم الشعانين فآن ذلك اليوم منذ عام وبضعة اشهر فجئنا البلقاء فحدث ما حدث من سعي ثعلبة ضدي والقبض على والدي ثم لم نجتمع الا من امد قريب في المدينة فيرى والدي ان ننتظر يوم الشعانين القادم ونقص شعري في الدير . وقد اخبرني ان عنده حكاية سيقصها عليَّ في ذلك اليوم واوعز اليَّ ان لا أقطع في امر من الامور المهمة الا بعد ذلك اليوم فما رأي مولاي

فعجب جبلة لذلك السر وقال لا ارى مانعاً من تأجيل الاقتران الى ما بعد الشعانين فنجعله في يوم القيامة ولكنني استغربت هذا السر ألا تعلم ما موضوعه

قال كلا يا عماه لا اعرف عنه شيئاً ولا يعلم به احد سوى والدي وقد اخبرني انه لما وقع في الخطر مرة وخاف الموت لم يأسف على شيء اكثر من اسفه على ضياع ذلك السر

قال جبلة فلننتظر يوم الشعانين وكل آت قريب

ثم تحولا نحو القصر وكانت هند ووالدتها جالستين في القاعة فدخل جبلة وحماد وقضوا بقية ذلك اليوم في الاحاديث المتنوعة

فلما كان العصر التمس حماد العود الى الدير لئلا يستبطئه والده فينشغل باله عليه

فقال له جبلة افعل ما بدا لك ولكن أعلم يا ولدي ان صرح الغدير وسائر قصور البلقاء مفتوحة لاستقبالك متى اردت القدوم . فهم حماد بيد عمه فقبلها وكذلك فعل سلمان وودع هنداً وسعدى وكان قد امر فاسرجت الخيل واراد الاسراع في الشخوص الى دير بحيراء ليخبر والده بما لاقاه من

الاحتفاء وما عرضه عليه جبلة من الانعام لعله يرغب في القدوم على جبلة

فركبا وسارا وهند تشيعهما بنظرها خلسة حتى توار يا فعاد اهل الصرح فاحكى جبلة لسعدى ما دار بينه وبين حماد ولما عاد هو الى البلقاء احكت ذلك الى هند فكادت تطير من الفرح

اما حماد فانه وصل الدير في مساء ذلك اليوم وكان والده في انتظاره فاستقبله ودخلا الغرفة فاحكى له حماد ما لاقاه من الاحتفاء والاكرام وما دار بينه وبين جبلة مما لم يكن يرجوه . وكان حماد يتوقع ان يرى من والده بعد هذا الحديث اعجاباً او انبساطاً فلم ير وجهه يزداد الا انقباضاً ولم يجب بكلمة فلبث حماد ينتظر يوم الشعانين بفارغ الصبر

الفصل الحادي عشر

قص الشعر

وكان عبد الله كلما دنا ذلك اليوم زاد انقباضاً حتى قيل غداً يوم الشعانين فعلم ان الدير سيكون مزدحماً في ذلك اليوم وهو انما يلتمس الانفراد بحماد ليتلو عليه الحكاية فسار الى رئيس الدير وأطلعه على قصده

فقال وأي الغرف تريدون

قال نريد صومعة بحيراء فانها منفردة وفيها كرامة وبركة

قال ولكن الناس يقدمون اليها في مثل هذا اليوم زائرين

قال يزورونها بعد خروجنا منها فربما مكثنا فيها ساعات قليلة من الصباح الى الظهر . وكان عبد الله جليل الطلعة محترماً فأذعن له الرئيس

ثم قال عبد الله أعرف راهباً شيخاً من تلامذة بحيراء الراهب صاحب هذا الدير كان يقيم في الصومعة فهل هو باق هنا

قال انه باق ولكنه يشكو شدة الضعف لشيخوخته فلا يخرج من غرفته الا نادراً

قال ألا تظنه يخرج في صباح الغد اذا توسلنا اليه ان يرافقنا الى

الصومعة ويقص شعر غلامنا

قال لا أعلم ولكن عندنا من الرهبان والقسس كثيرين يفعلون ذلك

قال صدقت ولكنني افضل ذلك الراهب الشيخ لانني أعرفه

قال هلم بنا اليه نسأله فعساه يرضى

وسار الى غرفة من غرف الدير مغلقة الباب فقرعاه وانتظرا ريثما ينهض الشيخ لفتحه وبعد هنيهة فتح الباب وبان من ورائه شيخ هرم قد ابيض شعره بياضاً ناصعاً واسترسل من رأسه ولحيته وحاجبيه وشاربيه حتى لا نكاد نرى من جلد وجهه الا بعض وجنتيه وقد تجعدتا وتغضن جبينه وبرز انفه اعقف واحدودب ظهره حتى لا يستطيع النظر الى واقف امامه الا بجهد وعناية فتقدم الشيخ ويده الواحدة على الباب ويده الاخرى يتوكأ بها على عصا قديمة العهد ربما رافقته في صباه وقد قبض عليها بانامل لم تترك الشيخوخة عليها لحماً فلصق الجلد بالعظم حتى كان اعرض ما في الكف عقد الامشاط عند اتصالها بالاصابع

فلما فتح الباب رفع الشيخ نظره وحدق بزائريه وكان قد عرف الرئيس من مجمل قيافته ولكنه لم يعرف رفيقه فنظر اليه نظر المتأمل وشعر حاجبيه المسترسل يحجب معظم النظر عنه فارسل يده يرفع بها شعر الحاجبين وهي ترتعش لضعف الشيخوخة . فابتدره عبد الله بالسلام وهمّ بتقبيل يده فعرفه الراهب فقال أهلا بولدي الامير عبد الله ابن الوطن العزيز تفضل يا ولدي ادخل . فدخل ودخل الرئيس معه وجلس كل منهما على وسادة وهما لا يجسران على فتح الحديث احتراماً لشيخوخة الراهب

ثم تكلم الرئيس فقال ان ولدكم الامير عبد الله يلتمس حضوركم الاحتفال بقص شعر ابنه وفاءً لنذر نذره منذ بضع وعشرين سنة

فتأمل الشيخ برهة ثم رفع نظره الى عبد الله بغتة والنور ينبعث من حدقتيه في خلال شعر الحاجبين كأن الزمن لم يؤثر على حدتهما وقال ما اسم غلامكم

قال حماد

قال حماد اذكر أني رأيته في الصومعة منذ عامين وأخبرني انه جاء لقص شعره وكان يوم الشعانين قريباً . ألم تفوا النذر بعد

قال لا يا مولاي لم نستطع ذلك لاسباب فرّقت بيننا أعواماً فلما اجتمعنا جئنا لنفي النذر . فهل تريد ان يكون وفاءه على يدك

قال أني شيخ ضعيف لا استطيع الوقوف لتأدية الفروض اللازمة في اثناء الصلاة

قال يؤديها القسيس وتكون أنت معنا بعد الصلاة فنفرد أنا وانت وحماد لكلام اقصه عليكما

قال حسناً يا ولدي ومتى يكون ذلك

قال غداً صباحاً ان شاء الله

قال سنلتقي اذاً صباح الغد في الصومعة . قال ذلك وهو يتلاهى بسبحته ويداه ترتجفان

ثم نهض عبد الله فودع الراهب وخرج تواً الى غرفته وجلس ينتظر عودة حماد

وكان حماد يختلف الى صرح الغدير مراراً في الاسبوع يتمتع برؤية هند فيقضي النهار عندها مع والدتها واحياناً سلمان وقد شعر ان ملاك السعادة يحرسه وخصوصاً بعد ما قصه عليه جبلة مما ينويه في مستقبل حياته وأصبح لا همّ له الا مجيء يوم الشعانين ليفي النذر ويقترن بهند . على انه كان اذا جلس اليها ودار الحديث بينهما نسي النذور وغفل عن مستقبل الايام . أما والده فلم يجتمع بجبلة وكان حماد يلتمس ذلك منه احياناً فينتحل أعذاراً يتخلص بها من المسير

فلما كان آخر يوم كما قدمنا عاد عبد الله الى غرفته وجلس ينتظر حماداً وكان قد سار الى صرح الغدير في صباح ذلك اليوم وسلمان معه فعاد في الاصيل على فرسه وسلمان وراءه على فرس آخر . فلما وصلا الدير ترجلا ودخلا وهما يتوقعان ان يكون عبد الله في انتظارهما . فرحب بحماد وقال له
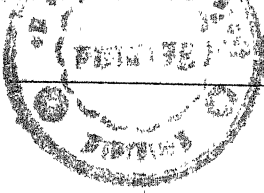
ألا تعلم يا ولدي أن غداً يوم الشعانين

قال نعم يا ابتاه واني في استعداد لوفاء النذر

قال جعله الله نذراً مقبولا . وقد خاطبت الراهب الشيخ الذي كان يجلس في صومعة بحيراء هل تذكره

قال نعم اذكر اني جلست اليه مرة وقص عليّ خبر الراهب بحيراء استاذه

قال قد خاطبته في أن يقص شعرك ويسمع ما أتلوه عليك بعد ذلك

وكان سلمان لا يزال واقفاً بالقرب من الباب يصلح كوفيته وعقاله وكانا قد انحلا وهو يتحول عن جواده . فلما سمع ما قاله عبد الله تقدم نحوه ونظر اليه قائلا ألا تظن ان خادمك سلمان يستحق الاطلاع على هذا السر ايضاً

قال بلى انك أولى الناس بذلك وستكون انت ايضاً معنا

وقضوا بقية ذلك اليوم يعدون انفسهم وخصوصاً عبد الله فانه مال الى الانفراد بعد بعض الثياب

وفي صباح اليوم التالي ساروا الى الصومعة باكراً فرأوها مضيئة بالشموع وهي كما تعلم عبارة عن غرفة كل من جدرانها الاربعة حجر واحد والسقف حجر واحد والارض حجر واحد وبابها حجر واحد يفتح ويغلق[1] وهذا هو شأن ابنية حوران حتى الآن نظراً لكثرة صخورها وقلة خشبها فيبنون البيوت من الحجر ويجعلون درف نوافذها وأبوابها وسقوفها من الحجر أيضاً

فدخلوا الصومعة فرأوا الراهب الشيخ ومعه قسيس آخر وشماس فلما اجتمعوا جميعاً أخذوا في الصلاة فاحرقوا البخور وحلوا شعر حماد حتى استرسل على كتفيه وظهره وطافوا به بالترانيم والتسابيح على جاري العادة والقسس يحملون الصلبان والمباخر يترنمون حتى تمت الصلاة وقرأوا فصلاً من الكتاب المقدس . وكان الراهب قد تعب فجلس على مقعده الحجري ليرتاح

(١) دائرة المعارف

فلما انقضت الصلاة تقدموا نحوه وأعطوه مقراضاً ودنا حماد منه وشعره يجلله فمد الراهب يده وامسك خصلة من شعره وبارك وقصها اشارة الى وفاء النذر وبقي الشعر مسترسلا على نية ان يقصه عند عودته الى المنزل

فلما انقضى الاحتفال أشار عبد الله الى الراهب انه يريد الخلوة فأوعز الى الحضور فخرجوا وبقي هو وعبد الله وحماد وسلمان واطفئت الشموع ولم يبق من الأنوار الا مصابيح الزيت المعلقة امام الايقونات فاشار عبد الله الى سلمان أن يغلق الباب فهمّ باغلاقه وهو لا يحسب نفسه قادراً على ذلك لضخامته فاذا هو طوع يده لان لاهل حوران صناعة دقيقة في تركيب تلك الابواب حتى تغلق بسهولة (١) .

فلما أغلق الباب وضعف النور أحسوا بانقطاعهم عن عالم الاحياء وخيل لهم أنهم في عالم آخر وخفق قلب حماد تطلعاً لما سيسمعه من غريب الاحاديث . فنزع عبد الله جبته وهمّ بصرة كانت معه فحلها واستخرج منها رداء مزركشاً يشبه الطيلسان كان قد اذخره واحتفظ به منذ أعوام فقبله ثم بسطه وجعله على كتفيه ونشر على الارض امام مجلس الراهب جلداً جثا عليه وجلس حماد وسلمان بين يديه والجميع سكوت يراعون حركات عبد الله وسكناته وينتظرون ما يبدو منه

الفصل الثاني عشر

كشف السر

فلما استتب بهم الجلوس التفت عبد الله الى الراهب وقال اعلم يا مولاي اننا الآن في بيت الله وقد اجتمعنا فيه لعمل مقدس فلا يعلم بما سيدور بيننا الا الله وحده وسأقص عليكم حكاية ائتمنت عليها منذ بضع وعشرين سنة فأرجو أن تصغوا اليّ حتى آتي على آخرها ومتى فرغت منها التمس منكم كتمانها عن أهل الارض كافة فهل تعاهدونني على ذلك

(١) ميريل

قال الراهب نعم يا مولاي ان سرك لن يتجاوز جدران هذه الصومعة

قال ألتمس من قدسكم ان تتلو علينا الصلاة الربانية قبل الشروع في الكلام وليقسم كل منا بكتمان هذا السر عن البشر كافة

فتلا الراهب « أبانا الذي في السموات الخ » وأقسم كل منهم بالصليب والمعمودية بكتمان ما سيتلى عليهم

ولما تم القسم نظروا الى عبد الله فاذا به يتأدب في قعوده كانه في مجلس رهيب وقد امتقع لونه فهابوا منظره . ومما زادهم هيبة ضئالة الانوار واختلاؤهم في ذلك المكان فنظر عبد الله الى حماد ووجه الخطاب اليه قائلا :

تعلم يا ولدي ان العرب يرجعون في انسابهم الى أصلين كبيرين هما قحطان واسماعيل ومن نسل قحطان عمرت اليمن وما جاوزها ومن نسل اسماعيل عمرت الحجاز وما جاورها ويسمى نسل اسماعيل الاسماعيلية أو العدنانية نسبة الى جد من أجدادهم بعد اسماعيل اسمه عدنان ويسمى بنو قحطان القحطانية

وقد قامت من القحطانية دول ملكت الخافقين منهم التبابعة المشهورون وغيرهم من دول حمير وسبا . ومن مملكة سبا خرجت ملكة سبا التي ذكرت التوراة أنها زارت الملك سليمان وما زالت اليمن عامرة آهلة حتى حدث سيل العرم [١] فتفرق أهلها أيدي سبا . أتعرفون ما هو سيل العرم.

قال حماد لا يا أبتاه لا أعرفه

قال عبد الله اعلم يا ولدي أن اليمن وسائر جزيرة العرب أرض تقل فيها الانهر والينابيع واعتماد الناس في ري مغارسهم انما هو على مياه المطر فانها تجتمع في مجاري الاودية وتسيل كالانهر فاذا انقضى الشتاء جف معظمها فتلافيا لذلك يجعلون في عرض الاودية سدوداً من حجر تعترض مسير الماء فيجتمع ويرتفع حتى يسقي أعالي الارض

وكان من تلك السدود في اليمن سد كبير يقال له العرم بناه ملوك اليمن قديماً بحجارة ضخمة متمسكة بالقار وفيه خروق يصرفون منها الماء على مقدار ما يحتاجون اليه في سقيهم وكانت له حفظة يقومون بتعهده وتوزيع مياهه

---

(١) ابن خلدون

فتقادم عهده حتى تصدع وخيف سقوطه . وعرب اليمن اذ ذاك بنو كهلان ابن سبا من القحطانية

وكانت دولتهم قد ضعفت واختل نظامها وآلت الى السقوط فأهمل أمر السد وقلّت المحافظة عليه فظهر به الخطر أولاً فاولاً نخاف الناس تهدمه بغتة لئلا يسيل الماء عليهم فيغرقهم ويخرب منازلهم فأخذوا ينزحون أحياء وبطوناً وبقيت منهم بقية أصبحوا ذات يوم وقد انفجر السد وطافت المياه فاغرقت بعضهم ونجا البعض وتفرقوا في البلاد وسمي ذلك السيل سيل العرم [1] وكان ذلك منذ ستمئة سنة او اكثر

وكان السامعون مصغين لاستماع حديث عبد الله وهم لا يرون فيه ما يوجب المسارة فعجبوا لذلك ولكنهم صبروا أنفسهم ليروا ما يكون بعده فادرك عبد الله ضمائرهم فقال لهم لا ترون في حديثي ما كنتم تتوقعونه من الانباء المهمة فاني أنا أقص عليكم أخباراً متناقلة على ألسنة الناس ولكنني أردت ان أبسط لكم أصل نسب ملوك الحيرة المقيمين في العراق ثم أنطرق من ذلك الى كشف السر فامهلوني ولا تملوا

الفصل الثالث عشر

ملوك الحيرة

قلت لكم ان بني كهلان تفرقوا قبيل سيل العرم وبعده وكانوا أحياء عديدة نذكر منها ثلاثة هي : لخم والازد وطيء . أما لخم فهم أجدادنا الذين اقاموا في العراق ومنهم المناذرة ملوك الحيرة (قال ذلك وتنهد) . وأما الازد فمنهم بنو غسان عرب هذه البلاد . أما طيء فأقاموا بنجد والحجاز في جبلي اجا وسلمى [2]

فسرّ حماداً أن يكون بين اللخميين والغسانيين قرابة ولكنه ما زال قلقاً للوصول الى آخر الحديث وكذلك سلمان . أما الراهب فكان أقلهما قلقاً

(١) الطبري (٢) ابو الفداء

واشتياقاً كأن الشيخوخة وكثرة الاختبار علماه باستخفاف حوادث الزمان فضلاً عن أن ما قصه عبد الله عليهم الى ذلك الحين لم يكن بالشيء المجهول عنده

أما عبد الله فانه أتم الحديث قائلا : علمتم ان ملوك الحيرة لخميون يتصل نسبهم بكهلان بن سبا من عرب اليمن القحطانية . فنزل بنو لخم العراق أقاموا فيه مدة على حالهم من البداوة . وأول من حكم العراق من العرب قوم من حي يقال له دوس وهو بطن من الازد وهو أقرب نسباً الى الغسانيين منهم الينا . ولم تمض مدة حتى تغلب اجدادنا عليهم وملكوا العراق تحت رعاية ملوك الفرس على مثال ما هم عليه الآن واتخذوا مدينة الحيرة كرسياً لملكهم وسموا المناذرة جمع (المنذر) وهو لقب ملوك العراق كما تعلمون

ولا اطيل الكلام عليكم خوف الملل فاقول باقتصار انه توالى على كرسي الحيرة بضعة عشر ملكا أشهرهم امرؤ القيس بن عمرو . ومما يؤثر من فضله ان اللخميين لما قدموا من اليمن كانوا على عبادة الاوثان وخالطوا الرهبان وأهل النصرانية فتنصروا . واول من تنصر من ملوكهم امرؤ القيس هذا [١] ثم الملك النعمان بن امرؤ القيس ويقال له الاعور وهذا الذي بني القصرين المشهورين (الخورنق والسدير) ومن غريب امره انه لما عظم ملكه وامتلأت عيناه من خيرات الارض مال الى الزهد فترك المال وتنسك [٢] وملك بعده المنذر ثم الاسود وهذا حارب اصحابنا الغسانيين منذ مئة وخمسين عاماً واسر عدة من ملوكهم وكان ذلك سبب عداوة مستمرة فيما بيننا وبينهم [٣] وتولى بعده ملوك كثيرون منهم المنذر بن ماء السماء وكان معاصراً لكسرى انوشروان ملك الفرس المشهور وله معه وقائع كثيرة وحوادث يطول شرحها فلنتركها وننتقل الى آخر ملوك الحيرة النعمان بن المنذر

فلما ذكر اسمه ابتدره الراهب قائلا اظنك تعني ابا قابوس

قال نعم انه كان يلقب ابا قابوس

قال الراهب هذا الذي قتله كسرى برويز وبسبب قتله صارت واقعة

(١) ابن خلدون (٢) ابو الفداء (٣) ابن خلدون

ذي قار (١) وقد كنت شاباً وشهدت هذه الحوادث وكنت اعرف الملك النعمان هذا رحمه الله ولي معه حديث طويل

الفصل الرابع عشر

مقتل النعمان بن المنذر

فتنهد عبد الله وهو يعتدل في مجلسه ويصلح الرداء على كتفيه وقال قد وصلنا الى المراد من حديثي فارعوني السمع لاقص عليكم غرائب ما اعلمه عن هذا الملك . قال ذلك وشرق بدموعه خلسة ولولا ضعف النور لظهر الدمع متلألئاً في عينيه ولكنه تجلد وأعاد الحديث فقال

ان الملك النعمان هذا لا احتاج في وصفه الى تطويل وكلكم يعرفه الا حماداً ويكفي فيوصفه انه شهم شجاع صادق وقد أعاد النصرانية الى الملك(٢) بعد ان فسدت وابدلها أسلافه بالوثنية (٣) ولا تتضح لكم دخيلة حديثي الا اذا ذكرت لكم كيفية تولي النعمان الملك . فقد كان ابوه المنذر ملكاً قبله وكان في بلاط كسرى على عهده رجل عدناني اسمه عدي بن زيد كان يحسن العربية والفارسية وكانت له منزلة كبرى ونفوذ لدى كسرى وكان مقام كسرى في المدائن والمنذر في الحيرة كما تعلمون وكان للمنذر ١٢ ولداً أحدهم النعمان الذي نحن في صدده وكان قد ربي في حجر عدي بن زيد ورضع في اهله (٤) وكان من ابناء المنذر أيضاً فتى اسمه الاسود رباه قوم من أهل الحيرة يقال لهم بنو مرينا ينتسبون الى لخم

فلما مات المنذر خاطب كسرى عدياً في من يتولى الحيرة وقال له « اني أرى ان اخرج الملك من أيدي هؤلاء وأجعله في يدي واحد من خاصتي فهل بين اولاد المنذر من يصلح للملك » قال عدي انهم بضعة عشر رجلا كلهم أشداء فاذا أمر مولاي جئته بهم قال الي بهم . فبعث يستقدمهم وفي نفسه ان

(١) الطبري (٢) ابو الفداء (٣) الاغاني (٤) ابن خلدون

يسهل سبيل الملك الى النعمان سراً لانه ربي عنده فخلا به قبل اجتماعهم وأسرّ اليه أشياء يقولهـا في حضرة كسرى ففعل وتولى الملك فشق ذلك على ابن مرينا لانه كان يرجو ان يكون الملك للاسود التماساً للنفوذ على يده فاخـذ يحرض الاسود على الانتقام من عدي بدعوة انه عدناني (اي من نسل عدنان وبين القحطانية والعدنانية مناظرة) فوافقه وسلم التصرف في ذلك اليه فجعل ابن مرينا يتقرب من النعمان بالهدايا والتحف ويشي بعدي ويذكره بالشر ويتواطأ وبعض الحضور على الطعن فيه فيروون عن لسانه انه يقول بان النعمان تحت امره وانه هو الذي ولاه الملك وما زالوا كذلك حتى اضغنوه عليه . فبعث النعمان الى عدي يدعوه الى زيارته فجـاء وفي حال وصوله أمر بسجنه في مكان خارج الحيرة لا يدخل عليه فيه أحد فعلم عدي انها وشاية فجعل يكتب الى النعمان يستعطفه نظماً ونثراً فلم يجد ذلك نفعاً فكتب الى أخ له اسمه أبيّ يحرضه على انقاذه فقام أبيّ الى كسرى وأنبأه بخبره فكتب الى النعمان في اطلاقه فجاء أعداء عدي وأكثرهم من بني بقيلة واصلهم من عرب غسان (١) أهل هذه البلاد وحرضوا النعمان رحمه الله على الفتك بعديّ قبل وصول كتاب كسرى اليه وحسنوا له ذلك بحيلة يطول شرحها وكان الرسول قد مرّ قبل وصوله الى الحيرة بسجن عدي واخبره بكتاب كسرى ثم خرج من عنده الى النعمان وفي اثناء ذلك أرسل النعمان الى عدي أناساً قتلوه فلمـا فض كتاب كسرى كتب اليه ان عدياً مات . ولـكن النعمان ما لبث ان عرف أنه أساء عدياً فندم وما صدق ان لقي ولداً من أولاده اسمه زيد بن عدي حتى همّ باكرامه ورفع شأنه تكفيراً عما فرط منه بشأن والده وأوصى به كسرى فجعله في منزلة والده عدي (٢)

فلم يغفل أهل الوشاية عن اطلاع زيد على كيفية قتل ابيه فحقدها على النعمان وسعى ضده لدى كسرى بحيلة غريبة . وذلك ان الاكاسرة كانوا يبعثون الى ايالاتهم يطلبون نساء لهم على أوصاف مخصوصة ولـكنهم لم يكونوا يلتمسون

(١) الطبري (٢) الاغاني

ذلك من احياء العرب لعلمهم بخلهم بكرائمهم . فقال زيد لكسرى مرة ان في الحيرة نساء جمعن كل أوصاف الجمال فاذا بعثت الى النعمان ارسل اليك منهن . وكان زيد يعلم أن النعمان لن يرضى بذلك فيقع التنافر بينه وبين كسرى فانفذ كسرى رسولا ومعه زيد الى النعمان فاخبره بطلب كسرى فعظم ذلك عليه فالتفت الى زيد وقال له « أما في مها السواد وعين فارس ما يبلغ كسرى به حاجته ان الذي طلبه كسرى ليس عندي » قال الرسول لزيد بالفارسية « ما معنى المها والعين » قال « البقر »

فلما رجعا الى كسرى أخبراه بما قال النعمان وأقنعاه انه أراد الحط من منزلة كسرى بقوله « أليس في بقر الفرس ما يكفيه » فغضب كسرى غضباً شديداً ولكنه كتم ذلك والنعمان قد شعر بغضبه فأخذ يستعد ويتوقع حتى أتاه كتاب كسرى يستقدمه اليه فعلم أنه انما يدعوه لمقتله فحمل سلاحه واهله والتمس الفرار . وكنت أنا ممن لازم النعمان زماناً وكان يستأنس بي ويرتاح الى رفقتي فقال لي كيف أنت يا عبد الله قلت اني يا مولاي لاحق بك اينما توجهت فقال ان في ذلك خطراً عليك قلت ما أنا باحرص على نفسي مني على نفس مولاي النعمان فقال بورك فيك فصحبته من ذلك اليوم وسرنا حتى أتينا قبيلة طيء في اعالي نجد وكان النعمان قد تزوج منهم فطلب ان يحموه بين الجبلين (أجا وسلمى) فقالوا « لا يمكننا ذلك ولولا صهرك لقتلناك فانه لا حاجة بنا الى معاداة كسرى »

فتركناهم وسرنا الى قبائل أخرى فلم يقبلنا احد منهم خوفاً من كسرى حتى لقينا رجلاً من قبيلة بكر بن وائل اسمه هانىء بن مسعود (١) وكان سيداً منيعاً وكان للنعمان فضل عليه فقال له « اني مانعك مما امنع نفسي وأهلي وولدي ما بقي من عشيرتي الادنين رجل ولكنني لا أرى في ذلك نفعاً لك لانه مهلكي ومهلكك فاذا اذنت لي فاني مشير عليك بالذهاب الى كسرى مستعطفاً واحمل اليه الهدايا فاذا صفح عنك عدت ملكاً والا فالموت خير لك

(١) الاغاني (والطبري يسميه هانىء بن قبيصه بن مسعود)

من ان يتلاعب بك صعاليك العرب » فاستحسن مولاي النعمان الرأي ولكنه قال ما افعل بحرمي قال هانىء « هن في ذمتي لا يخلص اليهن احد حتى يخلص الى بناتي » فقبل النعمان بذلك وانا خائف من عاقبة الامر وقد حدثتني نفسي في صده عن الذهاب فلم اجسر لأني شاهدت وجهه وكان ابرش احمر كما تعلمون [١] قد امتقع حتى صار كمن اصابه اليرقان ونهض وقد همه الأمر كثيراً وجعل يخطر ذهاباً واياباً وقصر قامته ظاهر وهو يفتل شاربيه الاشقرين كأنه خائف من الذهاب وكان ضميره دليله

ثم فكر قليلا وقال لهانىء أرى يا أخا بكر أن ارسل الى كسرى هدايا فان قبلها سرت اليه فقال هانىء نعم الرأي رأيت فارسلها اليه فقبلها كسرى خداعاً منه قبحه الله . فهمَّ مولاي النعمان بالمسير فقلت أني سائر معك ووالله لا ابرحك لحظة فقال ارى ان تبقى عند نسائي خير من ان تذهب معي قلت أني فاعل ولكنني ارى النساء آمنات في حمى هانىء بن مسعود فأذن بذهابي معك فاذن وكأن نفسي حدثتني بخطر قريب فسرنا حتى اتينا المدائن فلقينا زيد ابن عدي فتشاءمت برؤيته وتحققت سوء قصده وكنت مصيباً في ذلك لانه لم يكد يلقانا حتى قال للنعمان « أنج نعيم ان استطعت النجاة » فقال النعمان « فعلتها يا زيد فوالله ان عشت لاقتلنك قتلة لم يقتلها عربي قط ولالحقنك بابيك » فضحك زيد لعنه الله وتوعده فعلمنا أنها حيلة اعدها له وتحقق النعمان أن الساعة قد دنت وان القضاء واقع لا مفر منه . فلما وصل الى كسرى امر فقيدوه وبعثوا به الى سجن في خانقين [٢] وكنت اتردد اليه في السجن خلسة وانا ارجو الافراج عنه . اما هو فلم يكن يرجو نجاة

---

(١) الطبري (٢) الاغاني

الفصل الخامس عشر

السر

وسرت اليه ذات يوم صباحاً فرأيته قد تغير حاله وامتقع لونه كأنه خائف من امر قريب . ولا انسى منظره الرهيب في ذلك اليوم فوقفت انتظر امره فقال لي يا عبد الله

قلت لبيك يا مولاي

قال أرى ان اسر اليك امراً فهل تعاهدني على حفظه

قلت كيف لا

فمد يده واعطاني هذا الرداء المزركش (قال عبد الله ذلك ونزع الرداء عن كتفيه ووضعه أمامه) فاخذته منه ثم استخرج من يده خاتماً عليه اسمه ولقبه وهو هذا (ومد عبد الله يده واستخرج الخاتم من جيبه ووضعه على الرداء) وكان الحضور شاخصين يحبسون انفاسهم اصغاء لما سيقوله عبد الله وتوقعاً للخطر القريب . وكان عبد الله قد تغيرت سحنته واختنق صوته وتخلله ارتعاش زاد الحضور تهيباً

ثم قال فلما تناولت الخاتم قال لي النعمان اعلم يا عبدالله اني في هذا السجن حتى ينقضي أجلي فيخرج ملك الحيرة من ايدي اللخميين لان عدياً هذا سيبذل جهده في اذلالهم خوفاً ممن ينتقم لي ولا أعرف من اولادي من يرفع هذا العار عنا ولكن بين اهلي عند هانيء بن مسعود زوجتي سمية وهي حامل وستلد قريباً فاذهب اليها بهذا الخاتم وهذا الرداء وقل لها ان هي وضعت غلاماً ان تعهد اليك بتربيته فتربيه تربية رجال القتال حتى يشب شهماً حراً واحذر ان تقص شعره او تخبره عن نسبه قبل الحادية والعشرين من عمره فاذا بلغها قص شعره في دير بحيراء واخبره عن نسبه والبسه هذا الرداء وهذا الخاتم . . . »

ولم يكد يتم عبد الله كلامه حتى استولت الدهشة على الحضور وخصوصاً حماد

اذ خيل له انه في حلم وساعده على ذلك الوهم ضعف النور وهدو المكان وكانوا لا يرددون انفاسهم الا وهم يحذرون ان تعترض حديث عبد الله . فلما وصل الى هذا الحد تحققوا ان حماداً هو ابن الملك النعمان فجعلوا ينظرون اليه نظرة الاحترام . اما عبد الله فلما بلغ الى قوله «والبسه هذا الرداء وهذا الخاتم» وقف على قدميه وجعل الرداء على كتفي حماد والخاتم في اصبعه وامسكه بيده وانهضه واجلسه على المقعد الحجري وهمَّ بتقبيل يده فخجل حماد وجذب يده منه . فقال له عبد الله لا تخجل يا مولاي انك الآن سيدي ابن الملك النعمان وقد انقضى زمن والدية عبد الله . فجلس حماد على المقعد وجلس عبد الله بين يديه وهمَّ سلمان بيد حماد فقبلها وتأدب في مجلسه وهو يقول « والله كنت ارى هيبة الملوك على وجهه من يوم عرفته »

اما الراهب فانه على عجزه وقف ورفع يده فوق رأس حماد وباركه ودعا له بطول البقاء وقبل رأسه . كل ذلك وحماد يحسب نفسه في حلم ولكنه فرح كثيراً بما علمه من نسبه وود لو ان هنداً حاضرة فتسمع ذلك فتفرح معه وخيل له ان سعده قد تم لانه ملك وسيقترن بملكة ويرث ملك غسان . وبينما هو يفكر في ذلك اذ نهض عبد الله فقال لم يتم حديثي بعد فهل تسمعونه الى آخره

قالوا نعم

فمد يده الى جيبه واستخرج اسطوانة من الفضة نحن الاصبع وخاطب حماد قائلاً : وقد اعطاني مولاي النعمان هذه الاسطوانة واستحلفني أن اسلمها اليك مختومة بعد اتمام الخبر فتفتحها في هذا الدير وتقرأ ما فيها وتعمل به

فمد حماد يده فتناول الاسطوانة وهمَّ بفتحها فامسكه عبد الله وقال : لا تفعل قبل اتمام الحديث

قال تفضل

فقال عبد الله : فلما أتم النعمان وصيته بكى وبكيت ولكنني كنت أحبس الدمع تشجيعاً له . فقال « أعلم يا عبد الله ان القضاء واقع قريباً فاحتفظ بهذا

السر حتى يأتي وقته اما اذا انا خرجت من هذا السجن وعشت فللمسألة وجه آخر » . وللاسف يا سيدي انه لم يخرج من ذلك السجن فوافاه القدر فتوفي بداء الطاعون [١] قال ذلك وتنهد والدموع ملء عينيه فتنهد الجميع ثم قال

أما انا فسرت الى هانيء ولقيت والدتك سمية وكانت حاملا فاسررت اليها ما كان فأطاعت فانتظرت ريثما وضعت ولكنها وا أسفاه عليها لم تعش بعد الولادة الا قليلاً فحملتك الى اهلي وارضعتك منهم حتى شببت على ما ترى

الفصل السادس عشر

وقعة ذي قار

ولعلك تسألني عما تم من امر وديعة والدك فاخبرك يا مولاي ان كسرى علم بعد وفاة سيدي النعمان أن اهله وماله وسلاحه عند هانيء وفيه اربعة آلاف شكة والشكة سلاح الفارس كله [٢] فكتب كسرى الى هانيء بان يبعث الوديعة اليه فابى ذلك محافظة على العهد ورعاية للذمام . وكان لكسرى عامل على عين التمر وما والاها الى الحيرة اسمه اياس بن قبيصة الطائي فدعا به اليه فجاءه برجاله فاستشاره في الغارة على بكر بن وائل فاشار عليه أن يفعل فعقد كسرى لاياس بن قبيصة على كتيبتي والدك وهما الشهباء والدوسر [٣] وأرسل معه جنداً آخر بقيادة رجال من الفرس فكانت حملة تزعزع الجبال وفيها من الخيل والجمال والمؤونة والعدة ما لا يحصى . فلما سمع هانيء بن مسعود بها سار برجاله لملاقاتها فالتقوا في محل يقال له ذو قار وكانت فيه وقعة عرفت بوقعة ذي قار بين الفرس والعرب اشتهر امرها في الاقطار وكانت الغلبة فيها لهانيء ورجاله فانهم هزموا الفرس شر هزيمة وهي أعظم وقعة انتصف فيها العرب من العجم قبل الاسلام [٤] وفر اياس الى كسرى فسأله عن الخبر فقال غلبت بكر بن وائل وجئنا اليك بنسائهم ففرح كسرى به وأمر له بكسوة

(١) الاغاني (٢) ابن خلدون (٣) الاغاني (٤) الاغاني

ولكن اياساً خاف افتضاح امره قريباً فاستأذن بالذهاب الى اهله فاذن له فانصرف الى عين النمر ثم جاء رجل من أهل الحيرة الى كسرى وحدثه بهزيمة القوم فغضب منه كسرى فامر فنزعت كتفاه ولم يصدق الا اياساً فولى اياساً الحيرة (١) كما تعلمون وقد ولي بعده رجل فارسي آخر ثم وليها أحد اخوتك المنذر المغرور وهي الان في ولاية اياس بن قبيصة (٢) ولا تزال الوديعة عند هانيء بعضها او كلها »

وكان حماد قد ملّ الانتظار تشوقاً الى ما في تلك الاسطوانة فلما فرغ عبد الله من حديثه نهض وقد أعياه التعب لشدة تأثره وذكرى مصائبه وقال لحماد اليّ يامولاي بالاسطوانة فدفعها اليه فالتمس من الراهب ان يباركها قبل الفتح فباركها فوقفوا جميعاً وتناول عبد الله الاسطوانة وعالجها بمدية حتى انفتحت فدنا من مصباح منير بجانب ايقونة ونظر الى ما في الاسطوانة وكلهم يتطاولون من جنبيه ووراءه ينظرون معه فاذا فيها لفافة من جلد فاستخرجها ونشرها بين يديه فرأى عليها كتابة بالاحرف الاسطرنجيلية وهي كتابة اهل العراق الى ذلك الحين . فشخصت ابصارهم الى ما فيها فاخذ عبد الله يتلوها عليهم وهم يسمعون وهاك نصها :

«من النعمان نزيل دار البقاء الى ابنه المنذر المقيم بين الاحياء . أما بعد فهذا كتاب كتبته وأنا في عالم الوجود وأنت في دار الخفاء وستقرأه بعد رجوعي الى عالم الغيب وبروزك في عالم الاحياء . فاذا قرأته وقد وفيت نذرك وعرفت حقيقة نسبك فاعلم أن عظامي تناديك من ظلمة القبر وتستحلفك بشرف اجدادك المناذرة من آل لخم ان لا تقرب امرأة ولا تشرب خمراً حتى تنتقم لابيك من اكاسرة الفرس فاذا فعلت ذلك فانك مبارك أنت ونسلك وان لم تفعل فان رفاتي ترتعش حنقاً ونفسي تتألم وهي تنظر اليك من منافذ الآخرة تراقب حركاتك — وسيجمعني واياك موقف نتحاسب فيه والسلام»

---

(١) الاغاني جزء ثاني : ويقول الطبري ان كسرى ولى اياسا الحيرة بعد وفاة النعمان

(٢) ابن خلدون

فلم يكد حماد يأتي على خاتمة الكتاب حتى ارتعدت فرائصه واي ارتعاد وقد رأى مساعيه كلها ذاهبة ادراج الرياح على ان الحمية من الجهة الثانية ثارت فيه والنخوة هاجت في رأسه وشعر بدافع يدفعه الى الاخذ بثأر والده من اكاسرة الفرس وقد استعظم المشروع وهاله الاقدام عليه فوقف مبهوتاً لا ينبس ببنت شفة

فنظر عبد الله اليه ينتظر ما يبدو منه فلما رآه صامتاً قال له هذا هو السر يا سيدي قد أطلعتك عليه فالقيت عن عاتقي حملاً حملته نيفاً وعشرين عاماً وانا أخاف أن أقضي نحبي قبل افشائه فانظر في ماذا تفعل

فقال حماد لقد ألقيت عنك حملاً أثقلتني به وأرجو أن أتوفق للقيام بما عهد الي والله منجدي ونصيري . قال ذلك وتحفز للخروج من الصومعة فاوقفه عبد الله والتمس من الراهب ان يختم حديثهم بالصلاة فصلى وتضرع الى الله ان يساعدهم على كتمان الامر . ثم خرجوا وكأن على رؤوسهم الطير لهول ما سمعوه ورأوه . واكثرهم بغتة واندهالاً حماد لأنه اصبح لا يدري ماذا يعمل أيسير الى هند يطلعها على سره وليس في ذلك السر الا ما يوجب كدرها لانه حائل بينها وبين الاقتران الى اجل غير معين وان يكن في اطلاعها على حقيقة نسب حماد امر يسرها . أم يخاطب جبلة بالامر لعله يشير عليه او ينجده . أم يؤم العراق فينزل المدائن ساعياً في الانتقام من كسرى . فلما فكر في مسيره الى هناك تهيب لعلمه بما يحول بينه وبين ذلك المرمى من العقبات فان الاكاسرة ذو بطش ومنعة . فسار الى الدير وقضى ليله ساهراً لعظم تأثره وهو يفكر في طريقة تهون عليه المشاكل

الفصل السابع عشر

دولة الفرس

ما برح الفرس من قديم الزمان تحت سلطة مملكة اشور حتى تولى هذه المملكة الملك سردنفول في القرن الثامن قبل الميلاد وساء حكومتها واشتغل عن سياسة مملكته بمجالسة النساء واللهو على انواعه فابغضته الرعية وودت التخلص منه فاتفق كبيران من قواده على اخراج الملك من يده وهما ارباسيس قائد عسكر مادي وبيليزيس قائد جند بابل فاتحدا على العصيان وحاربا ملكهم فحصراه في نينوى . فلما ايقن بالهلاك أحرق قصره بما فيه من المال والناس وهو في جملتهم سنة ٧٦٠ ق . م وهكذا انقضت مملكة اشور الاولى وقامت مملكة مادي وفارس وملكها ارباسيس وتوالى الملوك من بعده وفيهم العادلون المدبرون والجهلاء الظالمون ومن اشهرهم كورش العظيم صاحب الغزوات المشهورة فافتتح بابل وما بين النهرين وارمينيا وسوريا وآسيا الصغرى وجانباً من بلاد العرب . وتولى بعده ابنه كمبيز ففتح مصر على زمن الملك اماسيس من فراعنة مصر ثم تولى داريوس ومن جاء بعده ولم يحسنوا السياسة فتقهقرت المملكة واختلت احوالها . فلما ظهر اسكندر الاكبر في القرن الرابع قبل الميلاد طمع ببلاد فارس ففتحها وقهرها واستولى عليها ولكن عمر الاسكندر لم يطل فمات واقتسم قواده مملكته فكانت بلاد فارس من نصيب سلوقس ولم يطل حكمه فغزاه البرطيون بقيادة ارساسيس الاول وظلت في حوزتهم خمسمائة سنة

فانف الفرس من رضوخهم للنير الاجنبي فثاروا سنة ٢٢٦م بقيادة رجل منهم اسمه أزدشير فطارد البرطيين وأسس دولة اشتهرت في التاريخ الفارسي هي الدولة الساسانية ومنهم كسرى أنوشروان الملقب بالملك العادل وهو اعظمهم وصار لفظ كسرى لقباً لكل من ملك بعده منهم فعرفت دولتهم بالملوك الاكاسرة

وكان مقام الاكاسرة في المدائن وهي مدينة عظيمة على ضفاف الفرات فيها قصر عظيم طار ذكره في الآفاق يسمى ايوان كسرى أو طاق كسرى

وحكم (انو شروان) ٤٨ سنة وخلفه ابنه هرمز وكانت امه ابنة ملك التتر واستاذه الحكيم بزرجمهر وكان وزيره فسارت الاحكام في ايام هذا الحكيم على مثال ما كانت في زمن انو شروان فلما توفي بزرجمهر انغمس هرمز في الشهوات وأهمل شؤون المملكة فعصاه الولاة وغزاه ملك التتر فنصره قائد من قواده اسمه بهرام كان آية في الدهاء والذكاء فطرد التتر من البلاد ثم تحول الى محاربة الرومانيين فوشى به بعض المقربين من البلاط الملوكي فاظهر له هرمز بعض الاحتقار فاستشاط بهرام غيظاً وجاهر بعصيان الملك فخلعه وولى بعده ابنه كسرى برويز وكان صبياً صغيراً تساعد على قتل ابيه بعض اقربائه . فلما خلص الحكم له طمع بهرام بالملك ففرّ برويز من وجهه واستجار بملك الرومانيين في ذلك العهد واسمه الامبراطور موريس فانجده ورد الملك اليه ففر بهرام الى بلاد التتر فاحسنوا وفادته ولكن الخيانة لحقته الى هناك فمات مسموماً

واستبد كسرى برويز بالحكم وقد عقد النية على صداقة الامبراطور موريس لانه هو الذي رد الملك اليه فبالغ في اكرام الرومانيين في بلاده فلما مات صديقه المذكور عاد الى مناوأة الروم فاثار عليهم حرباً عواناً فغزا بلاد الشام ودخل بيت المقدس فعثر هناك على الصليب الذي يقال ان السيد المسيح صلب عليه وكان في حفرة بصندوق من الذهب فحمله الى المدائن وكان برويز مع ذلك ملكاً خاملاً مترفاً منغمساً بالملاهي الى ما يفوق طور التصديق حتى قيل انه تزوج ١٢ الف امرأة واقتنى خمسين الف جواد وهو الذي جاءه كتاب صاحب الشريعة الاسلامية يدعوه فيه الى الاسلام كالكتاب الذي جاء الامبراطور هرقل في بيت المقدس . فاحتقر برويز ذلك الكتاب وأساء حامله

ثم ما لبث برويز ان علم بعزم الامبراطور هرقل على اكتساح بلاده

ولم يقوَ على دفعه فما زال هرقل هاجماً وأهل القرى يفرون من امامه حتى وصل المدائن وبرويز لاهٍ بقصره ونسائه فلما أحس بقرب الخطر فرَّ فنقم عليه ابنه شيرويه فقتله وحكم مكانه سنة ٦٢٩م ولكنه لم يحكم طويلا فخلفه سواه وسواه وفي سنة ٦٣٠ م تولى تخت مملكة الفرس فتاة من آل ساسان اسمها بوران دخت ابنة كسرى برويز وفي أيامها هجم هرقل على المدائن واسترجع الصليب منها وحمله الى القسطنطينية وحكمت بعدها أختها آزرميدخت سنة ٦٣٢ م (١٠ هـ) واشتهرت بالجمال والتعقل وماتت مسمومة ولها قصة يطول شرحها وملك بعدها ملكان لم يطل حكمهما وأخيراً افضى الملك الى يزدجرد شهريار بن كسرى وفي ايامه فتح العرب بلاد فارس

الفصل الثامن عشر

المدائن

هي عاصمة اكاسرة الفرس ويسميها اليونان كتيسيفون ويسميها الطبري طيسبون والغالب أن كتيسيفون قسم من المدائن وكانت على مسافة عشرين ميلاً من بغداد جنوباً على الضفة الشرقية لدجلة يقابلها في الغرب بلدة اسمها كوش[1] يعتبرها بعضهم من ضواحي كتيسيفون بينهما جسر عظيم مبني من السفن وكان بجوار ذلك المكان أيضاً آثار مدينة يونانية اسمها سلوقية نسبة الى سلوقوس خليفة الاسكندر هناك . وقد سميت هذه الاماكن بجملتها المدائن[2] (جمع مدينة) . وأصل بناء المدائن انه كان مكانها حصن كبير يسمى حصن كتيسيفون كان البرطيون (الفرثيون) ابان سلطانهم على العراق يقيمون فيه أثناء الشتاء لصفاء الجو هناك . وكان بجوار الحصن مدينة سلوقية الشهيرة ثم أخذوا يبنون حول الحصن المنازل والحدائق فما يأت تاريخ الميلاد المسيحي حتى بنيت هناك مدينة سميت باسم الحصن[3] كما جرت العادة في مثل هذه الحال . وظلت المدائن مقام الاكاسرة في زمن الشتاء . وكانت محاطة بسور

(١) جبن (٢) المعجم (٣) استرابون . كتاب ١٦

منيع عليه الابراج والقلاع يزيده مناعة مياه دجلة من جهة والآجام والمستنقعات من الجهات الاخرى . فاصبحت المدائن جزيرة في وسط المياه يستحيل وصول الاعداء اليها قبل أن تمزقهم نبال الفرس من الاسوار . وقد كان بين دجلة والفرات جنوبي المدائن قناة موصلة بينهما اسمها نهر ملكا ومعناها بالكلدانية نهر الملك تسهل نقل السفن بين النهرين (١)

وكان على ساحل المدائن عند دجلة سلم ممتد بطول الضفة يصعد عليه الناس من النهر الى المدينة بدرجات متينة مبنية من الحجر ويسمى هذا السلم باصطلاح أهل تلك البلاد « مسناة »

وترسو عند المسناة سفن الفرس مئات والوفاً حتى تخال سواريها غابة من الاعمدة تناطح السحاب والناس فيها جماعات يتزاحمون بين صاعد ونازل وشكل السفن يشبه شكلها في العراق الان فانها مبتورة المؤخر كأنها قطعت بسكين قطعاً عمودياً فصارت عريضة ملساء . وأما مقدمها فانه يصعد مستدقاً رويداً رويداً حتى اذا انتهى الى أعلاه انحنى على نفسه نحو السفينة على شكل المنجل فتخال تلك السفن اذا تحاذت متلاصقة عند المسناة وقد أديرت مقاديمها نحو المدينة سيوفاً عقفاء يحملها جند من الحرس يحمون بها المدائن

ولو أطللت على المدائن من مرتفع في ذلك العهد لخيل لك انها غوطة فيها البساتين والمغارس بينها القصور والمنازل مبنية من الآجر وقد قام في وسطها الايوان كأنه ملك عظيم الشأن تحف به الخدم والاعوان

الفصل التاسع عشر
ايوان كسرى

هو قصر باذخ يسمونه ايضاً الطاق جرى اسمه على ألسنة العرب وأقلامهم مجرى الامثال بالعظمة والفخامة حتى عدوه من المباني العجيبة . بناه سابور ذو الاكتاف وهو سابور بن هرمز (٢) في القرن الرابع للميلاد (٣) لكنه

(١) جبن والعجم (٢) الابشيهي بالمستطرف (٣) الفداء

يعرف باسم ايوان كسرى انو شروان . قضى سابور في بنائه نيفاً وعشرين سنة (١) اقامه في وسط المدائن على مقربة من دجلة بحيث لايحول بين الايوان والنهر الا الحدائق والبساتين وهي تنتهي عند الضفة بالمسناة المتقدم ذكرها ويحيط بالايوان جملة حديقة واسعة فيها الاغراس والازهار والرياحين والشجر من الازدرخت والليمون وغيرها . ويحيط بالحديقة سور مبني من الآجر له أبواب عليها الحرس بقلانسهم واتراسهم ورماحهم وفوق الابواب رسوم فارسية منقوشة طبعاً على الطين وهو شيء كما كان يفعل الاشوريون في آثارهم (٢) وعلى جانبي الباب الاكبر المطل على المدينة تمثالان كبيران يمثلان الثور الاشوري المجنح برأس انسان طويل اللحية متوج الرأس (٣) وفي زاوية من زوايا الحديقة بناء الافيال وفيه بعض الفيلة المرباة لركوب الاكاسرة . وبين أبواب الحديقة والايوان طرقات مرصفة بالحصى الواناً على شكل الفسيفساء يتألف من ترتيبها بعضها بازاء بعض رسوم تمثل أسوداً وآدميين وفرساناً ومركبات عليها الملوك والقواد يجدون في صيد الاسود تشبه رسوم ملوك أشور اسلاف الفرس ما بين النهرين . واكبر تلك الطرقات وأوسعها طريق تمتد من الباب الكبير الى باب الايوان يصطف الى جانبيه الحرس عند دخول كسرى الى الايوان

واما بناء الايوان فعبارة عن قاعة كبيرة طولها مئة ذراع وعرضها خمسون (٤) مبنية بالآجر والجص سقفها عقد واحد قائمة على عمد من الرخام المنقوش ويصعد الى أرض الايوان بدرجات عند بابه . وفي صدره عرش مرصع بالذهب والحجارة الكريمة يجلس عليه كسرى تعلوه قبة مرصعة وفي داخلها مروحة من ريش النعام والى جانبي العرش مجالس أعوانه ومرازبته . وجدران الايوان وسقفه مزينة برسوم بديعة في جملتها صورة كسرى انوشروان وغيره من الاكاسرة العظام وأبيات من شعر مكتوب بالحرف الكلداني الذي كان يكتب به الفرس قبل الاسلام . وفي سقف الطاق رسوم الافلاك والابراج والنجوم من ذهب منزلة في قبة زرقاء

---

(١) الابشيهي (٢) رولنسن (٣) انسيكلوبيديا الكسندر
(٤) الابشيهي

وكان للايوان شرفات مزخرفة بالنقوش تشرف على الجهات الاربع قائمة على أعمدة يتألف من صفوفها رواق يحيط بالطاق من جهاته الاربع طول الشرفة الواحدة خمسة عشر ذراعاً . وقد أُدخل في بناء الايوان من الذهب ما ربما زادت قيمته على مليون دينار (١)

وباب الطاق كبير نقش على عتبته العليا رسم الشمس مذهبة والى كل من جانبي الباب تمثال أسد كأنه يمشي وعيناه تتلألآن . والاسدان مصنوعان من الرخام محليان بالذهب وفي موضع العينين منهما زمردات زرقاء بديعة الشكل . وأما عتبته السفلى فمصنوعة من الرخام المرمر . ولا يخلو باب الايوان من عشرات من الحرس ولا يخلو مجلس الاكاسرة من مئات من العلماء (٢) بين كاهن وساحر ومنجم ويسميهم الطبري الحزاة . فضلاً عن الحجاب والحراس والبوابين

هذه كانت حال الايوان عند ظهور الاسلام في القرن السابع للميلاد

الفصل العشرون

انس أم جان

فلندع كسرى وايوانه ولنعد الى حماد وهواجسه فقد تركناه في دير بحيراء غارقاً في لجج الافكار تتقاذفه العوامل بين المسير الى العراق أو الى البلقاء وكلا الامرين شاق . وكلما تصور مسيره الى مدائن كسرى هاله موقفه موقف الخصم أمام ملك الفرس وعظم عليه الانتقام منه وهو فرد وذاك سلطان ينصره الجند والاعوان . ولم يكن ذلك ليهوله أو يكبر عليه لولا أمر هند وتأجيل الاقتران ولقد كان ميالا كل الميل لاطلاع هند على ما كشف له من نسبه مع ما جدّ من أمر التأجيل ليرى ما يبدو منها ومن والدها ولكنه تربص ريثما يتخذ الى ذلك سبيلا لائقاً . فلما تلبدت عليه المشاغل وضاق صدره خرج من غرفته ولم يعلم عبد الله ولا سلمان بخروجه وسار يلتمس محلا منفرداً يخلو فيه بنفسه

(١) الابشيهي (٢) الطبري

لعله يتوفق الى رأي يخفف قلقه . وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل فلاحت له أكمة على بضعة أميال منه فركب وسار نحوها وفيما هو في الطريق غاب وجدانه بما اجتذب انتباهه من الشواغل فسار الجواد حثيثاً وحماد لا يعلم فلم ينتبه الا وهو في سفح جبل فالتفت الى الوراء فاذا بصرى والدير قد غابا عن بصره ونظر الى الشمس فرآها مائلة نحو المغيب فوقف يفكر في ماذا يفعل أيعود الى بصرى حالا أم يجلس هناك هنيهة . فنظر الى ما حوله فرأى نفسه في واد بين جبلين أجردين كسائر جبال حوران (١) فترجل وقاد جواده صعداً يلتمس قمة أحد الجبلين لعله يشرف منها على بصرى فيعرف جهتها منه ومتى عاد اليها أمن الضياع . وفيما هو صاعد حانت منه التفاتة الى الجبل المقابل فرأى كهفاً نحتته يد الطبيعة في سفح ذلك الجبل ولاح له شبح يتلصص بين الصخور هيئته بين الادمية والوحشية لطول شعره وعريه فوقف حماد ينظر الى ما يبدو منه فما لبث أن رآه يهرول نحو الكهف حتى دخله وتوارى

فمال حماد الى استطلاع حقيقة ذلك الشبح وتحول نحو الكهف يقود الفرس وهو لا يسمع في ذلك المكان صوتاً غير صوت وقع اقدامه وقرقعة حوافر جواده تدوي في أنحاء ذلك الوادي ويتخلل ذلك الدوي طقطقة حجارة تتدحرج من مواقع حوافر الفرس ممتزجة بصوت صهيله. فنزل الوادي ثم همّ بالصعود حتى اذا صار على مقربة من الكهف رأى صخراً يتدحرج نازلا نحوه فتحوّل من طريقه وعلم أنه انما دحرج من الكهف عليه عمداً فلم يبال ولكنه ازداد ميلاً الى معرفة ذلك الشبح فما زال صاعداً حتى دنا من الكهف فاذا بصخر آخر يتدحرج فنادى باعلى صوته « لا ترمنا بالحجارة فلسنا براجعين من هذا المكان قبل الوصول اليه » فردد الوادي صدى كلامه أضعافاً فتهيب من موقفه وزاده تهيباً قرب غروب الشمس واختلاط الاظلال حتى كادت تتحول الى ظلام . فشعر اذ ذاك انه أساء عملا بمجيئه الى ذلك المكان الوعر مع ما آنسه من الوحشة والمقاومة ولكنه تجلد وتعهد

---

(١) ميريل

سلاحه فاذا هو مقلد الحسام والخنجر . ثم ما لبث ان وصل الى باب الكهف فظهرت له مغارة لا يرى آخرها لعمقها ولا يستطيع الدخول اليها والفرس معه فوقف وحدق ببصره الى الداخل لعله يرى أحداً فلم يقع نظره على شيء حيّ فصاح قائلاً « من يقيم في هذا الكهف فليخرج الينا لانتا غير متحولين عنه قبل أن نراه ولا خوف عليه » قال ذلك وهو يكاد يرتعش رهبة لسكون الطبيعة سكوناً لا يتخلله تغريد طائر ولا نقنقة ضفدع ولا خرير ماء ولا هبوب هواء ولا صوت آخر حي أو جامد غير صهيل الفرس ووقع حوافره . فهمّ حماد بشد الجواد الى صخر والدخول الى المغارة بنفسه . وفيما هو يهم بذلك ظهر له شبح خارج من ظلمة ذلك الكهف لا يسمع لاقدامه وقع فثبت حماد قدمه وتحفز للدفاع اذا اقتضت الحال . فلم يكد يفعل حتى وصل ذلك الشبح اليه فاذا هو رجل عار يكسوه شعر رأسه المسترسل الى قدميه وقد تمكن به الشيب فابيض على ان الكبر لم يغير شيئاً من اعتدال قامته ورشاقة حركته وحدة بصره وان يكن جلد وجهه قد تجعد وشعر حاجبيه وشاربيه قد طال وشعر صدره أصبح لغضه وبياضه كأنه زبد الصابون. وطالت أظافر يديه ورجليه حتى التفت على نفسها

فلم يكد يقع نظر حماد عليه حتى هاب منظره ولو لم ير في يده صليباً كبيراً لخيل له انه من مردة الجان ولكنه ادرك لاول وهلة أن الرجل ناسك من نساك تلك الايام انقطع عن العالم واوى الى الكهوف التماساً للعبادة . وكان قد سمع بكرامة هؤلاء وصدق نظرهم في عواقب الامور فلاح له أن يخاطبه في ما هو فيه ويستشيره في أمره لعله يخفف شيئاً من قلقه . فتقدم نحوه باحترام وهمّ بتقبيل الصليب في يده فادناه من فيه فقبله ثم خاطب الناسك قائلاً « ألعلك ناسك مقيم في هذا المكان » فاجابه الناسك بحني الرأس ان « نعم » فقال هل تأذن لي بمحادثة ابثك فيها بعض ما في ضميري على سبيل الاعتراف فتشير عليّ بما يوحي به اليك الروح القدس

فاجاب الناسك بالاشارة انه لا يستطيع التكلم الآن لان من شروط نسكه أن يصمت اسبوعاً وينطبق أسبوعاً وان آخر اسبوع الصمت ينتهي الليلة فاذا

جاء في الغد خاطبه . وكان التنسك شائعاً في تلك الايام والنساك أنواع منهم من ينذر الصمت طول الحياة أو بعضها ومنهم من ينذر العري أو الجوع أو السهر اياماً ومنهم من ينذر المعيشة على عشب الارض وهؤلاء فئة كبيرة كانت بين النهرين سموا « النساك الرعاة » فيقيمون في المغر والكهوف المظلمة (١)

وكان ناسك حوران هذا ممن نذر الصمت أسبوعاً فسر حماد بتأجيل المقابلة خوفاً من البقاء هناك تلك الليلة ثم لا يعرف طريقه في عودته لشدة الظلام . فقال له ألا آتي اليك معي بطعام أو نحوه من بصرى فاجاب « لا » لانه من النساك الرعاة الذين يعيشون على عشب الارض

فقال له ولكنني أرى الارض هنا مجدبة لا عشب فيها

فاشار الناسك بيده الى مكان وراء ذلك الجبل فيه مرعى

فسأله عن سبب رميه بالحجارة وهو صاعد . فاجابه لامه انه لا يستطيع مخاطبته قبل انقضاء أسبوع الصمت

فقال حماد وأين الطريق الى دير بحيراء . فدله على طريق سهل غير التي جاء منها فودعه وقبل الصليب وعاد وجواده وراءه حتى وصل الى الطريق فركب وسار قاصداً الدير فرأى عبد الله وسلمان ينتظرانه في الغرفة وقد قلقوا لغيابه على غير موعد . فقال له عبد الله لقد شغلت بالنا بغيابك على غير انتظار

فلم يشأ حماد اطلاعهم على ما اتفق له في ذلك اليوم رغبة منه في كتمانه ريثما يسمع كلام الناسك فيطلعهم على الحكاية كلها

فقال لهم خرجت على فرسي فسرت في بقاع لم اكن أعرفها فاخطأت الطريق في رجوعي فطال بي المسير

فقال عبد الله وما الذي حملك على الركوب منفرداً . فكبر عليه الاقرار بقلقه وتمويه من الامر فقال خرجت لترويح النفس

فادرك عبد الله حاله تماماً ولم يشأ ان يثبط عزيمته ولا أن يزيد قلقه خوفاً عليه من اليأس فقال له أرى سيدي في اهتمام وقلق وما في الامر ما يدعو الى ذلك ولا نحن في سرعة أو ضجر

(١) جبن

فظل حماد صامتاً مفكراً فادرك سلمان ان في نفس حماد كلاماً ربما لا يريد التصريح به على مسمع منه فتظاهر بامر يهمه خارجاً وترك الغرفة . فلما خلا عبد الله وحماد قال عبد الله ما بال سيدي لا يبيح بسره ألست شريكك في امرك

قال بلى بل أنت بمنزلة والدي ولا اخفي عنك شيئاً فاني في قلق وارتباك وأراني في حاجة الى من يفرج كربتي برأي أو مشورة ومسألتنا في ما تعلم من الدقة والخطر

فقال عبد الله هلم بنا الى الراهب الشيخ الذي شاركناه في سرنا لعله يشير علينا بما يفرج كربتنا

قال هلمّ بنا اليه

وخرجا حتى اتيا غرفته فدخلا عليه وكان متكئاً فجلس ورحب بهما فجلسا. ثم قال عبد الله انك يا مولاي شريكنا في سرنا وعالم بما في ضميرنا فهل تشير علينا بما يخفف عنا

فقال الراهب انّ المسألة في غاية الدقة والمشقة وقد أدركت عظمتها منذ سمعتها ولا أدري بماذا أشير . قال ذلك وسكت برهة يفكر ثم هب من مجلسه بغتة وقال أرى ان تذهبا الى ناسك حوران فانه يقيم في كهف على مقربة من هذا المكان فعساه أن يشير عليكما مشورة خير

فبغت حماد عند سماعه اسم الناسك وقال هل تظنه قادراً على ذلك

قال نعم يا سيدي انه اوتي علماً وكرامة فلا تخلو مشورته من فائدة

فقال عبد الله لحماد وهل عرفته قبل الان

فقال اعترف لك أني وصلت اليه اليوم بطريق الاتفاق وخاطبته فاجابني باشارة يديه انه لا يستطيع التكلم الا في صباح الغد لانه ممن نذروا السكوت اسبوعاً والتكلم اسبوعاً

فقال عبدالله فلنذهب اليه غداً ان شاء الله فهل ترافقنا يا حضرة الاب المحترم الى مغارته

قال الراهب يا حبذا لو استطعت المسير اليه معكما ولكنني شيخ لا اقوى على المشي ولا الركوب والطريق وعر فسيرا اليه بحراسة الله ودعوني اقيم هنا أصلي واتضرع اليه تعالى أن يسهل سبيلكما

فودعاه وخرجا

الفصل الحادي والعشرون

ناسك حوران

واصبح حماد وعبد الله في الغد فقال حماد ألا نصطحب سلمان في مسيرنا الى الناسك

قال عبد الله لا أرى ما يمنع ذلك وسلمان كما تعلم اكثر غيرة علينا من غيرة احدنا على الآخر ولا أخالنا نستغني عنه في ما نحن فيه ولا يليق بنا وقد صحبناه اعواماً خدمنا بها خدمات جمة ان نخفي عنه امراً نجريه

قال حماد ذلك ما اراه . وبعثا اليه فصحبهما وخرجوا في الصباح على افراسهم وحماد دليلهم حتى اقتربوا من الجبل وأطلوا على الكهف فقال حماد هذا هو الكهف وكأني أرى الناسك في انتظارنا عند بابه

فنظر عبد الله حتى اذا وقع بصره على الناسك تهيب من منظره عن بعد وصعدوا فلما دنوا من الكهف تحفز الناسك لملاقاتهم وكانوا قد ترجلوا ومشوا نحوه فقال اهلا بكم ومرحباً وأخذ يتفرس فيهم واحداً واحداً بعينين براقتين تحت حاجبين بارزين بروز الطنف حتى يخال لك ان العينين في حفرتين عميقتين

فقال حماد مرحباً بك ايها المتعبد التقي لقد جئناك عملاً بوعدك وهذا والدي (وأشار الى عبد الله) وهذا صديقي (وأشار الى سلمان)

وتقدموا جميعاً وعبد الله ينظر الى وجه الناسك كأنه يعرف وجهاً مثله وكان الناسك مشتغلاً في اعداد احجار يجلسون عليها وهو يخطر امامهم

عارياً وشعره مسترسل عليه يجلل بعضه فغلب عليهم الحياء فلم يستطيعوا النظر اليه الا خلسة

فلما اعتد الحجارة تقدموا اليه وقبلوا يده فباركهم وجلسوا . أما هو فجثا على التراب جثو المستريح جمع شعر رأسه ولحيته في صدره الى حجره وأخذ يرحب بهم ويعتذر لعدم امكانه القيام بحق ضيافتهم

فقال عبد الله لقد جئناك نلتمس بركة لا ترحاباً فقد بلغنا انك من رجال الله المختارين فنظرة منك تغنينا عن اثاث القصور . قال ذلك وهو ينعم النظر فيه لعله يتذكر الوجه الذي يشبهه

فقال الناسك اني أحقر عباد الله فاشكر لحسن ظنكم بي وما تكبدتموه من المشقة في زيارتي فابسطوا ما في انفسكم لعلي أستطيع بمشيئة الله ان أخدمكم خدمة لمجده تعالى

فقال عبد الله اننا من الطائفة النصرانية الذين يعتقدون بكرامة النساك عباد الله ونعتقد انهم ينطقون بوحي منه تعالى وقد جئنا لنطلعك على سر لم يطلع عليه أحد سوانا وراهب مقيم في دير بحيراء . والسر ذو خطر يستلزم اصغاء وكتماناً ونحن معاشر النصارى نعلم خطارة سر الاعتراف وما فيه مما يدعو الى الثقة التامة بامثالكم

فقال الناسك قل يا ولدي ولا تخف

فالتفت عبد الله يميناً وشمالاً كأنه يحاذر ان يسمعه أحد وقال يظهر لي انك من أهل العراق

قال الناسك لقد أصبت المرمى نعم اني من اولئك . وما الذي دلك على ذلك ؟

قال دلني عليه ملامح وجهك ونوع تعبدك فقد قيل لي انك من النساك الرعاة وهم كثيرون في العراق (١)

قال يا ولدي اني كما قلت

قال فوالحالة هذه قل لي هل تعرف الملك النعمان بن المنذر ؟

---

(١) حين

فلم يكد عبد الله ينطق باسم النعمان حتى ظهرت البغتة على وجه الناسك وأبرقت عيناه وأقطب حاجباه وأجاب وهو يشرأب بعنقه ويحدق بعينيه « نعم أعرفه »

فعجب عبد الله لتلك المظاهر ولكنه تجاهل وقال هل تعرفه معرفة جيدة أم تسمع باسمه واخباره فقط

فقال الناسك (ويده في لحيته يمشطها باصابعه) لا بل أعرفه كما تعرف ولدك هذا

قال ذلك بصوت مختنق حتى خيل لهم انه يبكي

فقال عبد الله اراك يا سيدي قد اهتممت لحكايتنا من اول كلمة قلناها

فتنهده الناسك ويده الى عينيه يمسح بها دموعه وقال ان ذكرى الملك النعمان تهيج أشجاني وتفتت كبدي فهل يهمكم من أمره ما همني أم جاء ذكره على لسانكم عرضاً

قال بل هو محور حكايتنا ومرجع سمرنا رحمه الله

وكان حماد وسلمان شاخصين يعجبان لما يبدو من الناسك وعبد الله يزداد استئناساً بطلعته ولكنه لم يدرك ما الذي يدعوه الى ذلك

فقال الناسك قل ما تقوله عن النعمان أني ارتاح الى ذكره ولكنني اتأسف لتذكري عاقبة امره

فقال عبد الله اذا كان النعمان يهمك الى هذا الحد فانظر الى هذا الشاب وقل لنا هل تعرفه (واشار الى حماد)

فمسح الناسك عينيه ونظر الى حماد وجعل يتفرس فيه ولم يكد يتأمله حتى صاح باعلى صوته « انه ابن النعمان لا شك فيه » وهمَّ به وضمه واخذ يقبله

نخفقت قلوبهم وبكوا جميعاً والناسك ضام حماد الى صدره يقبله ويبكي

فازداد عبد الله استغراباً للامر وقال للناسك لقد اذهلتنا بما بدا منك فكيف تقول انه ابن النعمان وقد كان ابرش احمر [1] وهذا اسمر ادعج

قال لا عبرة في ذلك فان ملامح النعمان قد تمثلت فيه وهو الرجل الذي

(١) الطبري

رغبت عن العالم وانقطعت الى هذه الجبال من اجله

فبهتوا لهذا القول ولم يفهموا مغزاه فاراد عبد الله ان يستطلع حقيقة الخبر فقال وهل تعرف الذي يكلمك

فنظر الى عبد الله نظر المتأمل وقال ألملك صديق الملك النعمان وشريكه في مصابه « شمعون الحيري » . وكان هذا اسم عبد الله المعروف به اذ ذاك

فانذهلوا جميعاً وخصوصاً عبد الله فانه أعاد نظره الى الناسك وازداد استئناساً به ولكنه لم يذكر كيف عرفه فقال أما وقد علمنا انك شريكنا في الامر فاخبرنا من أنت وفرج كربتنا

فصعد الناسك الزفرات وقال اما انا فاني القس الذي ارتد النعمان الى النصرانية على يده [1] بعد ان كان أسلافه قد نبذوها وعادوا الى الوثنية او المجوسية ديانة الفرس

فانتبه عبد الله من غفلته كانه أفاق من رقاد وقال ألملك القس يعقوب ؟

قال نعم وقد كنت مقيما في دير هند الكبرى المنسوب الى هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار وهو في ظاهر الحيرة وكانت هند هذه كما تعلمون قد ترهبت فيه فسمي باسمها [2] ولكنني كنت اختلف الى النعمان كثيراً ويطلعني على أسراره حتى كان ما كان من أمر سجنه في خانقين فبرحت الحيرة وصرت الى هناك وجعلت اتردد اليه في السجن . ألا تذكر انك كنت تراني هناك ؟

قال اذكر ذلك جيداً وما زلت منذ رأيتك الان وانا افكر فيه . ثم همّ عبد الله به وتعانقا وهما يبكيان أما الناسك فتحول نحو حماد وضمه وجعل يقبله ويبكي وهو يقول احمد الله اني رأيتك قبل موتي

ولبثوا برهة صامتين وكلٌّ يبكي ويمسح دموعه بكمه الا الناسك فقد كان يمسحها ببطن كفه

ثم قال عبد الله اقصص علينا بقية الخبر يا حضرة القس المحترم

(١) ابو الفداء (٢) المشترك وضعاً لياقوت

قال كنت اتردد اليه في السجن اصلي له وأباركه وأدعو له وكان كلما اجتمعت به يقول والاهتمام ظاهر على وجهه « لديَّ سر سأطلعك عليه في فرصة أخرى » فاهتممت لمعرفة ذلك السر وكنت أتوقع سماعه في كل زيارة وهو يسوفه وكنت كلما سرت اليه رأيتك وعجبت لشهامتك وغيرتك عليه . فسألته عنك يوماً فقال انك مستودع أسراره وانه يثق فيك وثوقاً تاماً . وما زلت اختلف اليه حتى اصيب بمرض ظنوه الطاعون ولا أظنه اياه . فزرته ولم تكن انت ساعتئذ هناك فقال لي أراني لم أنقه من مرضي هذا ولعل القضاء سيعاجلني وأخاف ان لا أملك فرصة أخاطبك بها . فقلت قل يا سيدي ولعل الله شافيك باذنه وبركة ابنه . ثم بكى وبكيت (قال الناسك ذلك وخنقته العبرات والجميع سكوت يصغون الى خبره يتطاولون باعناقهم ويحدقون بابصارهم في شفتيه وهما ترتجفان من شدة التأثر) فسكت الناسك برهة ريثما استجمع قواه . ثم قال فامسكني النعمان رحمه الله بيدي وادناني منه وأسر اليَّ امراً خطيراً قال انه اسره اليك ولا ادري هل يجوز لي التلفظ به وهو سر الاعتراف

فقال عبد الله لقد قلت اني عارف به فلم يعد من قبيل سر الاعتراف وقد أطلعت ابنه ورفيقنا هذا عليه

قال الناسك أما والحال على ما تقول فاخبركم انه ادناني منه وهو جالس على فراشه في ذلك السجن فقال « اني سأقضي نحبي هنا ظلماً من قوم لا يعرفون الله ولا يشفقون على انسان وسأترك أهلي وأولادي بدون ان أراهم وأودعهم واني عالم أن سلطان الحيرة سيخرج من بني لخم بعد موتي فاسررت الى شمعون ان يربي ولداً لي لم يولد بعد وان يكتم نسبه عنه حتى يبلغ العشرين من عمره فيقص شعره في دير بحيراء ثم يطلعه على حقيقة نسبه قال واعترف لك اني حرضته على ان ينتقم لي من دولة الفرس » . قال الناسك فلما سمعت كلامه اقشعر بدني واستعذت بالله من ذلك كله وقلت « يا سيدي الملك أراك تستعجل الاجل وليس ما يدعو الى قربه واما الانتقام فاتركه الى الله سبحانه وتعالى وهو الديان العظيم » . فاجابني والدموع تخنقه

« لقد قضي الامر يا أبتاه وعهدت بذلك ولا أرى الرجوع عنه والله يقضي بما يشاء » قال النعمان ذلك واختلج صوته وارتعدت فرائصه ثم غاب صوابه وفيما نحن في ذلك جاء السجان يشدد النكير على من يدخل الى النعمان فخرجت ولم أعد أراه ثم ما لبثت أن سمعت بانتقاله الى دار البقاء . (قال الناسك ذلك وتنهد) وعلمت واحسرتاه عليه أنه لم يمت بخانقين بل نقلوه الى ساباط فمات فيها [١]

فلما سمعت ذلك كرهت الدنيا وتحققت فناءها وزدت زهداً فيها فالتجأت الى النسك واخترت منه اكثره زهداً وهو هذا الذي انا فيه اعيش على نبات الارض وامكث عارياً كما ترون وكنت مقيم في العراق مع رفاق كثيرين من الرهبان وذكر النعمان لم يبرح من ذهني يوماً واحداً وصورته نصب عيني وهو على ذلك الفراش في خانقين وما زلت أردد كلماته الاخيرة . فاحببت الاطلاع على ما فعلته أنت من هـذا القبيل فلم اعرف مقامك ولما مضت بضع عشرة سنة من وفاته ولم أرك ولا عرفت مقرك قلت لعلك تقيم في البلقاء بالقرب من دير بحيراء لاجل وفاء النذر عند حلول الميعاد . فجئت وأقمت في هذا الكهف وفي نفسي شيء اريد أن اطلعك عليه فلم اسمع عنكم خبراً ولا انا استطيع البحث لانقطاعي عن الناس فضلاً عن أني لم اكن اعرف اسمك الجديد فكنت اتوقع ان اسمع خبراً عن شمعون الحيري فلم أسمع هذا الاسم قط

الفصل الثاني والعشرون

انذر القاتل بالقتل

قال عبد الله وما الذي في نفسك وتريد أن تطلعني عليه . قل :

قال هو خبر يتعلق بوصية النعمان لك ولابنه فاحكِ لي ما تم معك من قبيل النذر هل وفيته واطلعت هذا الملك على حقيقة نسبه

قال عبد الله نعم يا مولاي لقد وفينا النذر بعد ميعاده . واحكى له القصة

(١) حماد الراوية

من اولها الى آخرها حتى أتى على سبب مجيئهم اليه فقال : وقد جئنا اليك لعظم ما قام في نفس مولانا الملك من الاهتمام في امر الانتقام فقلنا نطلع ناسك حوران على هـذا السر لعله يشير علينا مشورة تخفف ما بنا . أو تهدينا سبيلاً مستقيما

فقال الناسك لقد وقعتم على خبير وان في بقية قصتي ما يفرج عنكم كل كرب ان شاء الله

فاستبشر عبد الله وحماد وسلمان بانفراج الازمة وسروا لقدومهم على هذا الناسك فقال عبد الله اخبرنا ببقية قصتك بورك فيك

قال كنت لفرط اهتمامي في امر الملك النعمان وامر وصيته وما تتضمنه من الحث على الانتقام لا ابرح افكر في هذا الامر نهاراً وأحلم به ليلا حتى استيقظت ذات صباح والناس يتحدثون بأمر كسرى بروىز قاتل النعمان وان ابنه شيرويه تآمر عليه وسجنه فقلت في نفسي هذه عاقبة القوم الظالمين . ثم ما لبثت أن سمعت بانه قتله[1] فاعتبرت بحكمة الله سبحانه وتعالى وشعرت براحة فبت ليلة ذلك الخبر وانا هاجس في عاقبة الظالمين . وقول القائل : « وانذر القاتل بالقتـل » . فرأيت في منامي كأن الملك النعمان قادم اليّ بلباس ناصع البياض ووجه منير باسم فخشعت لرؤيته على هذه الصورة ثم سمعته يقول « لا تعجب يا يعقوب لمقتل برويز المجوسي فقد اعد له الله ما هو اعظم من ذلك ليعتبر القوم الظالمون »

فقلت وقد بهرني نور وجهه فاطرقت « وماذا عسى ان يكون اعظم من الموت قتلاً بسيف البنين »

فقال لي : « سوف ترى وكل آت قريب » فرفعت نظري لاراه فغاب عن بصري واستيقظت من منامي مذعوراً ولم تمض بضع سنوات حتى وقع في سلالة برويز ما لم نسمع بمثله في غابر الازمان . اتدرون ما هو

قال عبد الله وماذا تعني

قال كان لبرويز هذا ثمانية عشر ولداً كلهم ذوو أدب وشجاعة ومروءة

(١) ابن الاثير

منهم شيرويه الذي تولى الملك بعده فوشى رجل اسمه فيروز لشيرويه على اخوته السبعة عشر فامر بقتلهم جميعاً (١) فقتلوا صبراً في ساحة الايوان وهو ينظر اليهم ولكن شيرويه لم يهدأ له بال بعد عمله هذا فان أختيه بوران وآزرميدخت وبختاه توبيخاً شديداً فبكى بكاء مراً ورمى التاج عن رأسه (٢) ولم يزل بقية أيامه مهموماً دنفاً ولاقى المصائب الكبرى وفي جملتها طاعون فشا في بلاده فاباد من قدر عليه من أهل بيته(٣) وأخيراً مات هو كئيباً حزيناً . فهل أشد وطأة من هذا الانتقام . وزارني ملاك النعمان بعد هذه الحوادث وهو يضحك وأمارات البشر ظاهرة على وجهه فهممت بالوقوف لملاقاته فشعرت بنفسي ثقيلاً لا أستطيع النهوض فابتدرني هو قائلاً « لقد انتقم لي الله من برويز المجوسي فطابت نفسي وأرى وصيتي لولدي حملاً ثقيلاً على عاتقي فقد شعرت بضعف بني الانسان وعلمت الاصابة في قولك وانا في سجن خانقين » قال ذلك وتوارى عن بصري وأنا راقد لا أستطيع حراكاً ثم استيقظت وصورة النعمان أمام عينيّ ويكاد النور ينبثق من وجهه

فلما بلغ الناسك الى هذا الحد من حكايته شعر كل من السامعين بانفراج الازمة وخصوصاً حماد فانه أحس بحمل ثقيل نزل عن ظهره

أما سلمان فكان الى ذلك الحين صامتاً لم يفه بكلمة فلما فرغ الناسك من كلامه وقف سلمان وهمّ بيد الناسك فقبلها وقال لقد أتيتنا فرجاً من عند الله ولكن قلوبنا لا تشتفي الا بعمل نعمله على قبر أولئك الكفرة الغاشمين

فنظر الناسك اليه وتبسم تبسماً قلما تعوده وقال تلك أعمال الله يا ولدي وستسمع بذهاب دولة الفرس قريباً فلا يبقى ثم من تنتقمون منه

فلم يفهموا مغزى كلامه فقال عبد الله هل تعني شيئاً محدوداً أوحي اليك ما في سابق علم الله فانكم معشر النساك ذوو كرامة يفتح عليكم ما لا يفتح على سواكم

قال الناسك أشير الى أمر لا يحتاج الى وحي أو كرامة بل هو ظاهر

(١) الطبري (٢) مالكولن (٣) الطبري

يفهمه كل عاقل . ألا ترى حال الفرس واختلال شؤونهم واضطراب أحوالهم حتى توالى على كرسي ملكهم خمسة ملوك في خمس سنين[1] وكلٌّ يعمل على الاستئثار بالسلطة وابادة الاخرين واضعفهم رأياً يزدجرد الذي يتولى الملك الآن وستزول دولة الفرس على يده ناهيك عن ظلمهم وجورهم . ألا يدلكم ذلك على شيخوخة دولتهم وهرمها وقرب انقضاء أجلها وللدول آجال كآجال الناس تمر في أدوار تنتهي بالموت ودولة الفرس قد بلغت شيخوختها ولا تلبث أن تنقضي وكذلك دولة الروم الحاكمة على هذه البلاد

قال عبد الله ولكن لا تنقضي الا على يد دولة اخرى تقوم مقامها فمن سيخلف هاتين الدولتين . قال أما سمعتم برؤيا الراهب بحيراء الذي كان يقيم في ديره هنا

قالوا «كلا» الا حماد فانه تذكر ما سمعه من الراهب الشيخ في تلك الصومعة يوم جاءها للاقاة هند هناك . فقال بلى سمعت ذلك من الراهب الشيخ فقد أحكى لي مرة ان بحيراء رأي في منامه فتى الجميل المنظر مولده برج الثور والزهرة مع قران المشتري وزحل وعلم منه انه هو الذي سيهدي أبناء جلدته بني اسماعيل (وهم العرب) الى معرفة الله وان به يقوى أمرهم ويشتد ازرهم وتجتمع كلمتهم فيذلون أبناء عمهم بني اسحق ويتسلطون عليهم مدة توافق ما اشار اليه دانيال في نبوته وانه يخرج من أولئك العرب اثنتا عشرة دولة[2] اليس ذلك ما تعنيه

قال الناسك هذا ما عنيته وازيد عليه ان الرجل المنتظر قد ظهر في جزيرة العرب ودعا الناس فيها الى عبادة الله ونبذ الاوثان وقد فتح مكة وكسر أصنام الكعبة وانتشر سلطانه في الحجاز واليمن وسيفتح الشام والعراق وهو الذي سيخلف الفرس والروم في سلطانهما

فقال حماد لقد شاهدنا قوته وسلطانه باعيننا يوم فتح مكة وكان يوماً مشهوداً ويظهر من رغبته في سبيل الله واستهلاك انصاره واصحابه في نصرته ان دولته ستقلب الدول كلها عاجلا أو آجلا

---

(١) الطبري (٢) دائرة المعارف

قال فلستم اذن في ما يدعو الى تكبد الخطر في الانتقام من اكاسرة الفرس وقد رأيتم ان قاتل حبيبنا النعمان قتل هو واولاده شر قتلة وسيتم العرب على دولتهم ان شاء الله

فوقع كلام الناسك على قلب حماد برداً وسلاماً فارتاح باله من امر الانتقام المعجل وانصرف فكره الى هند وشعر بميل شديد الى رؤيتها وخاف أن تسيء الظن به اذا طال غيابه بعد يوم الشعانين وهم في اليوم الثاني منه فتظاهر بميله الى الانصراف فادرك عبد الله ذلك وقال الناسك اتأذن لنا بالذهاب على أن نغتنم الفرص في زيارتك حيناً بعد حين وهل تطلب منا امراً نقضيه لك

قال لا أريد من هذا العالم شيئاً فقد رأيتم زهدي به ولم يكن في نفسي شيء غير رؤية ابن حبيبي النعمان لاقصَّ عليه ما أزمعت عليه مما خاطبني به والده في الحلم فاحمد الله على نيل بغيتي فاذا مت الآن فاني أتوسد قرير العين ناعم البال

فقال عبد الله اطال الله بقاءك ونرجو ان نراك مراراً . قال ذلك ونهض فنهضوا جميعاً وودعوا الناسك وانصرفوا على افراسهم وكأن على رؤوسهم الطير

اما حماد فان ذهنه تفرغ للافتكار بهند واحسَّ برغبة في اطلاعها على حقيقة نسبه . فلما وصلوا الى الدير مروا بغرفة الراهب الشيخ فدخلوها ليطلعوه على ما دار بينهم وبين الناسك فلما انبأوه بما علموه من امره اطرق يفكر بغرائب الحدثان ثم قال لقد خيل لي منذ رأيت هذا الناسك انه لم يغادر خصب العراق ويقيم في هذه الجبال المجدبة الا لدافع دفعه الى ذلك وقد صدق ظني ويسرني انه اطلعكم على ما خفف قلقكم وهوّن عليكم فما أنتم في عجل للقيام بالوصية وقد كفاكم الله مؤونة ذلك . اما ما قاله عن قوة المسلمين وعظم دولتهم حتى يخشى على الروم والفرس منها فقد ايدته الحوادث الجارية فان تلك الشرذمة من الحجازيين لم يكادوا يقومون بدعوتهم حتى ملأوا جزيرة العرب فتحاً وقتالا فدانت لهم قبائل اليمن وعمان واليمامة ونجد وقد شهد حماد وسلمان فتح مكة ورأيا بطش هؤلاء العرب وقوة جامعتهم ولقد

شهد من رأى حروبهم في مؤتة هنا انهم كافحوا كفاح الاسود وصبروا على الحرب صبر الرجال ولكنها أول مرة لاقوا بها جند الروم ولم يكونوا في عدة كافية فلم يفوزوا والظاهر ان واقعة مؤتة كانت امثولة لهم علمتهم كيف تؤكل الكتف حتى اذا رأوا في جندهم الكفاءة أعادوا الكرة ليس على الشام فقط بل على العراق أيضاً

فقال عبد الله وهل علمت انهم حملوا على العراق

قال نعم أنهم حملوا عليه حملة اذا لم يكن فوزهم بها تاماً فلا أقلّ من أن يؤذوا الفرس ويضيقوا عليهم

فقال حماد وكيف عرفت ذلك يا مولاي

قال اخبرني بذلك تاجرٌ من أهل مكة تعودنا لقاءه هنا كل عام أو عامين ولي معه صداقة ودالة فقد مرَّ بي من بضعة ايام وأطلعني على حوادث تلك الدولة بعد فتح مكة حتى الساعة فاذا هي مما يخيفنا على دولتي الروم والفرس وكنت اظنكم عالمين بها

فقال عبد الله كلا يا مولاي اننا غير عالمين بشيء من ذلك

قال الراهب اخبرني التاجر ان اولئك الحجازيين بعد أن فتحوا مكة عادوا الى المدينة وانفذوا جنداً منهم الى من بقي في جزيرة العرب لم يرضخ للاسلام فغزوا عدة غزوات فازوا بها كلها . ومن اكبر قوادهم رجل منهم يقال له خالد بن الوليد أتى بالمعجزات في حروبه حتى سماه النبي « سيف الله » ومنهم علي بن أبي طالب ابن عم النبي وهو بطل مجرب . وكذلك رجل شيخ من كبار مشيريهم اسمه عبد الله بن أبي قحافة [1] لقبه بالصديق ويسمى أبا بكر وهو حمو النبي والد امرأته عائشة . ومنهم رجل آخر يندر مثاله في العالم بشدة البطش وصدق الغيرة على الحق اسمه عمر بن الخطاب وآخر اسمه عمرو بن العاص وغير هؤلاء جماعة كبيرة فتمكن بذلك من اذلال قبائل العرب حتى انه لم يعد يحتاج في اذلالهم الى ارسال الرجال بل كانوا يفدون عليه وفوداً يلتمسون الدخول في دينه عن رضى وطيبة خاطر [2] فرأى

(١) مروج الذهب (٢) السيرة الحلبية

الوقت اللازم لفتح الشام قد آن فجند جيشاً بقيادة رجل اسمه اسامة بن زيد وأمره أن يسير الى فتح الشام وفيما هو في ذلك وافاه القدر فتوفي قبل مسير الجند ولكنه خلف ابطالا قاموا بنصرة دينه فتولى الخلافة بعدة حموه أبو بكر المتقدم ذكره وهو شيخ جليل القدر وأخبرني التاجر ان المسلمين لما مات النبي اختلفوا في من يولونه الخلافة بعده لانهم قسمان قسم يقال لهم الانصار وقسم يقال لهم المهاجرون

فقال حماد وما معنى هذه الاحزاب هل هي مذاهب دينية كالتي عندنا

قال لا يا ولدي ان المهاجرين هم الذين هاجروا مع النبي من مكة الى المدينة يوم شدد أهله النكير عليه هناك فتبعه من قريش اكثرهم غيرة عليه فسموا المهاجرين وأما الانصار فهم أهل المدينة الذين قاموا بنصرته لما جاءهم مهاجراً فحاربوا معه فسموا الانصار . فكل من الانصار والمهاجرين يظن نفسه أولى بالخلافة فاختلفوا في من يتولاها حتى كادت تقوم بينهم فتنة . ويظن صاحبنا التاجر المكي ان الفضل في فض هذا المشكل لاحد المهاجرين عمر بن الخطاب وقد ذكرته لكم الآن فهو الذي توسط في الامر وبايع ابو بكر فبايعه الناس احتراماً له أو خوفاً منه فصارت الخلافة في المهاجرين وهم من قبيلة النبي (قريش) فخليفة المسلمين الآن ابو بكر الصديق هذا (١)

فلما توفي النبي تغيرت قلوب بعض أهل جزيرة العرب ممن اعتنقوا الاسلام في حياته فارتد كثير منهم الى ما كانوا عليه من النصرانية أو اليهودية أو غيرهما فتهيب المسلمون لذلك فاجتمعوا وأوعزوا الى أبي بكر أن يعدل عن ارسال الجند الى الشام لاحتياجهم اليهم في اقماع المرتدين فابى الا انفاذ ما امر به النبي فارسل اسامة وجنده الى الشام . ومما احكاه لي التاجر المكي حكاية وقعت لابي بكر هذا يستغربها كل من عاشر حكامنا من الروم أو الفرس

فقال عبد الله وما هي . قال الراهب اخبرني التاجر ان ابا بكر رافق ذلك الجند في خروجهم من المدينة وكان اسامة راكباً وأبو بكر ماشياً فخجل اسامة من ذلك لانه شاب وذاك شيخ فضلاً عن كونه رئيسه فتقدم اليه أن يمشي

---

(١) تولى الخلافة سنة ١١ للهجرة

هو ويركب ابو بكر فابى الا ان يشيعهم ماشياً ويدل ذلك على رغبة حكامهم في الخدمة لا الرئاسة . ومما اوصاهم به قبل عودته قوله « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلا او تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً » هل سمعتم مثل ذلك من رؤسائنا لا انكر عليكم ان النصرانية تأمرنا بمثل ذلك ولكن حكامنا نبذوا الدين نبذ النواة وسيعود ذلك عليهم وبالا . قال الراهب ذلك وقد أخذت الحدة منه مأخذاً عظيما حتى ارتجف صوته وارتعشت لحيته ثم سكت

وكان عبد الله وحماد وسلمان متطاولين باعناقهم يسمعون حديث الراهب وقد زادهم تأثراً ما آنسوه من اهتمامه فقال عبد الله ان مثل هؤلاء لا بد من أن يغلبوا العالم ويفتحوا الامصار فعساهم أن يبدأوا بالعراق وينقذونا من دولة الفرس الظالمة

فقال الراهب وقد تنفس الصعداء أنك تمنى أمراً قد وقع فعلاً فان جيش اسامة هذا لم تطل غيبته لعلمه ان الخليفة أحوج الى نصرته في قتال أهل الردة مما بفتح الشام فعاد بجنده وانضم الى المسلمين في حروب أهل الردة . ومما زاد الامر اشكالا أناس ادعوا النبوة منهم رجل اسمه أسود العنسي في اليمن فالتف حوله حزب كبير ورجل آخر اسمه طليحة الاسدي من بني أسد في نجد وآخر اسمه مسيلمة في اليمامة وآخر اسمه ذو التاج لقيط بن مالك [١] وغيرهم من المتنبئين ودعاة الاحكام حتى لم تبق قبيلة من قبائل اليمن وحضرموت وعمان والبحرين واليمامة ومهرة الا نبذت طاعة المسلمين وارتدوا عن الاسلام فخاف المسلمون الفشل ولكن ابا بكر تصرف بحكمة ودراية وساعده في ذلك قواده المحنكون وخصوصاً ابن الوليد فانه عمل اعمالا غريبة وكذلك عمرو بن العاص وغيرهما فقضوا في الكفاح سنة كاملة حتى دانت قبائل العرب واجتمعت كلمتهم واستقام أمرهم

فقال حماد يا حبذا لو يسير خالد الذي ذكرته الى العراق

(١) ابن الاثير

فضحك الراهب ضحكة يتخللها عبوس وقال لقد أصبت يا ولدي فانه عمل ما أردته فسار خالد هذا الى العراق لفتح الحيرة وقتال الفرس (١)

فهب سلمان للحال وقال لحماد ألا يأذن لي مولاي بالمسير الى الحيرة اني لا يهدأ لي بال ان لم أبل يدي بدم الفرس فعساي ان أشهد بعض المواقع أو اخدم المسلمين خدمة تساعدهم على انقاذنا من أولئك القوم المجوس

فقال حماد أني أولى منك بذلك ولقد كنت عازماً على التماسه لو لم تلتمسه أنت

قال سلمان اما أنت فقد طال غيابك عن أمير غسان وأميرته فسر اليهما وعساي ان أعود اليكم قريباً بخبر النصر

فانتبه حماد لامره مع هند فاغتنم وجوده عند الراهب فرصة لاستفتائه بامر الاقتران بعد حكاية الوصية ولكنه استحى نخاطب عبد الله على انفراد قائلاً أتظن انه يجوز لنا المخاطبة بأمر الزيجة أم نحن لا نزال مقيدين بالوصية

قال عبد الله دعني اسأل الراهب ونأخذ رأيه فما يشير به نفعله . وتحول نحو الراهب فسأله فقال الراهب يظهر من خطاب الناسك لكم انه يحلكم من ذلك القيد وفي العدول عن الانتقام فضيلة مسيحية كما تعلمون لان ديانتنا توصينا بمحبة عدونا ومباركة لاعنينا وتحظر علينا الانتقام

فسر حماد لهذه الفتوى وسكت حتى اذا خرجوا من عند الراهب انفرد بعبد الله وقال له ألا ترى ان نذهب غداً الى البلقاء نقابل جبلة وأنت معي فقد فرغنا من حكاية النذر وآن لنا الاجتماع وخصوصاً بعد أن ظهر ما ظهر من رفيع نسبنا

فقال عبد الله أرى يا مولاي أن تبقي أمر نسبك مكتوماً كما كان لنرى ماذا يجد من حوادث الزمان

فاجفل حماد وقال ولماذا نكتمه وهو شرف يتسابق اليه الناس وخصوصاً انهم اعترضوا على زواجي بهند لغموض نسبي فهل أبقيه غامضاً

(١) أرسله في أول السنة الثانية عشرة للهجرة (ابو الفداء)

ففكر عبد الله هنيهة ثم قال وأرى مع ذلك أن لا تذكره وعلى كل حال فالامر راجع اليك

فسكت حماد وكانا قد وصلا باب الغرفة وسلمان يتبعهما وقد أدرك انهما يتكلمان بشأن هند فتقهقر قليلا فلما وصلا الغرفة التفت حماد ونادى سلمان فاسرع وهو يقول أتقدم اليك يا مولاي ان تأذن لي بالذهاب الى الحيرة غداً صباحاً وان يكن يعز عليَّ ان لا أشهد الاحتفال باقترانك ولكنني لا البث ان أعود اليكم بما يسركم ان شاء الله وأرجو ان تذكروني في حفلة الزواج وانا اذكركم في ساحة الحرب

فقال عبد الله لحماد دعه يذهب يا سيدي لعله يأتينا بخبر فقد انتهينا من المشاكل والاسرار ولا نظننا نحتاج اليه في شيء وقد تقرر لك الاقتران بهند ورضي والدها ووفينا النذر فليذهب

فقال حماد أذهب يا سلمان بحراسة الله ولا تقطع عنا أخبارك

فقضى سلمان ليلته تلك يستعد للسير الى العراق وفي الصباح ودع حماداً وعبد الله وبكى لوداعهما وسار الى الناسك يلتمس بركته ودعاءه قبل المسير

فلما خلا حماد بعبد الله قال له دعنا نسير الى جبلة أو هيا بنا الى صرح الغدير أم هناك سر يمنع ذهابنا واقتراننا ألم يأن لنا أن نخلص من العراقيل

قال لقد آن الوقت وعلم سيدي اني لم أؤخر اقترانه عبثاً ألم يكن في السر ما يدعو الى ذلك

قال بلى واني لا انسى جميلاً صنعته معي يا عبد الله ولكنني اعترف لك اعترافاً صريحاً بان اطلاعي على نسبي قد قلل اسباب سعادتي واحسبني كنت أسعد حالا يوم كنت حماد بن الامير عبد الله اما وانا المنذر بن النعمان فاراني تعساً يتيماً مظلوماً

قال عبد الله كنت اتوقع ذلك منك ولكنني لم أر بداً من ان اقص عليك خبراً عهد به اليَّ امانة مقدسة

قال لم أقل انك اخطأت باطلاعي على حقيقة نسبي فقد فعلت الواجب على

انني لما اتصور هنداً ومعيشتي معها اسلو الدنيا ومتاعبها

قال عبد الله وزد على ذلك انك ستكون عما قليل ملك غسان والغساسنة لا يقلون سطوة وبطشاً عن ملوك الحيرة فضلا عن علاقتهم بالروم وهي دولة مسيحية وذلك خير من علاقة اجدادك المناذرة بالفرس والفرس مجوس يعبدون النار كما تعلم

فانبسط وجه حماد لذلك فقال أنذهب معاً الى صرح الغدير . قال لو علمت ان جبلة هناك لذهبت معك لان من اللياقة ان ألاقيه فمتى تعارفنا جاز لي الذهاب الى الصرح . فقال اذن اذهب انا فالتمس لك موعداً تجتمع فيه بجبلة وتتم الاقتران

قال حسناً تفعل . فاخذ حماد يعد جواده للركوب

الفصل الثالث والعشرون

البُرد والخاتم

اما هند فلم يأت يوم الشعانين حتى ملت الانتظار وكانت تتوقع أن ترى حماداً في مساء ذلك اليوم أو في صباح الغد فمضى اليوم والغد وهي تعد الساعات والدقائق وتحسب لتأخره غير حساب . فلما كان اليوم الثالث أفاقت من رقادها قلقة البال فنهضت وسارت الى والدتها والتمست منها ان ترافقها الى دير بحيراء أو تأذن لها بالذهاب اليه وحدها

فقالت سعدى لا أرى ان نفعل ولا ان تفعلي فلو رأى حماد المجيء الينا لجاء فربما كان في سر والده ما يمنعه من المجيء

قالت ما تعنين يا أماه

قالت لا أعني شيئاً ولكنني لم يعجبني أمر والده هذا فكم تدلل وتعزز فقد صاهرنا ولده على غموض نسبه واكرمناه والتمسنا لقياه فلم يأت وها قد انقضى موعده من يوم الشعانين فلا أظن الا في الامر دخيلة

فانقبضت نفس هند عند ذلك وقالت لا تلومي الغائب قبل حضوره فربما منعه عن زيارتنا مرض أو شاغل ذو بال واما ما أشرت اليه من تدلل والده أو كبريائه فلا أظنه في محله وليس ثمَّ ما يسوغ له ذلك

وسكتتا هنيهة مطرقتين ثم قالت سعدى نعم يجب علينا أن نبحث عنه وعن سبب غيابه فلننتظر هذا اليوم ايضاً فاذا لم يأت أنفذنا اليه رسولاً

فخرجت هند وهي هاجسة في امر حماد فلبست ثوبها وخرجت الى الحديقة تشغل نفسها بازهار الربيع وعيناها شائعتان بين الاشجار وقد هبَّ عليها النسيم فتعاظم حفيف الاوراق وعلت أصوات الطيور مغردة وهند تودّ انقطاع النسيم وخرس الاطيار مخافة ان تحول تلك الضوضاء بينها وبين وقع اقدام حماد اذا جاءها ماشياً بين الاشجار أو تخفي صوت جواده اذا صهل عند استقبال الصرح . وفيما هي جالسة على حجر هناك تفكر في ذلك وتحدق بعينيها وتصيخ بسمعها وقد صارت الشمس في الهاجرة رأت فارساً قادماً عن بعد عرفته من جواده وظاهر لباسه انه حماد فهرولت الى والدتها وأنبأتها بقدومه فدخلتا الى قاعة الجلوس حتى جاءها مخبر بقدومه فخرجت سعدى للقائه ورحبت به فقبل يدها ودخلا الصرح وكانت هند عند الباب فسلم عليها ودخلوا جميعاً الى قاعة الجلوس وقد آنست هند في وجه حماد تغييراً بعد قص الشعر ولكنها عجبت لمجيئه وحده وأرادت الاستفهام عن السبب فمنعها الحياء على ان والدتها ابتدرته بالسؤال عن والده

فقال انه كان عازماً على المجيء معي ولكنه رأى من اللياقة ان يقابل ملك غسان قبلاً ولو كان سيدي العم هنا لانفذنا الى والدي فيحضر حالا

فقالت جعل الله نذركم مقبولا هل قصصت شعرك يا ولدي

قال نعم . قالت وهل سمعت الحكاية

قال نعم سمعتها . وحدثته نفسها ان يبيح بها فتذكر تحذير عبد الله فامسك ولكنه رأى سكوته عنها بالمرة تحقيراً للسائل

أما سعدى فلم ترد على هذا السؤال تأدباً فلما لم يجبها غيرت الحديث وسألته اذا كان يسره الخروج الى الحديقة وهو يود ذلك لعلمه انه قد يخلو

هناك بهند فيتعاتبان أو يتغازلان

فخرجوا من باب خصوصي صغير وتخلفت سعدى في القصر توصي قيمة القصر باعداد مائدة الغداء

فمشى حماد وهند في طرقات الحديقة حتى انحدرا الى ضفة الغدير وماؤه يجري على حصباء تتلألأ تحته كأنها الدرّ وقد فاحت روائح الازهار وغلبت عليها رائحة زهر اللوز وزهر البرتقال وعلت ضوضاء الاطيار وحفيف الاشجار ولو كان لنا فونوغراف أديسن أو اشعة رونتجن لرأينا قلبي هذين المحبين يتناجيان ويتفاهمان !

أما هنـد فما صدقت أنها خلت بحماد حتى نظرت اليه شزراً وهي تبتسم وعيناها مشرقتان تتلألآن وقالت ما الذي دعاك الى التعجيل في زيارتنـا أما كان الادل على شوقك أن تبقي زيارتك الى عيد الفصح

فادرك مرادها فاحب ان يعبث بها فقال تركنا يوم الفصح لمقابلة والدك بشأن الاكليل ام ترين تأجيل ذلك الى الاحد الجديد

فخجلت واطرقت وقد توردت وجنتاها فازداد اشراق وجهها وقالت لو عرفت أنك تجيبني بمثل ذلك ما اقدمت على سؤالك

قال وقد اعجبـه خجلها وازداد هيامه بها لم اكن أظن ذكر الاقتران يسوءك ونحن انما نسعى جهـدنا في الحصول عليه . قال ذلك ونظر اليها كأنه ينتظر جوابها . أما هي فحولت وجهها عنه وخطرت نحو شجرة من البرتقال تقطف زهرة تتلاهى بشمها عن سماع كلامه

فتبعها حماد وهو يقول ما بالك تهربين مني يا هنـد فاذا كنت تريدين التخلص من قرابتي قولي لي كما قال غيرك ان نسبي غامض فلا استحق بنت ملك غسان

فلم تجبه ولا على هذا وقد كان يتوقع أن يجرها الحديث الى حكاية السر ليخبرها بحقيقة نسبه ويرى ما يبدو منها وخاف ان تأتي والدتها فينقطع الحديث فدار نحوها حتى قابلها وجهاً لوجه وأمسك يدها فاحس كلاهما بقشعريرة الحب فقال حماد لم تسألبني عن حكاية السر ما هي

فقالت له (وهي ممسكة يده تنظر اليها) يظهر ان حكاية السر عزيزة لديك لا نستحق سماعها

فادرك أنها توبخه لسكوته عن سؤال والدتها فقال لا يعز عنكم شيء يا حبيبتي . قال ذلك ومد يده الى جيبه فاستخرج خاتماً دفعه اليها وقال هذا هو سرنا فانظري اليه

فتناولت الخاتم وتأملته فاذا هو مكتوب بحرف لا تعرفه فقالت أنه لا يزال سراً اذ لا أستطيع قراءته . فقال انا أقرأه لك ثم قرأ « النعمان بن المنذر »

فلم تفهم المراد فقالت وما معنى ذلك ؟

قال معناه ان نسبي الذي كان غامضاً عنك وعني كان مختبئاً في هذا الخاتم

فانعمت فكرها في مغزى كلامه فادركت انه ينتسب الى النعمان ولكنها استبعدت ذلك فقالت ألعلك تنتسب الى الملك النعمان ؟

قال « بل هو أبي » . وجعل ينظر الى ما يبدو منها فرآها قد استغربت قوله ولا تزال في حال البغتة ولكن الاعجاب والسرور ظهرا على وجهها معاً على أن الانفة والرزانة منعتاها من اظهار البغتة فقالت ومن انبأك بهذا النسب وكيف خفي عنك الى الآن

قال لذلك حديث طويل سأقصه عليك في غير هذا المكان واذا كان الخاتم لا يكفيك فانظري الى هذا الرداء وكشف عباءته عن برد النعمان وكان تحت أثوابه فنظرت اليه فلما تحققت نسبه عظم في عينيها ولكن الاستغراب غلب عليها وهي تحسب نفسها في حلم

ثم سمعا وقع أقدام من ناحية القصر فنظرا واذا بوالدتها قادمة فاسرع حماد الى الخاتم فخبأه وطلب الى هند كتمان الحديث الان . أما هي فبرغم رزانتها وتعقلها ودت ان تطلع والدتها على ذلك الخبر

أما سعدى فانها جاءت مسرعة وفي وجهها خبر

فنظرا اليها وهما يتوقعان خبراً فقالت لقد أطلت الغياب عليكما لاشتغالي برسول قدم من عند الملك جبلة ومعه هذا الكتاب ودفعت الكتاب الى هند

ففضته فاذا هو من والدها يقول فيه « هل عرفتم شيئاً عن ولدنا حماد وهل وفى نذره فاني أحب ان أراه قبل سفري الى الامبراطور فقد انفذ اليَّ رسله بالذهاب اليه لمهمة سأقصها عليكم عند الاجتماع »

فقالت سعدى اكتبي اليه أنه جاء وقد وفى النذر

فقال حماد أرى ان أسير الى والدي واجيء به ليتشرف بمعرفة الملك جبلة ايضاً

قالت حسناً تفعل فعادوا الى القصر وكتبوا الى جبلة بذلك على أن يكون مجيئه في الغد

وكانت المائدة قد أعدت فتناولوا الطعام وركب حماد الى دير بحيراء

الفصل الرابع والعشرون

كل سر جاوز الاثنان شاع

وأما هند فما زالت تفكر بما سمعته من حماد عن نسبه وأدركت والدتها فيها تغيراً ظاهراً على وجهها يدل على شيء في نفسها تكتمه فلما كان المساء ذهبت هند الى فراشها فجاءتها سعدى واخذت تجاذبها أطراف الحديث حتى باحت لها بالسر فلم تكن سعدى اقل استغراباً من هند وحسنت لها أن تطلع والدها على ذلك

فلما جاء جبلة في ضحى الغد انبأته بالخبر وكانت تتوقع منه ارتياحاً واستحساناً ولكنها رأت انقباضاً فندمت هند على تصريحها بالسر وخافت ان يترتب على ذلك ما يسوءها وكان خوفها في محله . لان جبلة ما لبث منذ سمع ذلك الخبر منقبض النفس غارقاً في بحار التأمل لعلمه أن حماداً اذا تزوج هنداً سيكون وريثه في الملك اذ ليس له ذكور يرثونه فاذا كان حماد من عامة الناس بقي الملك باسم الغساسنة ولكنه رأى بعد ما علمه من انتسابه الى المناذرة ان الملك سيخرج به من الغساسنة الى المناذرة فيكون قد سعى الى زوال ملكه . فارتبك في أمره فلم يعد يعلم ماذا يعمل وود لو انه زوج هنداً لثعلبة ابقاء

للحكم في عائلته ولـكنه كتم ذلك كله وتظاهر باستغراب ما سمعه

أما هند فكانت تراعي والدها وتراقب حركاته وتنظر الى مايبدو منه وقد انقبضت نفسها وأسفت اسفاً شديداً لما فرط منها

وفيما هم في ذلك سمعوا قرقعة اللجم وصهيل الخيل عند باب الحديقة فاطلوا واذا بحماد وفارس آخر عرفوا انه والده فخرجوا لاستقبالهما فلما وقع نظر حماد على جبلة همَّ بتقبيل يده فمنعه وتعانقا وتقدم عبد الله الى جبلة فصافحه وتعارفا ودخلوا جميعاً الى قاعة الجلوس واخذوا في الاحاديث المتنوعة الا حديث النذر فانه لم يدر بينهم أبداً

فقالت سعدى لجبلة قلت لنا في كتابك ان الامبراطور هرقل انفذ يدعوك اليه فما الذي دعاه الى ذلك

قال دعاه اليه اضطراب في جو السياسة أوجب اهتمامه في التأهب للحرب عاجلا فبغت الجميع واستعاذ حماد بالله وخاف أن يحول ذلك بينه وبين هند الى أجل بعيد فقال وما هو ذلك الاضطراب يا عماه ؟

قال لقد انبأنا الجواسيس ان الحجازيين الذين جاؤونا منذ بضع سنين على ما تعلم وعادوا عن مؤتة خاسرين قد استفحل أمرهم واتسع سلطانهم وتوفي نبيهم وخلفه بعض أصحابه فجند جنداً كبيراً انفذه لقتالنا ولا يلبث ان يصل الينا قريباً فبعثت الى هرقل بذلك فارسل يستقدمني اليه في حمص [1] للمخابرة بشأن التجنيد وقد قيل لنا ان حملتهم هذه المرة ستكون أصعب مراساً من الماضية وقد جاؤوا فرقاً يقودهم أعاظم القواد

فقال عبد الله سمعنا انفاذ ذلك الجند الى العراق لحرب الفرس وليس للشام

قال ذلك جند آخر بعثوه الى العراق في العام الغابر أما الآن فهم عاملون على التجند الينا

فقال حماد هل يرى سيدي العم أن غيبته ستطول هناك

قال لا أدري مقدار طولها ولـكنني أظنها طويلة

---

(١) ابن الاثير

قال نسير اذاً في خدمتك

قال لا أرى حاجة الى ذلك والاولى ان تبقيا في بصرى ريثما أعود أو أبعث اليكما . أما سعدى وهند وسائر أهل هذا القصر فيسيرون معي خوفاً عليهم من غائلة العدو وهم في هذا الخلاء

فلما سمعت هند ذلك خفق قلبها وكادت الدموع تتناثر من عينيها وقد أدركت ان والدها يضمر السوء لحماد

أما حماد فلم يكن أقل وجلاً وهو لا يعلم ما في نفس عمه وظنه لم يعلم بحقيقة نسبه أو حدث ما يوجب نفوره ولكنه استعظم فراق هند بعد أن كاد يظفر بها على أثر ما قاساه من المشقة والبلاء في سبيلها

أما عبد الله فادرك ان في الامر شيئاً جديداً أوجب هذا التباعد ولولا ذلك لم يكن ثمت ما يمنع مسيرهم معه حيثما سار فخامره شك في كتمان حماد فنظر اليه بطرف خفي ففهم حماد مراده فانتبه انه اخطأ باطلاع هند على ذلك السر

وشاركتهم في هذا الاحساس سعدى لانها أعلم الناس باخلاق زوجها فقالت له ألا ترى أن نسير جميعاً معاً وما الفائدة من بقاء حماد هنا

قال بل أرى بقاءه هنا وسأخبرك عما يمنع ذهابه معنا . قال ذلك وفي كلامه غنة الجفاء فسكتت وسكت الجميع

ثم آن الغداء فتغدوا والسكوت سائد عليهم جميعاً فلما نهضوا أمر جبلة أن تعد الركائب لمسير زوجته وابنته معه في ذلك اليوم فشق ذلك على عبد الله ونفر من جبلة لما اتفق له معه في المقابلة الاولى . وعوَّل على تحويل عزم حماد عن هند كأنه لم يدر بما في قلبه من لواعج الغرام وقد فاته أن الحب يتعاظم بنسبة ما يعترضه من العقبات

فاستشار عبد الله حماداً في الانصراف فاجابه اليه رغماً عنه ووقفا فتقدم حماد الى عمه وودعه وهو يكاد يشرق بدموعه وودعه عبد الله . وسار حماد الى سعدى وهند يودعها وكانتا قد خلتا وهند تبكي وتنتحب ووالدتها تخفف عنها وتلتمس الاعذار لما ظهر من جفاء والدها . فلما سمعت وقع أقدام حماد

خرجت هي فودعته واعتذرت عن هند أنها تشكو من صداع ألمَّ بها حتى ابكاها

فادرك حماد أنها شعرت مثل شعوره وترجح لديه أنها باحت بالسر ولم يلم الا نفسه لانه لم يوصها بكتمانه . فقال والدمع يتلألأ في عينيه دعيني أرى هنداً قبل ذهابي وان تكن باكية . وكانت هند قد استعدت للقائه فمسحت دموعها وحاولت اخفاء ما بها وخرجت الى حماد وهي تتجلد ومدت يدها وتجلد هو ايضاً فودعها مبتسما وتحت ابتسامه غيظ يكاد يميزه ثم ودع سعدى وخرج فلاقي عبد الله في الحديقة ينتظر قدومه فركبا وحماد يلتفت وراءه يودع القصر وأهله وهو غارق في لجج الهواجس فسارا مدة صامتين لا يفوه أحدهما بكلمة وكل منهما يفكر في أمر وحماد يراجع في ذهنه حوادث ذينك اليومين ويتحرق ندماً لما باح به من أمر نسبه وشعر بخطأه نحو عبد الله لانه لم يطعه في كتمانه فظل صامتاً يتردد بين الخجل والفشل

أما عبد الله فلم يبق عنده شك بتغير جبلة وفساد ما بنوه وضياع ما أملوه ولكنه لم يذكر ذلك لحماد رفقاً بعواطفه وعول على ان يثنيه عن عزمه فيما بعد

الفصل الخامس والعشرون

ان الله مع الصابرين

فلما دنوا من الدير قال عبد الله أرى يا سيدي أن نقيم في الدير أو نذهب الى بصرى

قال لك الامر ولكنني أرى بصرى أفضل لنا بعد ما سمعناه من حملة العرب الحجازيين

قال الامر اليك وخرجوا نحو الدير فباتوا فيه تلك الليلة على أهبة الانتقال الى بصرى ولم ينم حماد الا قليلا لكثرة ما تراكم عليه من الهواجس

فلما أصبحوا أخذوا يستعدون للركوب فذهب عبد الله لوداع الراهب وظل حماد وحده يشتغل في بعض المهام وكان الوقت ضحى وفيما هو ينظر الى خارج الغرفة رأى امرأة تنظر اليه فعرفها انها الجارية التي رافقت هنداً الى الصومعة يوم التقى بها المرة الاولى هناك فبغت لرؤيتها وهرول اليها

فقالت له أتعرف بائع الحلى

فقال نعم وصلت

فدفعت اليه منديلاً كان في يدها وتحولت راجعة

فقلب المنديل بين يديه فاذا هو رسالة قد كتب فيها « لا يضعف عزمك ما رأيته البارحة من والدي واصبر ان الله مع الصابرين » فعلم انها رسالة من هند فارقت أسرته وانفرجت كربته وطوى المنديل وخبأه ولكنه ودّ لو يعلم اين هي فيسير اليها يقيم بقربها يتنسم أخبارها فتذكر ان والدها سائر الى حمص لمقابلة هرقل فقال في نفسه لا أظنه يحمل أهله معه الى هناك فربما خلفهم في البلقاء . وكان يفكر في ذلك وهو يتظاهر بالاستعداد للمسير فجاء عبد الله فركبا وسارا الى بصرى واقاما في منزل بقرب السور عال مشرف . فتذكر عبد الله يوم ثعلبة وموقفه أمام رومانوس (روماس) حاكم بصرى وما كان من أمر الخاتم ولكن ثعلبة ضعف أمره وخرج من بصرى فاقام في بعض القبائل الغسانية . ورومانوس ما زال حاكما هناك . وكان حماد قلقاً على هند لا يهدأ له بال . ومما زاد الحالة ثقلاً عليه لومه نفسه لاباحته بنسبه وقد عرف قيمة نصائح عبد الله وتحقق ان الاختبار والمعاشرة تكسب المرء علماً وحكمة لا يدركهما بمجرد الذكاء الطبيعي ومال بكليته الى استشارة عبد الله في ذهابه الى البلقاء وشعر بحاجته الى سلمان لانه كان له به غنى عن تجشم تلك المشاق بنفسه . ثم أجفل بغتة وخاف اذا استشار عبد الله ان يشير عليه بترك هند وهو لا يستطيع ذلك ولا تسهل عليه مقاومته بعد ان اختبر صدق نصائحه فسكت وسلم الامر لله

أما عبد الله فكان يتجاهل عن كل ما يشاهد على حماد من القلق ويدعوه

حيناً بعد آخر الى الخروج للصيد كما كانا يفعلان أول مجيئهما تلك الديار وكان حماد يسير معه لعله يوغل في البرية فيقف على قادم أو غاد فيطلع منه على خبر هند أو والدها ولم يكن عبد الله يفاتحه في خبرها الا عرضاً في أثناء كلامه عن قوات الروم ونحو ذلك فاذا آنس من الحديث اقتراباً من الموضوع تباعد عنه وهو يتوقع ان يفتر ميل حماد من تلقاء نفسه وكان حماد اكثر رغبة عن الخوض في ذلك الموضوع لئلا يسمع نهياً أو نصحاً يبعده عن هند

فقضيا اشهراً على تلك الحال وهم لا يسمعون الا باستعداد الروم لدفع المسلمين وان جند المسلمين وصلوا ضواحي الشام وأقام بعضهم في اليرموك وكان حماد كلما سمع خبراً من هذا القبيل ازداد قلقاً حتى لم يعد يصبر على البقاء في بصرى ومال الى الخروج منها الى البلقاء لعله يعرف شيئاً عن هند . وعبد الله يشاغله تارة بالصيد وطوراً بزيارة رومانوس صاحب بصرى وكان رومانوس قد عرف منزلة عبد الله على اثر ما كان بينهما من أمر تسيير عبد الله الى هرقل وما لاقاه من العفو هناك . فكان يجتمع برومانوس وحماد معه ويخرج احياناً الى الراهب فيزوره ويدعوه الى زيارته . أما الناسك فسارا اليه مرة فلم يجداه

الفصل السادس والعشرون

حصون بصرى

ففيما هما ذات يوم في ضواحي بصرى يطلبون الصيد قال حماد أرى ان الصيد قليلاً في هذه النواحي لوعرتها وقلة المرعى فيها ألا ترى ان نسير الى البلقاء لعلنا نعثر على صيد كثير

قال عبد الله ان الصيد يكثر احياناً ويقل احياناً اما اذا شئت الذهاب الى البلقاء فالامر اليك

قال ارى في الانتقال خيراً

وفيما هما يتحادثان رأيا سرباً من الغزلان قادماً من عرض البر لم يريا مثله

قبلاً فبغتا فقال حماد ما هذه الغزلان اني أراها تطلبنا وذلك لم يتفق لي منذ طلبت الصيد

فقال عبد الله ان مثل هذه الكثرة تدل على أمر خطير

قال وماذا عسى أن يكون ذلك

قال لا يجتمع هذا العدد منها ويسير في جهة واحدة الا فراراً من جند قادم فلعل جنداً من العرب قادم الى بصرى . قال ذلك وصعدا الى ربوة اشرفا منها على سهول بعيدة فرأيا غباراً يتصاعد عن بعد فقال عبد الله لقد صدق ظني

فقال حماد اظنها جنود المسلمين قادمة لحصار بصرى فياليتنا خرجنا منها قبل الآن

قال عبد الله اذا لم يكن لنا بد من ملجأ في هذه الديار خوفاً من المسلمين فان بصرى أحسن المدن وامنع الحصون واسمها يدل عليها فان لفظها في الكلدانية معناه الحصن المنيع (١) ألم تر سورها من الحجر الصلد الذي لا تقطعه المعاول ولا تهدمه المجانيق (٢) وقد رأيت أبوابها فان منها يخرج اثنا عشر الف فارس دفعة واحدة عند الاقتضاء فالمسلمون اذا فتحوا بصرى هان عليهم فتح سواها فتربصنا داخل اسوارها خير لنا من الخروج الى البلقاء أو غيرها . وزد على ذلك أن أهل بصرى أشداء وهم اكثر الناس حرصاً على دينهم وأشدهم دفاعاً عن مدينتهم فانها أعظم مراكز التجارة بين الشرق والغرب لتوسطها بين الحجاز والعراق والشام ومصر (٣)

فبغت حماد وعظم عليه الامر وعلم أن امر هند لا بد من تأجيله طوعاً أو كرهاً وهب انه عزم الى البلقاء أو دمشق فان جبلة وقبائل غسان وجنود الروم أصبحوا في شاغل يشغلهم عن كل شيء ولكنه أراد ان يتحقق قوة جند الروم ليرى قدرتهم على الدفاع فقال وهو يدير رأس جواده نحو بصرى وعبد الله يتبعه وما هي قوات الروم في الشام وكم مدينة مثل بصرى عندهم ؟

قال عبد الله اعلم يا سيدي أن ولاية سوريا أو هي ولاية الشام تقسم الى

(١) قاموس فورست (٢) ميريل (٣) جبن ج ٢

١٥ قسما أحدها بصرى [١] وقوات الروم كبيرة وعدتهم كثيرة ولكنهم شغلوا عن دينهم بدنياهم واستولى عليهم الانقسام . وما زالوا في هذا الحديث حتى وصلوا المدينة فرأوا أهلها في هرج والجند في حركة يستعدون للدفاع فدخلوا الاسواق فرأوا الناس مجتمعين مثنى وثلاث ورباع يتساءلون عن الجند القادم وامارات الاستخفاف ظاهرة على وجوههم

فقال عبد الله هلمَّ بنا الى منزلنا فانه في مكان عال يشرف على الاسوار وما وراءها

فسارا وقال حماد ما قولك برومانوس حاكم بصرى هل هو خائف أم مستخفٌ

فقال عبد الله لا أظنه خائفاً وعنده مثل هذه الحصون وهذه القلاع فضلا عن العدة والرجال ولكنني أظن الولاية ستخرج من يده الى وال آخر جاء منذ أيام اسمه تراجان (دبرجان) وهو بطل محنك وقد سمعت الناس يتحدثون بنفور بينهما وليس هذا وقت التنافر

الفصل السابع والعشرون

رومانوس وتراجان

وما زالا في الحديث حتى وصلا المنزل فاطلا من بعض نوافذه فاذا بالغبار قد بان عن جند كثيف تتقدمه الاعلام والفرسان

ولم يكد يظهر جند العرب حتى تسابق الناس الى الاسوار ينظرون اليهم وهم يهزأون بهم وبالبستهم وسذاجة معداتهم وبعد قليل جاء رومانوس فوقف في بعض الابراج ونظر الى جند العرب وقال لمن حوله من الضباط لا نرى ان نقفل ابواب بصرى امام هذا الجند الضعيف ولكننا نخرج اليهم فنحاربهم في هذا السهل ونردهم على أعقابهم . وأمر بالجند ان يعسكروا خارج الاسوار مقابل معسكر العرب [٢]

---

(١) جبن ج ٣ (٢) الواقدي

فلما رأى عبد الله هذا التهور خاف العاقبة لما يعلمه من بطش العرب وصبرهم على القتال وكانت له على رومانوس دالة كما تقدم فلما علم بعزمه على الخروج بالجند حدثته نفسه ان ينصح له ان لا يفعل فسار اليه وحماد معه وقد علم انه توجه الى دار حكومته

فلما وصل الدار رآها غاصة بالجماهير من رجال الحكومة وكلهم راضون عن رأي رومانوس ولكنه لم يرَ تراجان بينهم فلما رأى اجماعهم على ذلك علم أنهم لن يصغوا الى كلامه فرأى ان يخاطب تراجان بالامر فسأل عنه فقيل له انه في منزله فسار اليه وكان قد عرفه واجتمع به مراراً فاستأذن بالدخول عليه فاذن لهما فدخلا فاذا بتراجان مقطب الوجه فلما دخل عبد الله رحب به تراجان وكان يعرف العربية فجلس وجلس حماد الى جانبه

فقال تراجان هل تعرفون هؤلاء الحجازيين

قال عبد الله لقد عرفناهم وحضرنا حروبهم غير مرة

فقال وكيف رأيتموهم

قال رأيناهم أشداء صبورين لا يبالون بالعدة ولا بالكثرة

قال ألا ترون الخروج اليهم خطأ

قال عبد الله بلى يا مولاي وهذا ما جئنا به اليك فكيف تخرجون اليهم فتعرضون جندكم لنبالهم وسيوفهم وقد كان لكم غنى عن ذلك بهذه الحصون المنيعة

فتنهد تراجان وقال هكذا اراد رومانوس وقد نصحت له فلم ينتصح وكأني به يلقي بجند الروم الى التهلكة

فقال عبد الله أليس من سبيل الى اقناعه

قال كلا لانه عنيد معتد بنفسه وسيكون فشله عظيماً واذا فشل فاذا يكون دمه على رأسه . قال ذلك وهو يلاعب صليباً من الذهب معلقاً بسلسلة في عنقه

فآنس عبد الله في كلام تراجان لهجة الشماتة فسكت وودعه وخرج وحماد معه فلما خرجا قال حماد ما ترى من امر هؤلاء اني اخاف ان تعود

العائدة على هذه المدينة فيصيبنا ما يصيب أهلها

قال وما العمل يا سيدي أنخرج الى المسلمين

قال حماد كلا ان خروجنا خيانة

قال ارى ان نتربص لنرى ما يكون من حربهم

وساروا حتى أتيا المنزل وكان الليل قد سدل نقابه فاطلا على معسكر العرب فاذا بهم قد نصبوا الخيام واوقدوا الوقود ونصبوا الاعلام

فقال حماد ومن هو يا ترى أمير هذه الحملة ألعله خالد بن الوليد

قال ان خالداً في العراق على ما علمت ولكن الامراء غيره كثيرون

الفصل الثامن والعشرون

فتح بصرى

وباتوا تلك الليلة والجند يستعد للخروج وفي الصباح افاقوا على دق الاجراس (١) واذا بالجند خارج وفيهم اثنا عشر الف فارس والقسس امامهم بالصلبان والنباخر(٢) فسار عبد الله وحماد الى الاسواق فرأوا الناس يسرعون الى الكنائس يقيمون الصلاة باليونانية (٣) ويدعون لجندهم بالنصر وصعد الكهنة على الاسوار بالصلبان والشموع ورشوا الجند بمياه المعمودية واخذوا يرنمون وينشدون الاناشيد المسيحية وفيهم الرجال والنساء والاولاد يدعون بصوت واحد بالنصر لجند الروم

أما جند العرب فكان قائده شرحبيل بن حسنة كاتب وحي النبي وجهه عبيدة بن الجراح في أربعة آلاف فارس لفتح بصرى وكان عبيدة

(١) جبن (٢) الواقدي (٣) وكانت خدمة الصلاة في سائر كنائس المشرق اذ ذاك باليونانية واما لغة رجال الحكومة واعيان المملكة فكانت اللاتينية ولغة الشعب اللغة الوطنية أو اليونانية (جبن)

قائداً عاماً لجنود المسلمين في الشام ولاه القيادة العامة الخليفة ابو بكر الصديق

فوقعت بين الجيشين عدة وقائع ظهر فيها الرومانيون في بادىء الرأي ولم يعجب عبد الله لنصرة الروم لما يعلمه من كثرة عددهم

ففي ذات يوم التحم الجيشان فظهر الرومانيون واختل أمر المسلمين حتى كادوا يعمدون الى الفرار وعبد الله يراقب حركاتهم وحماد الى جانبه واذا بغبار يتصاعد من جهة الافق وبان من تحته جند عرفوا من نوع نظامه وشكل أعلامه أنه جند المسلمين فعلموا أنها نجدة جاءتهم ولم يلبثوا ان رأوا في مقدمة ذلك الجند رجل ضخم عريض اللحية طويل القامة تخفق فوق رأسه راية سوداء وهو خالد بن الوليد فاشتد أزر المسلمين واعادوا الكرة فتقهقر الروم حتى دخلوا الاسوار واقفلوا ابواب المدينة فاتى تراجان رومانوس راجعاً فذكره بنصيحته فغضب رومانوس لشماتته به

فلما علم عبد الله بما تمكن من النفور بين القائدين خاف سوء العاقبة

وفي صباح اليوم التالي برز خالد يطلب النزال فنزل اليه رومانوس والناس ينظرون اليهما وما يأول اليه نزالهما وبعد براز طويل عاد كل منهما الى معسكره فدخل رومانوس بصرى وعلى وجهه ما يدل على تغير في مقاصده وقد فترت همته عن الدفاع فلاحظ ذلك فيه الذين يعرفون اخلاقه وأما عبد الله فاجتمع بحماد وقال أني خائف من هذا الرومي فوالله لا يلبث أن يسلم المدينة لأني رأيت من مطاولته في النزال ما يوقع الشبهة فيه

فقال حماد ولقد سمعت من بعض أصدقاء تراجان اليوم أنه جادل رومانوس ووبخه وشمت به لما آل اليه خروجه فشق ذلك على رومانوس وتوعده بشر ينوبه وقال له اذا كنت افرس مني نازلهم فاجابه تراجان وشتمه وعلا الخصام بينهما وتحزب رجال الروم بعضهم لرومانوس وبعضهم لتراجان وتوعدوا رومانوس بالقتل واتهموه بالخيانة وقالوا له لا نرضاك حاكماً علينا وقد ولينا تراجان فسكت ولم يجبهم وعلامات الغدر ظاهرة على وجهه ولكنه قال فلينزل هو ونرى بطشه

فلما أصبحوا نزل تراجان على جواده بعدته وسلاحه وطلب المبارزة فخرج اليه فارس علما من لباسه وكبر جثته انه خالد بن الوليد فطال النزال بينهما والجيشان ينظران وكان على رؤوسهم الطير فقضى معظم النهار ولم ينل أحدهما الآخر بشر فرجع كل منهما الى معسكره (١)

فلما رجع تراجان الى المدينة اسرع النـاس للقائه وسؤاله عما لقي من عدوه وكان أول من لاقاه رومانوس وقد نظر اليه مستهزئاً ضاحكاً كأنه ينتقم منه لشماتته به قبلا فانتهره وعيره بانه مخلوع فقال رومانوس سترى من هو المخلوع منا وتركه ومضى

وكان عبـد الله وحماد ينظران الى ما دار بينهما فلما رأيا من رومانوس ما رأياه وسمعا تهديده خافا فقال عبد الله لقـد زاد خوفي الآن من مقاصد هذا الرومي فلا اظنه الا فاعلا شراً

فقال حماد وما شأننا في ذلك

قال عبد الله أنما يعنينا من الامر المحافظة على حياتنا مخافة ان يدخل العرب المدينة فيصيبنا منهم سوء ولا ناقة لنا في الدفاع ولا جمل . ألا تظننا كنا آمن على حياتنا لو اقمنا في دير بحيراء

قال حماد وكيف نكون آمن هناك والدير لا حصن فيه ولا جند ونحن الآن في امنع مدن الشام (٢)

قال لم أقل ان الدير احصن من بصرى ولكنني علمت ان خليفة هؤلاء المسلمين لما خرج لوداعهم يوم تسييرهم الى الشام اوصاهم بالرهبان والديور خيراً فهم لا يسيئون راهباً ولا يخربون ديراً

فقال حماد لو ذكرت لي ذلك لفضلت البقاء في الدير ولكن السهم قد نفذ ونحن الآن في بصرى وهي في ما نراه من الحصار فما الرأي

ففكر عبد الله قليلا ثم قال ان سر المسألة يا سيدي عند رومانوس هذا فلو استطعنا استطلاع شيئاً منه لعلمنا طريق النجاة فارى ان اسير اليه الليلة لعلي أتنسم خبراً

---

(١) الواقدي (٢) جبن ج ٢

قال حسناً تفعل

وقضيا بقية يومهما في المنزل وبعد العشاء سار عبد الله الى دار رومانوس وبقي حماد وحده ولم يمض القليل من الليل حتى عاد عبد الله وعلى وجهه ملامح البغتة

فقال حماد ما وراءك

قال لا أظن الامر الا عظيماً فاني سألت عن رومانوس فقيل لي انه نائم فلم اصدق انه ينام الآن فخرجت استطلع خبره من بعض الحرس فعلمت انه خرج الى حيث لا يعلم احد ويخال لي انه سار ليدبر مكيدة يسلم بها المدينة و . . . .

فقطع حماد عليه الكلام قائلاً أجل أظنه سيفعل ذلك لان هذا القصد كان ظاهراً على وجهه فما الحيلة

قال لا حيلة لنا يا سيدي الا التربص الى الصباح فاذا تحققنا عزمه على ذلك دبرنا حيلة ننجو بها بانفسنا

وباتا تلك الليلة على مثل الجمر

وفيما هما نائمان بعد نصف الليل سمعا طارقاً يطرق الباب فهبّا من رقادهما مذعورين فسألا من الطارق فسمعا صوتاً يقول افتحا اني انا خادمكما سلمان

فهرول عبد الله للحال ففتح الباب والبيت مظلم فاذا برجل عليه لباس اهل الحجاز وفي يده مصباح فبغتا لمنظره ولكنه ناداهما اني عبدكما سلمان لا تخافا ورفع العمامة عن رأسه فبان وعرفاه فصاح به حماد أين كنت يا سلمان وما الخبر

قال جئت من معسكر خالد ولا يلبث هو ورجاله ان يستولوا على الاسوار فجئت لاعلمكم بالامر لتكونوا على بصيرة وهذا علمٌ من اعلام المسلمين انصبوه على باب منزلكم لتأمنوا من سيوفهم اذا دخلوا المدينة

فقال عبد الله بورك فيك أيها الصديق الامين فدخلوا جميعاً وأوصدوا الباب وسأله حماد ان يقص عليهم الخبر فجلس وهو يلهث من التعب والبغتة

وقال اخبركما بالاختصار ان رومانوس صاحب بصرى خرج الى معسكرنا في هذا المساء من مكان في السور خرقه غلمانه فاعتنق الاسلام وقال لخالد بن الوليد ارسل معي من تعتمد عليه لتسليم المدينة فارسل معه عبد الرحمن بن ابي بكر ومئة من المسلمين فجئت انا معهم فادخلنا من خرق في السور واخذ الامير عبد الرحمن ورجاله الى قصره ليسلحهم ويسير بهم لقتل تراجان وقال انه مناظر له في الحكم وكنت لما جئت مع جيش خالد كما سأخبركما سألت الراهب الشيخ عنكما فاخبرني انكما مقيمان في بصرى ودلني على هذا المنزل فهرولت اليه لاعلمكما بجلية الخبر وأتيت بهذا العلم انصبه فوق الباب حماية لكما وبعد قليل تسمعان تكبير المسلمين على اسوار المدينة من كل جهاتها وهي علامة بينهم وبين الجند خارجاً فيهجم الجميع وتكون مذبحة هائلة

فانثنيا على همته فترامى هو على يد حماد فقبلها وقال لقد وددت لو تكونوا معي في معسكر هؤلاء الحجازيين اتروا ما رأيته من شجاعتهم وصبرهم واتحاد كلمتهم على ان خالداً وجنده لو لم يصلوا بصرى الآن لذهب جند شرحبيل ايدي سبا وارتدوا عن المدينة خاسرين فقد كانوا في شدة وضنك لقلتهم وكثرة الروم

فقال عبد الله وهل خالد وحده من القواد العظام

قال سلمان وفيهم ايضاً عبد الرحمن ابن خليفتهم ابي بكر وهو الذي جاء معنا لاستلام المدينة وغيره جماعة كبيرة من الاسرى والقواد . ولقد رأيت من حروبهم وبطشهم في العراق ما سأقصه عليكما ان شاء الله

فهم حماد ان يسأله عما فعله خالد في العراق فسمعوا الضوضاء والضجيج وبين الاصوات صوت التكبير

فقال سلمان ان المسلمين الآن على الاسوار وعما قليل يفتح أولاد رومانوس أبواب المدينة فيدخلها المسلمون فالبثا هنا لنرى ماذا يكون . فما لبثوا أن سمعوا ضجيج الناس وبكاء النساء والاطفال فتحركت الشفقة في قلوبهم وثارت الحمية في رؤوسهم ولكنهم لا يستطيعون الخروج خوفاً على حياتهم فما طلع النهار

الا وقد فتح المسلمون بصرى واعملوا بها السيف ثم سكنت الغوغاء بعد قتل تراجان وتسليم أهل بصرى

ففتح سلمان الباب وخرجوا الى شرفة من شرفات المنزل تطل على الشارع فرأوا جثث بعض القتلى هناك بين ميت ومنازع وقد تلطخت الاثواب بالدماء والمسلمون قد توغلوا في المدينة وامتلكوها ولكنهم لم يقربوا منزل عبد الله لوجود العلم على بابه

وفيما هم في الغرفة ينتظرون ما تنتهي اليه حال بصرى وقد اطمأن بالهم سأل سلمان حماداً عما تم من أمر هند فاخبره بجلية الخبر وكيف شغلتهم الحرب عن الاقتران وعبد الله يسمع ويتجاهل حتى انتهى الى عودهم من صرح الغدير بخفي حنين وحاول حماد اذ ذاك أن يبين لسلمان ان عمه جبلة أصاب بذلك وانه لا يزال على حبه واعتباره وعبد الله لا يجيب ولا يعترض

أما سلمان فتكدر لهذا التغيير وقال وما هو موعد الاقتران يا مولاي

قال حماد لما تنتهي الحرب ويرجع جبلة وأهله الى البلقاء

قال ومن يعلم متى يكون ذلك

قال الله يعلم

قال أتعلم أين هم الآن

قال اظنهم في البلقاء

قال سلمان لا أظنهم هناك فقد انبأنا جواسيس العرب أن جبلة سار برجاله الى اليرموك لنصرة جند الروم في حرب المسلمين ولا يلبث جند خالد بعد قليل أن يذهب الى هناك لنصرة المسلمين فاذا كان جبلة في اليرموك لا أظنه يترك أهل منزله في البلقاء وهي عرضة لغزوات العرب

فقال حماد وما ظنك به اذاً

قال أظنه يرسلهم الى دمشق ومع ذلك فاني أرى ان أسير مع خالد حتى آتي اليرموك وابحث عن جبلة وأهله واعود اليكم بالخبر أو لعلي اعود اليك برسالة من هند . قال ذلك وتبسم كأنه يريد أن يعبث بحماد فاجابه حماد بمثل ابتسامه وهو ينظر الى ما يبدو من عبد الله فاذا به في شاغل عنهم ينظر من نافذة

الغرفة الى الشارع والاهتمام ظاهر على وجهه وسمعا قرقعة اللجم وضوضاء الناس فالتفتا الى ما هو ناظر اليه فاول ما وقع نظرهما على راية سوداء تحتها جند من العرب في وسطهم بعض الفرسان وفي مقدمتهم فارس كبير الجثة عريض اللحية طويل القامة بعيد ما بين المنكبين واسع الهيكل كبير العمامة واسع العينين كثيف الحاجبين على وجهه أثر الجدري [١] وقد ركب على جواد أشهب خفيف العضل يتنقل بمشيته كالعروس ويكاد الشرر يتطاير من حدقتيه ووراءه فرسان حولهم الاعلام وهم فرحون بما اوتوه من النصر فالتفت سلمان الى عبد الله قائلاً أعرفت من هو هذا الفارس

قال عبد الله قد عرفته من يوم كان في وقعة مؤتة وكنت انا أسيراً عندهم أليس هو خالد بن الوليد

قال بلى هو بعينه انظر الى هذه القامة وتلك الطلعة أن خالداً يا مولاي من معجزات خلق الله لم أرَ ولم اسمع بمثل شجاعته وشدة بطشه فلا غرو اذا سموه سيف الله لقد رأيت منه اعمالاً تعجز عن فعلها الابطال في حروبه بالعراق وسمعت من اخباره ما تشيب لهولها الاطفال فقد كان قبل اسلامه هو المقدم على خيل قريش في الجاهلية فاسلم في السنة الثامنة للهجرة مع عمرو بن العاص ولم يزل منذ اسلم يوليه الرسول اعنة الخيل في مقدمتها [٢] وقد علمت ان في عمامته خصلة من شعر النبي يتبرك بها . وقد شهد وقعة مؤتة بالبلقاء وعلى اثر ما اظهره من البسالة هناك سماه الرسول سيف الله [٣] ثم كان عوناً عظيماً للمسلمين في كل حروبهم حتى تولى ابو بكر فانفذه الى فتح العراق كما علمتم

فقال عبد الله وما هذه الراية السوداء

قال سلمان هذه راية ذات شأن عظيم عندهم ويقال لها راية العقاب

فقال حماد لم تخبرنا بما فعله المسلمون في العراق هل فتحوا المدائن ودخلوا عاصمة الفرس

فقال سلمان لو بقوا هناك لفعلوا ذلك ولكن خليفتهم استقدمهم لنجدة

(١) الواقدي (٢) أسد الغابة (٣) السيرة الحلبية

الشام ولولا قدوم خالد على بصرى لما استطاع شرحبيل فتحها فقد وصلنا اليهم وهم في شدة وجهد وضيق

الفصل التاسع والعشرون

فتح الحيرة

فقال حماد اخبرنا يا سلمان عما فتحه خالد من العراق وكيف رأيت حال الفرس

قال اما خالد فانه من اعظم القواد وخيرتهم وقد لقيته في الحيرة يوم فتحها وكان قبل ذلك قد استولى على بلاد كثيرة بلا حرب لان العراقيين قد ملوا من حكومة الفرس وظلمهم وعتوهم واحتقروهم لاختلال امورهم . فاول مكان وصل اليه خالد بلاد بانقيا وبازوسما والليس فصالحه اهلها على عشرة آلاف دينار سوى حوزة كسرى وهي فريضة كان يقتضيها الفرس عن كل رأس اربعة دراهم . ثم ساروا الى الحيرة وعليها اياس بن قبيصة كما تعلمون (قال ذلك وتنهد) فانه تولاها بعد ما قضى الله من امر مولانا رحمه الله (فتنهد حماد وعبد الله وهما صامتان يسمعان حديث الحيرة) فقال سلمان لم يكد يصل خالد الحيرة حتى خرج اليه اياس وسائر أشراف حكومته كأنهم كانوا منه على موعد فاستقبلهم كما يستقبل الغالب المغلوب ودعاهم الى الاسلام او الجزية او الحرب فاختاروا البقاء على النصرانية ودفع الجزية فبلغت جزيتهم تسعين الف درهم وقد اخبرني بعض رجال خالد ممن يقرأون له القرآن انها اول جزية اخذها المسلمون من الفرس . ثم تحولوا عن الحيرة وحاربوا الفرس في عدة مواضع وفازوا في اكثرها ومما فازوا فيه وقعة الثني ووقعة الولجة ووقعة أليس [1] كل ذلك قبل وصولي

اما انا فلما ودعتكم سافرت الى الحيرة فوصلتها والناس يتحدثون بما تم من صلحها واهلها بين راض بالصلح وناقم على اياس وخصوصاً الفرس منهم

---

(١) ابن الاثير

فقد سمعتهم يتذمرون وكاتبوا بذلك كسرى ابرويز وكان يتولى عرش الاكاسرة اذ ذاك وشكوا ما كان من ضعف ابن قبيصة فانفذ جنداً بقيادة رجل من مرازبته اسمه الازاذبه لمحاربة العرب فوصل الجند وانا في الحيرة وكان خالد قد برحها الى بلاد اخرى يلتمس الفتح ثم سمع الازاذبه بقدومه فخرج اليه وعسكر عند الغريين وخرجت انا معهم وعلم ان خالداً ورجاله قادمون بالسفن بالفرات فارسل ابنه ليقطع الماء عنهم فوقفت السفن على اليبس فتركها خالد وخرج برجاله على الخيل حتى قتل ابن الازاذبة وتقدم خالد نحو الحيرة

ومن غريب الاتفاق اننا بينما نحن في الغريين وصل ساعي البريد من المدائن يحمل كتاباً الى المرزبان فلم يكد يفتحه ويقرأ ما به الا وقد تغير لونه واستولى عليه الجزع فخاف كل من رآه ولم نعلم ما دعاه الى ذلك الا في اليوم التالي اذ شاع في المعسكر أن كسرى ابرويز قد مات فوقع الاضطراب في الجند وانشغل الازاذبه واضطرب ثم جاءه الخبر بمقتل ابنـه وتقدم العرب نحوه فتقهقر نحو الحيرة وعسكر العرب عند الغريين

اما انا فلما رأيت اختلال الفرس قلت في نفسي لقد آن الوقت الذي فيه أستطيع القيام بالمهمة التي جئت لاجلها فخرجت من الحيرة في ليلة ليلاء حتى اتيت معسكر العرب فالتمست الامان وان ارى الامير خالداً فاخذوني اليه فطلبت الخلوة به فخلونا فقلت اعلم ايها الامير ان حال الفرس في اختلال لموت ملكهم وانقسامهم فيما بينهم فقد صالحك ابن قبيصة وهو على صلحك مع سائر العرب وأما الفرس فهم في شاغل عن الحرب بارتباك داخليتهم واطلعته على خفايا كنت عالماً بها فسرّ بي كثيراً واثنى عليّ فقلت في نفسي هذه فرصة اغتنمها لحفظ ما لمولاي هناك من الاموال والعقار وكنت قد تفقدت المزارع فرأيت الجميع في انتظار عود الامير عبد الله فطيبت خاطرهم وقلت لهم أني إنما اتيت الحيرة لتفقد حالهم وأوصيتهم بالعناية في استغلال الارض . فلما آنست من خالد ارتياحاً الى خدمتي التمست منه حماية تلك المزارع فوعدني . وقبل هجومهم على الحيرة اخذت علماً مثل الذي نصبته هنا وبعد قليل هجم المسلمون

على المدينة ففتحوها فظللت في معية خالد حيثما ذهب

ويسرني ان اخبركم بان سقوط الحيرة كاد يقضي على دولة الفرس كلها لان الدهاقين وهم ولاة الفرس كانوا ينتظرون ما يكون من حرب الحيرة . فلما علموا بسقوطها وهنت عزائمهم فجاؤوا وصالحوه وسلموا اليه فاخذ الجزية منهم وكتب الى اهل فارس يدعوهم الى الاسلام ويهددهم بالقتال . فلم يكن يمر يوم لا نرى الناس قادمين زرافات ووحداناً وخصوصاً عرب العراق وهم النصارى . وبعد قليل سار خالد وانا معه ففتح الانبار ثم عين التمر وغيرهما وقد لحظت منه انه لم يتجرأ على المسير الى المدائن قبل الاستعداد الكافي

وفيما هو في ذلك ورد عليه كتاب من الخليفة ابي بكر يأمره بالذهاب الى الشام لنصرة جند العرب على فتحها فجئت انا معه حتى اتينا بصرى وهي محاصرة وانا لا اعلم مقركما فخطر لي ان اسأل راهبنا الشيخ فاخبرني بمقامكما هنا فتربصت حتى تم الفتح كما قدمت

وكان عبد الله وحماد صامتين يصغيان لما يقصه عليهما سلمان فلما انتهى الى هناك قال حماد وما ظنك بتتمة فتح العراق فان خالداً لم يفتح منها شيئاً كثيراً والمدائن لا تزال على ما هي والفرس لا يزالون حاكمين

قال رويدك يا سيدي ان العرب لا يلبثون أن يعيدوا الكرة وأظنها تكون القاضية وخالد لم يأت بصرى الا مدداً لجند الشام فطب نفساً ان الله سيتم انتقامه من أولئك الطغام

فقال عبد الله وما العمل الآن

قال سلمان أرى يا سيدي ان ابقى انا مع خالد كما كنت فاسير معه الى اليرموك فقد سمعت ان العرب معسكرون هناك يتوقعون قتالا شديداً وسيسير خالد لنجدتهم

فقال حماد واين اليرموك

قال هي على مقربة منا غرباً على نهر يقال له نهر اليرموك يصب في نهر الاردن وقد عسكر العرب عند مائه

فتنهد حماد وفي نفسه شيء يكتمه

فادرك سلمان أنه يفكر في هند وجبلة فقال ولا بد من أن يكون جبلة مع جند الروم اذا جاء اليرموك فلا أعدم وسيلة استطلع بها مقر هند فابعث اليكم بخبرها

فقال حماد ألا ترى ان نسير جميعاً مع خالد

فقال سلمان لا أرى حاجة الى ذلك بعد ان أوعز اليك جبلة بالاقامة هنا ربما يبعث اليكم فلعله يفعل ذلك وانتم بعيدون عنها فتفوت الفرصة وأما اذا سرت انا وبقيتما انتما هنا فنكون قد امسكنا الحبل من الطرفين

أما عبد الله فظل ظامتاً وحماد ينظر اليه فادرك انه غير راض عن كلام سلمان فقال ما رأيك يا والداه

فقال عبد الله الرأي رأيك يا سيدي ولكنني أرى جبلة واهل منزله لا يهمهم شيء من امرنا اقمنا في بصرى أم رحلنا عنها يدلك على ذلك سكوتهم عنا وقد اصاب بصرى ما اصابها من الحرب ولولا ذلك لبعثوا يفتقدوننا

فقال حماد ولا نظنهم علموا بما آلت اليه حالتنا وهب انهم علموا فكيف يستطيعون الوصول الينا والمدينة محاطة بالعدو

فلما رأى حماداً يدافع عن جبلة قال لعل لهم عذراً وسكت

ثم خرج سلمان الى معسكر خالد ليرى ما تم عليه الامر فرأى العرب قد ولوا رومانوس بصرى (١) واخذوا يستعدون للسير فعاد فاخبر عبد الله وحماداً بذلك وهمَّ بوداعهما فقال له حماد لا ارى ان اوصيك بانفاذ خبر جبلة الينا على عجل واطلاعنا على ما تم لاهل بيته واين هم

قال سمعاً وطاعة وسيأتيك الخبر سريعاً ثم ودعهما وخرج

ولم يكن سلمان اقل من حماد قلقاً على هند وقد شارك عبد الله في ارتيابه من جبلة فعول على استطلاع كنه الامر وانفاذ ذلك الى سيده وفي اليوم التالي اقلع خالد وشرحبيل وجنداهما الى اليرموك

---

(١) الواقدي

الفصل الثلاثون

وقعة اليرموك

ولما تكامل جمع المسلمين في اليرموك بلغ عددهم ٣٦ الفاً منهم تسعة آلاف بقيادة خالد فيهم الف من الصحابة من جملتهم مئة ممن شهدوا وقعة بدر الكبرى [١] ومن قوّادهم ابو عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وشرحبيل وابو سفيان بن حرب وكانت الحرب بينهم وبين الروم قبل قدوم خالد تسانداً اي كل امير على اصحابه لا يجمعهم أحد [٢]

وكان ابو بكر قد ولى خالداً القيادة العامة على جند الشام كافة والناس يحسبون أبا عبيدة بن الجراح اولى منه بتلك القيادة فوقع بين المسلمين اختلاف من هذا القبيل فلما جاءهم خالد حاول جمع كلمتهم وقد ادرك ما في نفوس بعضهم فوقف في الجماهير وقد اجتمع الامراء حوله وقال « ان هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي أخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم فان هذا يوم له ما بعده ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية وانتم متساندون فان ذلك لا يحل ولا ينبغي وان من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما تؤمروا به بالذي ترون انه رأي من واليكم ومحبته » قالوا « هات فما الرأي » قال « ان ابا بكر لم يبعثنا الا وهو يرى أنا سنتياسر ولو علم بالذي كان ويكون لما جمعكم ان الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من امدادهم ولقد علمت ان الدنيا فرقت بينكم فالله الله فقد افرد كل رجل منكم ببلد لا ينتقصه منه ان دان من الامراء ولا يزيده عليه ان دانوا له . ان تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم هلموا فان هؤلاء قد تهيؤوا وان هذا يوم له ما بعده ان رددناهم الى

(١) ابن الاثير (٢) الواقدي

خندقهم اليوم لم نزل نردهم وان هزمونا لم نفلح بعدها فهلموا فلنتناوب الامارة فليكن بعضنا اليوم والاخر غداً والاخر بعد غد حتى تتأمروا كلكم ودعوني اتأمر اليوم » فأمروه وهم يرون انها كخرجاتهم وان الامر لا يطول (١)

فعجب سلمان لجسارة خالد وحزمه ولكنه اخذ منذ وصوله يحاول الخروج الى معسكر الروم ليرى جبلة أو يسمع خبراً عن هند فصعد الى ربوة على ضفة ذلك النهر ونظر الى معسكر الروم فرآه قد ملأ الفضاء وفيه الرايات والصلبان فأمعن نظره فيه فرأى معسكر الغسانيين منفصلاً الى جانب وشاهد راية جبلة وفسطاطه في وسطه فحدثته نفسه ان يسير اليه ولكنه خاف أن يستغشه المسلمون اذا رأوه فيوقعوا به شراً فرأى أن يذهب اليهم بحيلة الجاسوسية فعوّل على أن يخاطب خالداً في ذلك فسار الى فسطاطه فرأى الامراء تتزاحم فيه وقد اجتمعوا للمفاوضة في امر الحرب فهاب الدخول مخافة أن يسمع انتهاراً فصبر حتى ارفض الجميع وبقي خالد وحده فالتمس الدخول عليه فاذن له فدخل وقبل يده فقال خالد ما خبرك قال هل يأذن لي مولاي بكلمة لعل فيها نفعاً

قال قل

قال هل بعثتم من يستطلع أخبار العدو ويسبر قوّاتهم ومواقعهم وعدد جندهم

قال لقد فعلنا ولكنني أرى انك أجدرهم بذلك

قال اني عبد مطيع فاذا رأيت أن اسير في الامر فعلت

قال سر وافعل

فقبّل يده وخرج فيزيّ الغسانيين وسار حتى اختلط بالغسانية فالتقى بأناس عرفهم في البلقاء فظنوه كان معهم من ذي قبل فاستطلعهم خبر هند فعلم انها مع والدها في دمشق ثم استخبر عن قوات الروم فعلم انهم في كثرة وفيهم عشرون راية بعضها لاهل الدولة وبعضها للتجندات من الارمن (٢) والسريان والمصريين وان جملة الجند ٢٤٠ الفاً ما عدا العرب المتنصرة من الغساسنة

(١) ابن الاثير (٢) الواقدي

وغيرهم (١) فوقعت في نفسه من ذلك رهبة وخاف انتصار الروم وتردد في الرجوع الى خالد ولكنه قال في نفسه اذهب الآن الى المسلمين فاذا رأيت فيهم تضعضعاً فررت الى الغساسنة

فلما سدل الليل نقابه عاد الى معسكر المسلمين واطلع خالداً على حال الروم فقال خالد لا يهمنا أمر كثرتهم فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله

فقال سلمان ليست القوة في الكثرة يا مولاي ولكنها في الاتحاد فقد علمت ان هؤلاء الجند منقسمون فيما بينهم لاختلاف أغراضهم ومشاربهم . ثم ودعه وخرج وهو يفكر في طريقة يوصل بها خبر هند الى حماد

فلما أصبح الصباح سمع التكبير والاذان في معسكر المسلمين وقد قام الناس وقعدوا وأخذوا يتأهبون للقتال فوقف ينظر الى كيفية نظامهم فرأى خالداً قد وقف في وسط الأمراء وامر ان تنظم الجيوش كراديس فقسم الجند ٣٦ كردوساً وجعل قلب الجند كراديس وأقام فيه أبا عبيدة وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان وجعل على كل كردوس رجلاً من الشجعان . وفيما خالد يعبي الجند على هذه الصورة سمع بعضهم يقول ما أكثر الروم وأقل المسلمين فقال خالد بل قل ما اقل الروم واكثر المسلمين انما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان فوالله لوددت أن الاشقر (يعني فرسه) براء من توجيه وانهم أضعفوا في العدد وكان الاشقر قد حفي في مسيره . ثم امر ان يبدأوا القتال فحاذر سلمان أن تصيبه نبلة فتنحى وهو خائف ان تعود العائدة على المسلمين لقلتهم وكثرة الروم فوقف في منعطف يؤدي الى جند الغساسنة فرأى على مقربة منه رجالاً من جند المسلمين وقوفاً فتأملهم فرأى بينهم ابا سفيان وكان قد عرفه في بعض أسفاره مع سيده عبد الله الى الحجاز فتذكر ما كان من حديثه في بيت المقدس وكان قد رآه يوم اعتناقه الاسلام عند فتح مكة فاستغرب وقوفه هناك والحرب منشبة فدنا منه واذا ابو سفيان

---

(١) ابن الاثير

لا يراه فسمعه يخاطب رفقاءه فيقول « يا مشيخة قريش ومهاجري الفتح (وهم الذين هاجروا يوم فتح مكة واسلموا) لا يهمنا من هذه الحرب الا الانحياز الى الغالب فاذا غلبت الروم كنا معهم واذا انتصر المسلمون فاننا معهم»
فعجب سلمان لكلامه وعلم انه انما أسلم خوفاً على حياته لا رغبة في الاسلام ولكنه ظل في ريب من هذا الامر فاصاخ بسمعه لما يقوله بعد ذلك فرآه اذا تقهقرت العرب وتقدم الروم قال « ايه يا بني الاصفر » (يعني الروم) واذا مالت الروم وتقدمت العرب قال « ويح بني الاصفر » [1] ولم يكد أبو سفيان يتم كلامه حتى صاح بأعلى صوته آه فنظروا واذا بنبلة أصابت احدى عينيه ففقأتها فقال سلمان في نفسه لقد نال هذا الرجل جزاءه . وخاف سلمان البقاء هناك لئلا يصاب بنبلة فسار الى ناحية أخرى والحرب قد حمي وطيسها فرأى بريداً قادماً من جهة البلقاء فعرف صاحبه وكان قد عرفه في الحجاز فعلم انه بريد قادم من المدينة بخبر جديد فتفرس سلمان في صاحب البريد فرآه مسرعاً وعلى وجهه امارات البغتة فناداه فوقف فقال سلمان هل تريد الامير خالداً قال نعم أين هو قال في المعمعة ولكنني أوصلك الى فسطاطه فسارا معاً وعينا صاحب البريد على الجند وحركاته فلما رأى جند العرب ظافراً لم يتمالك ان قال « ألم يكن مقدوراً لابي بكر ان يسمع بخبر هذا النصر قبل موته » قال سلمان وهل مات أبو بكر

قال نعم مات وانا انما جئت بخبره

قال سلمان ومن تولى بعده

قال تولى عمر بن الخطاب وهو رجل ذو بطش وقوة وحزم

فبغت سلمان لذلك الخبر وقال ألا تظن وفاته تؤثر شيئاً في مجرى الاحوال

قال كلا ولكن عمر يفضل أبا عبيدة على خالد وقد أنفذني بعزل خالد عن قيادة هذا الجند وتولية أبي عبيدة على انني لا أرى ان ابلغهم الخبر قبل انقضاء الواقعة لئلا يفشلوا او يختلفوا فيما بينهم . فقال سلمان حسناً تعمل فقل لي ما الذي حمل الخليفة عمر على نقل القيادة الى أبي عبيدة ألعله أشجع من خالد

---

(١) ابن الاثير

قال كلا ولكن ابا عبيدة رجل كريم الاخلاق لين سهل حليم رؤوف وهو اقدم في الاسلام من خالد والقيادة تحتاج الى حكمة وتأن اكثر من حاجتها الى الشجاعة

قال سلمان نعم ولكنني علمت ان النبي سمى خالداً (سيف الله) أليس هو احق بالقيادة . قال ولكنه (صلعم) سمى ابا عبيدة « امين الامة » وكان يحب صحبته والالتصاق به [1] والحق يقال ان كليهما فرد ولكن للخليفة رأياً في ذلك فانه ساخط على خالد بسبب حكاية وقعت منه في ايام ابي بكر

فقال سلمان هلم بنا نجلس في مأمن ريثما تنقضي الحرب لانهم اذا رأوك لا ينفكون عن سؤالك حتى تخبرهم بموت ابي بكر وعزل خالد

فاستحسن صاحب البريد الرأي وعرج مع سلمان الى شجرة تواريا وراء جذعها فأخذ سلمان يستفهمه عن موت ابا بكر وولاية عمر

فقال صاحب البريد لما احس مولانا الخليفة ابو بكر بدنو الاجل واسفاه عليه دعا كاتبه عثمان بن عفان وقال له اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد ابو بكر بن ابي قحافة الى المسلمين اما بعد .... » ثم اغمي عليه وكان عثمان وسائر الصحابة لا يرون احق في هذه الخلافة من عمر بن الخطاب لاشتهاره بالعدل والحزم فأتم الوصاية عثمان من عند نفسه فكتب « اما بعد فقد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً » ثم افاق ابو بكر من غشيته فقال لعثمان اقرأ فقرأ ما كتبه فكبر ابو بكر وقال « اراك خفت ان يختلف الناس ان مت في غشيتي هذه » قال « نعم » قال « جزاك الله خيراً عن الاسلام واهله » ثم قرأوا هذا العهد على الناس ولما قبض ابو بكر بايعوا عمر وهو الان خليفة خليفة رسول الله وقد سموه امير المؤمنين تخلصاً من تكرار لفظ خليفة لمن يتولى الخلافة بعده

وفيما هما في الحديث واعينهما شاخصة نحو المعركة رأيا جند الروم قد تقهقر وعبر العرب خندقهم واستولوا على اسلابهم وفر الروم ومن نصرهم من العرب المتنصرة وغيرهم وتم النصر للمسلمين ولم تمض الا القليل حتى عاد المسلمون بالغنائم من الاثاث والحلي والاسلحة وغيرها . فمشى سلمان وصاحبه نحو

(١) اسد الغابة

فسطاط خالد فرآه قاعداً وحوله الامراء على غير نظام لما دار بينهم من احاديث النصر . فلما وقع نظر خالد على صاحب البريد عرفه فبعث اليه فتبعه الى الفسطاط فاذن بدخوله فدخل وانبأ خالداً بموت ابي بكر وخلافة عمر وعزله وولاية ابي عبيدة فأوصاه خالد بكتمان الخبر عن كل انسان (٢)

اما سلمان فانه عاد الى مشاغله بأمر هند وشق عليه انهزام جبلة وخاف ان يكون قد قتل ثم علم ببقائه حياً فمال بكليته للذهاب الى حماد يطلعه على ما علمه عن هند ولكنه اراد استطلاع نية المسلمين ووجهة مسيرهم قبل ذهابه فقضى اياماً يبحث عن ذلك فعلم انهم عازمون على دمشق فخاف على هند لعلمه انها فيها وود لو يعلم اين والدها وما هو عازم عليه بعد شخوص العرب الى الشام فعول على استطلاع ذلك من جبلة وقد علم بانهزامه فخرج من معسكر العرب يبحث عن جهة مسيره فقيل له انه سار في جملة منهزمي الروم الى حمص والامبراطور هرقل فيها فقصد حمص

الفصل الحادي والثلاثون

خبر مفاجىء

تركنا حماداً وعبد الله في بصرى ينتظران عود سلمان بخبر اليرموك ومقام هند . وحماد كثير القلق لا يرتاح له بال على هند وقد حدثته نفسه بشر اصابها او بفشل يتهدده على اثر ما قاساه في سبيل الحصول عليها من الاسفار والاخطار وتهيأ له انها خرجت من يده وذهبت مساعيه كلها ادراج الرياح فعظم عليه الامر فآنس في نفسه ميلا الى المسير اليها واستطلاع ما في نفسها من قبله ولكنه لم يكن يعرف مقرها فلبث ينتظر رجوع سلمان بالخبر اليقين

وكان يتلاهى بالخروج للصيد ونحوه وهو لا يهدأ له بال وادرك عبد الله فيه ذلك وهو يتجاهل وينتظر ان ينفر حماد من هند ويلتمس العدول عنها من تلقاء نفسه . وقد فاته قول القائل

---

(١) ابن الاثير وابن خلدون

واذا تألفت القلوب على الهوى فالناس تضرب في حديد بارد

فكان يصاحبه الى الصيد ويكثر من محادثته في شؤون مختلفة الا مسألة هند فانه لم يكن يفتحها قط . ولم تمض أيام حتى سمعا بانهزام الروم في اليرموك فصارا يتوقعان سرعة رجوع سلمان

ففي ذات يوم نهض حماد صباحاً واخذ يتأهب للخروج الى الصيد وفيما هو يفتش بين أثوابه وسلاحه عثر على الدرع التي ألبسته اياها هند يوم السباق ولم يكد ينظر اليها حتى اختلج قلبه لما مر في ذاكرته من حوادث الحب فعظم عليه احتباسه في بصرى لا يعلم مقرّ حبيبته مع ما ظهر له من جفاء والدها وفتور والده (عبد الله) وما قام من الحروب مما زاد الامر اشكالا . فوقف برهة ينظر الى الدرع ويقلبها بين يديه وهو غارق في بحار الهواجس حتى غلب عليه اليأس وكادت الدموع تتناثر من عينيه وكان عبد الله غافلا أو متغافلا عن ذلك وقد خرج لقضاء حاجة له وترك حماداً في الغرفة وحده

فلم يكد حماد يخلو بنفسه حتى سمع صهيل جواد غير جواده وغير جواد عبد الله فانتبه بغتة واطل من النافذة فاذا راكب ترجل ودنا من الباب وهو في ريب من امر اهله فأمعن حماد نظره فيه فلم يعرفه فلاقاه الرجل بالباب وقال هل هنا منزل الامير عبد الله العراقي

قال حماد نعم هو هنا

قال وأين ابنه الامير حماد

قال هو انا ماذا تريد

قال ان بعض الناس في حاجة اليك ينتظرونك في دير بحيراء

فلما سمع حماد ذكر الدير خفق قلبه واستبشر بقدوم القادم فقال للرسول اني سائر الى هناك على عجل فودعه وركب وعاد حالا

فاسرع حماد في لباسه قبل ان يأتي عبد الله ولكنه لم يكد يخرج حتى لقيه عبد الله فاستغرب ركوبه قبله فاعتذر بأنه يود الخروج لزيارة الدير وحده فاذعن له وهو في ريب من الامر

فهمز حماد جواده ولم يقف الا امام باب الدير فرأى هناك فرساً عرف

أنه من افراس اهل صرح الغدير فاستبشر ودخل الدير يتطاول بعنقه ويحدق بعينيه فرأى امرأة عرفها لاول وهلة أنها من خادمات هند وهي التي حملت اليه الرسالة الاولى قبل ذهابه الى بصرى

فحيته وهمت بتقبيل يده فرد السلام ولسان حاله يقول قولي ما خبرك . فمشت امامه الى غرفة هناك فتبعها فلما وصلا الغرفة مدت يدها الى أثوابها واستخرجت منديلا دفعته اليه وهي تقول ان سيدتي هنداً تسلم عليك وقد ارسلت اليك هذا المنديل . فقلب المنديل بين يديه فاذا فيه كتابة كتبت بالدم بالاحرف النبطية وهي قولها « لم نكد نفرح بنجاتنا من ذلك الثعلب حتى عاد الى مصاحبة والدي وعاد الى مطلبه الاول وانت تعلم ان الموت اهون مراساً عليَّ من ذلك فادركني قبل فوات الفرصة فاني مقيمة في دمشق ولعل حامل كتابي ان يزيدك ايضاحاً » فلم يفرغ من قراءة هذه الكلمات حتى ارتعدت فرائصه والتفت الى المرأة يستطلعها الخبر فقالت ان مولاتي هنداً مقيمة في دمشق في منزل قرب كنيسة مريم وقد بعثتني بهذا الكتاب واوصتني بان اسلمه اليك يداً بيد في هذا الدير فبعثت الرجل حتى أتى بك من بصرى وهنا هو الكتاب

قال نعم قد قرأته ولكنني لم افهم حقيقة المراد فهل ثعلبة الآن في دمشق ؟

قالت كلا بل هو مع سيدي جبلة في جند الروم بحمص

قال وما الذي جمعه بالامير جبلة وقد كنت اعلم انهما متخاصمان

قالت نعم انهما متخاصمين ولكنهما تصافيا بعد انكسار جنودهما في واقعة اليرموك

فقال حماد وكذلك يتصافى العدوّان اذا اصيبا بسوء معاً . وماذا جرى بعد ذلك

قالت وكنا مقيمين في دمشق مع سيدتي هند ووالدتها وسائر الحاشية كما ذكرت لك فلم ندر الا وكتاب وارد من سيدي الامير جبلة الى سيدتي الاميرة سعدى ينبئها بقرب قدومه مع ثعلبة الى الشام لعقد اقترانه على هند في اثناء

مهادنة العرب فلم تتمالك سيدتي عند تلاوة الكتاب عن ان تخبر هنداً به فاسرت سيدتي هند اليّ واقعة الحال وبعثتني في هذه المهمة وأوصتني أن القي اليك الامر كما وقع لتتدبر في انقاذها فانها تفضل الموت على الاقتران به

فلما سمع حماد ذلك الحديث ثارت الحمية في رأسه واتقدت نيران الغيرة في قلبه وودّ لو ان له أجنحة ليطير الى دمشق حالا ولكنه لبث برهة يفكر ثم قال للمرأة وأين ثعلبة الآن

قالت هو مع سيدي جبلة بجوار حمص ولكنني أظنه أقلع قاصداً دمشق

فازداد قلقاً وأخذ يخطر في الغرفة ذهاباً واياباً ثم قال لها ارجعي الى سيدتك واخبريها اني قادم اليها على عجل وربما وصلت دمشق قبلك

قالت وماذا يؤكد لها اني لقيتك وقصصت عليك الخبر ألا تذكر لها علامة تبين لها ذلك

ففكر قليلا ثم قال قولي لها ان صاحب البرد والخاتم قادم اليك وهذا يكفي

فودعته وركبت وركب الخادم ورجعا

أما هو فوقف يفكر في حاله مع عبد الله وتردد بين أن يعود الى بصرى فيخبره بجلية الخبر أو ان يسير توًّا الى دمشق فلبث برهة في حيرة حتى خاف أن تفوته الفرصة فذهب الى غرفة الراهب الشيخ فاذا هو متكئ فحياه فرحب به وسأله عن أمره فقال لقد جئتك بوصية أرجو أن تبلغها الى الامير عبد الله

قال وما ذلك

قال اذا لقيته قل له اني سرت الى دمشق لامر هام وسأعود اليه فاذا استبطأني فليدركني هناك

قال سأفعل ذلك ان شاء الله

وودّعه حماد وخرج على جواده قاصداً دمشق

الفصل الثاني والثلاثون

هند في دمشق

فلنترك حماداً سائقاً فرسه الى دمشق ولنذكر ما تم لهند بعد سفرها من صرح الغدير فقد تركناها بعد وداع حماد حائرة منقبضة النفس وقد خافت ذهاب آمالها ادراج الرياح لما آنسته من جفاء والدها على أثر ما سمعه عن نسب حماد . فلم يكد يتوارى حماد عن عينيها حتى أحست بانخلاع قلبها فانزوت في غرفتها وعادت الى البكاء وكان والدها في شاغل بأمر أهل القصر بالاستعداد للمسير في صباح الغد فجاءت سعدى الى غرفة هند وقد أدركت حالها وتوقعت بكاءها فاخذت تطيب قلبها وتؤاسيها بالوعود وهند لا تزداد الا بكاءً فقالت سعدى لا يفيدنا البكاء يا ولداه وانما نحن في موقف حرج لا بد لنا فيه من الحكمة فاصبري وتبصري عسى ان تكون العاقبة خيراً

فتنهدت هند وصاحت بها « دعيني يا أماه لقد كفاني ما قاسيته من انواع الشقاء وما سمعته من الوعود فقد كان عذركم في رفضه جهلكم نسبه ثم قبلتموه على غموض نسبه فما بالكم وقد علمتم بشريف أصله تترددون أليس ذلك لسوء حظي وللشقاء الذي كتبه الله علي » قالت ذلك وأوغلت في البكاء فبكت سعدى لبكائها ولكنها تجلدت وطيبت خاطرها وقالت لها اسكتي لئلا يسمع والدك صوت البكاء فيزيد الخرق اتساعاً أما انا فاني ضامنة لك ما تريدين فان حماداً لك وأنت له فلا تجزعي وأخذت تخفف عنها حتى سكن روعها ومسحت آماقها ولبثت صامتة وقد ذبلت عيناها وتعكرتا وتكسرت اهدابهما وأخذت تراجع في ذاكرتها ما مر بها من الاهوال بسبب الحب وكيف كانت قبل ذلك السباق خالية الذهن ساذجة لا تعرف متاعب الهوى وكانت تتعزى بما ترجوه من لقيا الحبيب ولكنها تذكرت انه خرج من الصرح منقبض النفس منكسر القلب ... ذلك الكتاب الى دير بحيراء تلتمس صبره

وفي اليوم التالي سافر أهل الصرح جميعاً الى البلقاء فاقاموا هناك الا جبلة فانه سار الى الامبراطور هرقل في حمص فامره باعداد الرجال من غسان وغيرهم وكان ثعلبة قد ضعف أمره وأهمله جبلة لما قام بينهما من الضغائن بعد وفاة الحارث ولكنه أصبح بعد ما عرفه عن نسب حماد ميالاً الى مصافاة ثعلبة لعله يتزوج هنداً فينجي ملكه من الخروج الى المناذرة . فلما احتاج الى الرجال من غسان اضطر الى استقدام ثعلبة فكتب اليه فجاء برجاله وانضم الى رجال جبلة وهما على ظاهر القتور ثم علم جبلة بقدوم المسلمين الى اليرموك وبصرى فخاف على أهله في البلقاء فاستقدمهم الى دمشق واسكنهم بيتاً مع نساء بعض أصدقائه من رجال الروم هناك بقرب كنيسة مريم . واشتغل هو في حرب اليرموك وغيرها . فلما قضي على جنده بالانهزام في وقعة اليرموك شعر بزيادة الميل الى مصافاة ابن عمه ثعلبة وذلك طبيعي في جسم العمران بل هو جار في سائر انواع الحيوان فاذا رأيت ديوكا في منزلك تخاصم وتضارب وقد عسر عليك مصافاتها اجمعها في قفص وامنع الطعام والماء عنها فلا تلبث ان تراها قد اصطحبت وتصافت . كذلك الناس فانهم لا يزالون في خصام ونفار حتى يصيبهم سوء ويقعوا جميعاً في مصيبة واحدة فتراهم قد تآلفت قلوبهم واغضوا عن السوابق . فلما أصيب الغساسنة في اليرموك اجتمع جبلة وثعلبة للنظر في أحوال الجند وكان ثعلبة قد ذاق مرارة الجفاء وصغرت نفسه فلما رأى من ابن عمه مؤانسة وتقرباً زاده رقة واستئناساً فاجتمع قلباهما . ولم تطل المصافاة حتى جرتهما الى حديث الاقتران فتعاتبا وتشاكيا لما مر من الجفاء بينهما فاعتذر كل منهما أعذاراً انتحلها لنفسه وكان ثعلبة اكثرهما سروراً بذلك لأنه أصبح بعد موت والده ضعيفاً مرذولا . وقد علم انه اذا تزوج هنداً كان الوارث الوحيد لرئاسة غسان جميعاً وكان قد درس أخلاق عمه جبلة وعرف أميال قلبه فتظاهر بما ينطبق على نياته حتى حبب اليه مصاهرته ووعده بهند

أما جبلة فانما حمله على مصاهرة ثعلبة استبقاء الحكومة في بني غسان وانقاذها من المناذرة ولولا ذلك لما رأى في ثعلبة ما يقربه منه أو يفضل به حماداً

فلما تحقق ثعلبة رضاه عمه عنه سأله عن يوم الاقتران فقال جبلة أرى ان يكون بعد انقضاء الحروب بيننا وبين المسلمين

فقال ثعلبة ولكن تلك المدة لا حدَّ لها يعرف وما أدرانا متى تنقضي وكيف يرتاح بالنا وأهل البيت مقيمون في دمشق ونحن لا نستقر على حال فاذا رأى عمي أن نتعجل الاقتران كان ذلك أقرب الى جمع الشمل

فاجابه جبلة الى مرامه وكانا بجوار حمص بعد وقعة اليرموك فكتب جبلة الى سعدى ينبئها بنتيجة ما دار بينه وبين ثعلبة وبين الوجه الذي حمله على اختياره دون حماد فقال « وفي زواج هند بثعلبة نستبقي الملك في الغساسنة ونخلصه من من خطر الوقوع بين أيدي المناذرة » وأوصاها بالتأهب لعقد الاقتران قريباً ولم تتم سعدى قراءة ذلك الخبر حتى تناثرت الدموع من عينيها لما تخشاه على هند اذا علمت بما نواه والدها وأعادت تلاوة الكتاب بتمعن فادركت سبب تغير زوجها على حماد وندمت على ما فرط منها من اطلاعه على حقيقة نسب حماد وشعرت انها هي السبب في كل هذه المتاعب فرأت انها مطالبة شرعاً بانقاذ ابنتها من مخالب ثعلبة فضلاً عما في نفسها من الاحتقار له فأخذت تفكر في طريقة تصل بها الى ذلك والوقت ضيق لا يأذن بالصبر والتؤدة وكانت هند تلاحظ فيها ارتباكا وتسألها عن السبب فتتجاهل وما زالت سعدى في مثل ذلك يومين كاملين حتى خافت فوات الفرصة فرأت أخيراً ان تستقدم حماداً على عجل وهند لا تعلم فاذا حضر شاورته في الامر . فكتبت الى حماد الكتاب الذي تقدم ذكره بحبر من الدم استحثاثاً له على القدوم وبعثت الكتاب مع خادمة يعرفها حماد كما تقدم

الفصل الثالث والثلاثون

حصار دمشق

ولم يتوار حماد عن بصرى حتى أدرك صعوبة المسير الى الشام وحده وهو لم يطرق تلك البلاد الا قليلاً . وأقرب الطرق بين هاتين المدينتين تمر في

حوران واللجا وكلا الصقعين وعر خطر وهناك طرق أخرى تختلف بعداً ووعورة فلم ير بداً من اصطحاب الدليل فاختار دليلاً من سكان بصرى فسار شمالا يقطع الجبال والاودية والسهول والغابات لا ينام الاقليلا ولكنه تاه مرة فاضاع يوماً كاملا حتى اهتدى الى الطريق وبعد بضعة ايام اشرف صباحاً على غوطة عظيمة وقد استقبلها بوجهه والشمس من ورائه فظهرت له ظهوراً واضحاً فاذا هي بساتين واسعة الاطراف فيها الاغراس من المشمش والرمان واللوز والموز والبرتقال والخوخ والسفرجل والكرم وسائر أصناف الفاكهة تجري بينها الانهار وتتناغى فوقها الاطيار وظهر له من وراء تلك الغوطة أبنية توارت وراء الغبار . فوقف ينظر الى ما حوله وقد تعب جواده فسأل دليله عن تلك الابنية وهذه الغيطان فقال انك يا مولاي في غوطة دمشق المشهورة بغياضها وبساتينها ومياهها وما تلك الابنية التي تتبدى لك من وراء الغوطة الا دمشق الفيحاء مقر والي الروم

فقال حماد وما هذا الغبار الذي يكاد يحجب المدينة عنا

قال لا أدري ما هو لعله غبار جنود الروم وقد خرجوا للسباق أو هو غبار جنود المسلمين فقد بلغني بالامس من بعض القادمين من جهات اليرموك أن المسلمين لما غلبوا الروم هناك عزموا على دمشق ولا يبعد أنهم جاؤوها وحاصروها

فاستعاذ حماد بالله وخاف ان يكون كلام الدليل صواباً فيمتنع عليه الدخول الى المدينة وربما وقع في أيدي المسلمين أسيراً ولا يدري ما يحيق به منهم فتذكر سلمان لاحتياجه اليه في تلك الحال وندم لمجيئه منفرداً ولم ير لديه من يستشيره ويعتمد عليه غير ذلك الدليل وكان الدليل شاباً من عرب الغساسنة المقيمين في بصرى وهو في العشرين من عمره يتكلم العربية واليونانية فقال له حماد أتعرف دمشق وهل دخلتها قبل الآن

قال أعرفها جيداً وقد اقمت فيها اياماً وكثيراً ما جئنا مع والديَّ لوفاء النذور أو الصلاة في كنيسة ماري يوحنا المعمدان

فقال حماد وهل تعرف كنيسة مريم

قال نعم أعرفها فانها في شارع مستقيم طويل يقطع المدينة من طرفها الشرقي الى الطرف الغربي أي من الباب الشرقي الذي يستقبلنا عند أول وصولنا المدينة الى الباب المقابل له في الطرف الآخر منها في الغرب ويقال له باب الجابية

فاستبشر حماد باصطحاب هذا الدليل ليستعين به في الوصول الى منزل هند فاخذ يتلطف في معاملته ويسترضيه بالاكرام والهدايا وهو يزداد رغبة في خدمته وبعد أن وقفا برهة ركب حماد وسار الدليل في ركابه وسارا في الغوطة والاشجار تظللها . ولم يسيرا قليلا حتى غابت المدينة عنهما ثم أشرفا على مرتفع أطلا منه على سهل امام دمشق فرأيا الخيام والاعلام والخيول والرجال قد ملأت ذلك الفضاء

فامعن حماد نظره فاذا هي أعلام المسلمين وخيامهم وتحقق ذلك مما شاهده وراءها من مرابض الجمال ومساكن النساء فايقن بعرقلة مساعيه وعلم انه لن يستطيع الدخول الى دمشق وخاف المسير الى معسكر العرب لئلا يستغشوه فيلحقوا به ضرراً فوقف حائراً لا يدري ماذا يعمل وفيما هو يهم باستفهام الدليل عن سبيل يدخل به المدينة سمع قرقعة لجم ووقع حوافر خيول على الحصى في جدول جف ماؤه بين الاشجار فاوجس خيفة وحوّل عنان جواده نحو الصوت وتهيأ للدفاع وأمر الدليل فانحدر بين الاشجار يتشوف من خلالها ويصيخ بسمعه فلم يكد يقف هنيهة حتى سمع صوتاً يناديه باسمه فخفق قلبه لاستئناسه بذلك الصوت فاجابه للحال « من أنت » ثم أدرك أنه صوت الامير عبد الله ولكنه استبعد أن يراه هناك وعهده به مقيم في بصرى ثم ما لبث أن رآه قادماً على جواده ووراءه فارسان عربيان فتحقق انه هو بعينه وأحس بانفراج الازمة واستغرب مجيئه فاذا بعبد الله قد ترجل وضم حماداً وقبله

فقال حماد ما الذي جاء بك يا ابتاه

قال جئت لحراستك يا مولاي وقد علمت من الراهب الشيخ انك شخصت الى الشام فاسرعت اليك لعلمي بما قد تلقاه من العراقيل في سبيل الدخول اليها وقد صادف ظني محله وشكرت الله لمجيئي لاني رأيت العرب محدقين بالمدينة وقد حاصروها حصاراً شديداً ولولا سابق معرفتي بخالد بن

الوليد لما تمكنت من خدمتك وقد مضى علي يومان أطوف هذه البقاع ومعي هذان الفارسان نتوقع وصولك لنسير بك الى خالد وقد أمنا ووعد بحياطتنا

فشكر له حماد وأثنى على غيرته وسأله عن حال المدينة فقال انها في حصار شديد لا يدخلها ولا يخرج أحد منها . وأنت ما الذي جرك الى هذه المخاطرة . فقص عليه حكايته وأطلعه على كتاب هند والخجل ظاهر على وجهه

فحدثته نفسه ان يثني عزمه عن هند ولكنه علم انه لن يصادف منه اصغاء فضلا عما قد يلجئه اليه من التستر في اعماله فشجعه وقال له لا بأس عليك يا ولدي فان ثعلبة لم يستطيع دخول المدينة ولن يستطيعه

فقال وما الذي انبأك بعدم دخوله

قال لم ينبئني أحد ولكنني عرفت الغساسنة كلهم وفيهم جبلة وثعلبة مقيمون في حمص خوفاً من هجمات المسلمين وكان هرقل قد انفذهم مع جند الروم لنجدة دمشق فلم يستطيعوا دخولها فعادوا على الاعقاب (١)

قال وما العمل الآن ؟

قال هلم بنا الى معسكر خالد فانهم يتوقعون عودتنا لنقيم بينهم ونكون في ذمتهم الا اذا احببت الرجوع الى بصرى فان ذلك آمن لنا وأبقى

فصمت حماد ولسان حاله يقول « كيف أعود عن دمشق وهند محصورة فيها » فابتدره عبد الله قائلاً لا بل أرى ان نقيم مع المسلمين لعلنا نستطيع امراً ننقذ به هنداً من الخطر . فابرقت اسرة حماد لما آنسه من مجاراة عبدالله فقال . نعم الرأي رأيك فهلم بنا . وهموا بالمسير نحو دمشق فقال الدليل هل ترى حاجة الي بعد الآن يا سيدي

فقال حماد نعم أرى أن تبقى معنا لعلنا نحتاج اليك في شيء ونحن في مأمن ولك علينا خير المكافأة

فأذعن وسار معهم وفيما هم سائرون بين الغياض خاطب حماد عبد الله بلسان أهل العراق لئلا يفهم الفارسان . هل ترى جند العرب كثيرين حول دمشق

---

(١) ابن الاثير

قال هم عديدون وقد تفرقوا فرقاً احداها فرقة خالد عند الباب الشرقي في الشرق والاخرى فرقة أبي عبيدة عند باب الجابية في الغرب والثالثة فرقة عمرو بن العاص عند باب الفراديس وفرقة شرحبيل بن حسنة عند باب آخر وفرق أخرى عند الابواب الاخرى وهناك فرقة يقودها جبار عنيد يقال له ضرار بن الازور تطوف حول الاسوار (١) ويخال لي أن الروم لا يستطيعون الصبر على الحصار

وما زالوا سائرين حتى أشرفوا على معسكر العرب عند الباب الشرقي فرأوا الخيول والجمال ترعى في البساتين ومعها العبدان والخدم ورأى النساء في اخبيتهن يتحدثن بامر الجهاد وهن مشتاقات اليه اشتياق الابطال الى ساحة القتال

فلما وصلوا المعسكر أتوا فسطاط خالد فدخله عبد الله وحماد بلا معارض وكان خالد جالساً في صدر المكان فرحب بهما ودعاهما للجلوس فنظر حماد الى من في الفسطاط فرأى رومانوس صاحب بصرى الى جانب خالد وقد تعمم بالعمامة وتزمل بالرداء العربي وغادر القلنسوة والقباء وكان خالد قد استقدمه معه ليترجم بينه وبين الروم فتهيب حماد من مجلس خالد ومن احدق به من الامراء وفيهم جماعة كبيرة لم يعرفهم ولكنه رأى الشجاعة والاقدام تلوحان على وجوههم

فتقدم عبد الله الى خالد فعرفه بحماد فاثنى خالد عليه وقال ان غلامك سيزداد زينة بالاسلام . فسكت عبد الله ولم يجب

أما حماد فلم يكن همه الا هند وحالها في دمشق ولو لم يطمئنه عبد الله بعد ثقة عنها لما صبر على البقاء هناك ولكنه ما فتىء يفكر بحيلة يدخل بها المدينة ليرى هنداً ويطمئنها ويسعى في انقاذها

وبعد قليل استأذن عبد الله خالداً بالخروج الى خيمة أعدت له فخرج وخرج حماد معه حتى اتيا الخيمة فقال حماد وما الرأي الان أني أرى هنداً في خطر ونحن في مأمن فلا بد من حيلة ندخل بها المدينة

قال تمهل يا سيدي لعلنا نتوفق الى ذلك في الغد . وباتوا تلك الليلة وافاقوا

(١) الواقدي

في الصباح على أصوات الاذان والصلاة فقال عبد الله لا أرانا نستطيع شيئاً طالما كنا في هذا المعسكر هلم بنا الى معسكر ابي عبيدة عند باب الجابية لعلنا نؤانس خيراً فمشيا كأنهما من الجند وتركا الدليل في الخيمة حتى أتيا معسكر أبي عبيدة فدعاهما الى خيمته وكان عبد الله قد عرفه وسمع بسهولة أخلاقه وطول أناته ورغبته عن سفك الدماء . فبعد السلام والترحاب قال عبد الله ألا يرى مولاي مخابرة هؤلاء الروم بأمر الصلح عسى انهم يسلمون ويكفونكم مؤونة الحرب

قال أبو عبيدة اني ارغب الناس في ذلك ولكن خالداً يطرب لمقارعة السيوف ومصادمة النبال

فقال عبد الله وما ضرّ لو أنفذت اليهم أحداً يستطلع رأيهم وأنت رئيس هذا الجند والمتصرف فيهم

فقال لا أرى بأساً في ذلك الا انهم يحسبوننا خائفين

قال ارسلوا من يستطلع رأيهم اذ قد يكونون راغبين في الصلح وهم يحسبونكم لا ترضون به فاذا سار اليهم أحد فليكن كلامه من عند نفسه

قال ومن لنا بمن يعرف لسانهم

قال لا أظننا نعدم وسيلة . وكان حماد قد تعلم شيئاً من اليونانية في اثناء اقامته في بصرى وهمّ عبد الله بأن يشير بارسال حماد ولكنه جزع عليه فلبث صامتاً فابتدره حماد قائلاً اني أقدم نفسي لهذه المهمة

فقال ابو عبيدة ولكنك تسير اليهم سراً فاذا فزت بمهمتك انحجبت الدماء على يدك والا فاننا باقون على حالنا من الحرب . واعلم ان قائد جند الروم هناك اسمه توما هو صهر الامبراطور هرقل(١) فسر اليه واستطلع رأيه من قبلك فاذا رأيت فيه ميلا الى التسليم انبئني

فسر حماد بمهمته وخرج من فسطاط أبي عبيدة وعبد الله معه فناداهما ابو عبيدة فعادا فقال لحماد اذا سرت أنت بقي والدك عندنا رهناً فان النفس

(١) الواقدي

امارة بالسوء . فرضيا وخرج وحده وبقي عبد الله هناك وقد ندم لما جره على حماد وعلى نفسه من الخطر وضاق صدره وخاف العاقبة

أما حماد فانه حمل علماً ابيض وركب جواداً واسرع نحو المدينة فلم يتبين الاسوار حتى رأى جماهير الناس عليها وفيهم القسوس بصلبانهم والجند باعلامهم ورأى بعضهم يهمّ ان يرميه بالنبال فأشار اليهم عن بعد انه انما جاء مسالماً فكفوا عن أذاه حتى اذا دنا من الباب هاله عظمه فقد كان عبارة عن ثلاثة ابواب صفاً واحداً المتوسط منها كبير ذو قنطرة واسعة والى جانبيه بابان صغيران وفي أعلى الباب صورة النسر الروماني تحته كتابة باليونانية وفوق النسر جدار السور وفيه مرامي النبال والناس يتزاحمون فوقها تتلألأ البستهم بألوانها الحمراء والزرقاء مما يدل على البذخ والترف وفوق رؤوسهم الخوذ من الفولاذ . فناداهم بلسانهم انه يريد الوصول الى رئيسهم

الفصل الرابع والثلاثون

داخلية دمشق وحال الروم فيها

فنزل اليه جماعة فتحوا له احد البابين الصغيرين فدخل بجواده وسلاحه فاحدق به الرجال فتهيب لذلك الموقف ولكنه تجلد وطلب أن يرى البطريق توما فقالوا انه في قصره بالقرب من كنيسة ماري يوحنا فترجل ومشى في شارع عريض قد استطال على استقامة واحدة يبتدىء بالباب الاوسط ولا يكاد يرى آخره وأرضه مرصفة بالحجارة الصوانيـة الضخمة والى كل من جانبيه رصيف عريض أوله عند أحد البابين الصغيرين وعلى الرصيف اساطين فخمة من الرخام متراصة على طول الطريق . ولم يكن حماد دخل الشام قبل ذلك الحين فرأى فيها من العظمة ودلائل المدنية ما لم ير مثله في بصرى

فما زال سائراً وحوله الخفر واهل المدينة يطلون من الشرفات والنوافذ ينظرون اليه ويتحدثون بامره وهو يلتفت يمنة ويسرة لعله يرى هنداً بينهم وكلما وقع نظره على أنثى ظنها هي وكان يخترق الصفوف بلحظه لعله يرى قبة

أو كنيسة على أمل أن تكون كنيسة مريم حيث تقيم هند حتى مر بكنيسة علم من بعض حديث القوم أنها الكنيسة المشار اليها نخفق قلبه وشاعت عيناه وهو يلتفت الى ما حولها من النوافذ فرأى جموعاً ولكنه لم ير هنداً بينهم فسار والناس حوله يتحادثون بلسانهم وقد علت الضوضاء تخللها قرقعة حوافر الخيل على البلاط

وبعد ان ساروا برهة انعطفوا الى شارع آخر فآخر حتى وصلوا الى باب كبير يحف به الخدم والاعوان فوقفوا عنده فعلم انه القصر فانفذوا بعض الحرس ينبيء البطريق بقدوم الرسول فانبأوه فامر بادخاله عليه فجردوه من سلاحه فدخل وركبتاه ترتعشان لهول ما يتوقعه بملاقاة ذلك الرجل فدخلوا به الى صحن الدار فاعجبه ما رآه في ارضها من النقوش الجميلة وفيها صور وقائع وهيئات آدميين وحيوانات بالفسيفساء بالوان بديعة متراصة قطعاً صغيرة بصناعة فائقة. وفي وسط الدار بركة من الرخام يتدفق الماء منها. ثم دخلوا به قاعة مفروشة بالرياش الثمين مما يبهر النظر وعلى جدرانها وسقفها صور بعض القديسين وصورة الامبراطور هرقل بتاجه وصولجانه وصور أخرى دينية. ورأى على النوافذ الاستار من الديباج والحرير المزركش بالقصب والارض مكسوة بالسجاد والطنافس عليها رسوم الاسود والفهود والخيول في ابدع ما يكون. فدعوه الى الجلوس هناك ريثما يخرج اليه البطريق فجلس يتوقع قدومه وهو يهون على نفسه ويتجلد حتى سمع وقع أقدام كثيرة ورأى أهل القصر في هرج وتزاحم فعلم ان الرجل قادم ثم رآه وقد دخل القاعة فاذا هو طويل القامة عظيم الهامة كثير الهيبة وطيلسانه يكاد يجر وراءه وسيفه الى جنبه وهو في رداء قصير الى ركبتيه كثير الالوان مزركش بالذهب وعلى رأسه قلنسوة أشبه بالتاج مرصعة بالحجارة الكريمة. فلما رآه حماد وقف اجلالاً له وتقدم نحوه متأدباً فنظر توما اليه بعينين حادتين يكاد النور ينبثق منهما فهاب حماد منظره ولكنه تظاهر بالتجلد وحياه بتحية الملوك وصبر حتى جلس وأمر له بالجلوس فجلس حماد وهو يفكر في ما يبدأ به من الحديث

فابتدره البطريق قائلاً ألعلك من هؤلاء العرب المفترين ؟

قال كلا يا مولاي اني غريب الديار وقد وقعت بين أيديهم بالاتفاق

قال لقد لاح لي ذلك من شكل لباسك فاني أراك حسن البزة وهؤلاء على ما أعلم حفاة عراة ولم يسقهم الينا الا قرب آجالهم . هل انت على دينهم الجديد

قال كلا يا مولاي اني على دين النصرانية قال ذلك واستخرج من بين اثوابه صليباً من الذهب معلقاً بسلسلة في عنقه

قال ألعلك من الغساسنة

فتحير حماد في الجواب مخافة أن يكون في تصريحه بالصدق ما يوغر صدر البطريق عليه فقال اني غريب الديار ولكنني مقيم في بصرى الان

فقال ومن أي البلاد أنت

فتذكر حماد الصلح الذي ابرم بين الفرس والروم على اثر الحروب الاخيرة فقال اني من اهل العراق ولما تم الصلح بين ملكنا وجلالة الامبراطور هرقل تقدمت الى البلقاء

فقال توما وما الذي جاء بك الينا . قال ذلك ودلائل الاهتمام ظاهرة على وجهه باقطاب حاجبيه وتفرسه

فهاب حماد منظره ولكنه تذكر أنه ملك ابن ملك فعادت اليه انفة الملوك فقال اذا أذن مولاي بخلوة بسطت له بها رأيي . وكان في مجلس البطريق بعض الحاشية فاشار اليهم فخرجوا وجلس البطريق الى جانبه . فقال حماد اقسم لمولاي بحرمة الصليب والمعمودية اني انما جئت اليه انوي له ولدولة الروم خيراً

قال لقد صدقت قل ما في نفسك

قال اني رأيت معسكر هؤلاء العرب وخبرت صبرهم في ساحة القتال واستهلاكهم في سبيل الجهاد فخفت ان يطول الحصار فيصيب هذه المدينة جهداً وقد عرفت قائد جند العرب الاكبر وهو رجل ميال الى السلم رغاب في حجب الدماء فقلت في نفسي لعلي اذا توسطت في امر الصلح بينكما ان افعل خيراً فاحتلت في دخول المدينة لاعرض هذا الامر عليك

فلم يكد حماد يتم حديثه حتى بدت ظواهر الغضب على وجه توما وقد

اقطب حاجبيه وتململ في مقعده ونظر الى حماد بعينين براقتين يكاد الشرر يتطاير منهما وقال وحرمة الصليب وصاحب هذه الكنيسة (واشار الى كنيسة مار يوحنا بالقرب من القصر) ورأس الامبراطور هرقل لو لم تسبق الى اقناعي بنصرانيتك لارتبت بحقيقة مقاصدك كيف تدعونا الى صلح قوم قد ساقهم الفقر الينا وغرهم الجهل في منزلتنا أتخالهم يحسبوننا مثل حامية بصرى التي خانت ملكها وسلمت اليهم ألم تكن لهم عبرة برجوعهم عن أسوار هذه المدينة خاسرين منذ بضعة أسابيع[1] ثم نهض وهو يقول اني سأعلمهم كيف حرب الروم منذ اليوم . قال ذلك ويده على قبضة حسامه وهو يخطر في الغرفة غاضباً

فكبر ذلك الانتهار على حماد وجرت دماء الملوك في عروقه وحدثته نفسه ان يغلظ له بالمقال ولكنه علم اذا فعل ذلك انه مائت لامحالة فصبر نفسه وكظم غيظه وقال ان الصلح لا يحط من قدر رجال الحرب ولا اخال مولاي يحسبني اجهل بطش الروم وشدة بأسهم ولكنني ظننت في الصلح حجباً للدماء فاذا كنتم ترون الحرب فانتم أصحاب الامر

وكان توما لا يزال واقفاً فلما سمع مقالة حماد جلس الى مقعد آخر ويده لا تزال على قبضة حسامه وقال لولا علمي بحسن نيتك لما أبقيت عليك ولكنك مع ذلك ستبقى في حاشيتي حتى ترى عاقبة الغرور وترى حال هؤلاء العرب في حربنا

فاستعاذ حماد بالله من هذا السجن وكان في حسابه ان يطلق سراحه فيفتش عن هند فندم على مجيئه وظل صامتاً فسمع البطريق ينادي بعض رجاله فلما حضر اوصاه ان يحتفظ بالرسول ويستبقيه في حاشيته ريثما يأمره امراً آخر . قال ذلك وخرج مسرعاً غضباً وسيفه يقرقع على البلاط وراءه وطيلسانه يكاد يتطاير عن كتفيه وبقي حماد وخفيره في القاعة برهة ثم اشار الخفير اليه فخرجا واختلط حماد بالحاشية كواحد منهم لا يؤذن له بالخروج من القصر الا معهم فلبث يصبر نفسه ويتوقع القدر

(١) الواقدي

وفي مساء ذلك اليوم سمع اهل القصر يتحدثون بعزم توما على الصلاة في كنيسة ماري يوحنا في صباح الغد وهو صباح الاحد وانه دعا رجال حكومته واعيان المدينة للاجتماع فيها فأمل حماد ان يتنسم خبراً عن هند هناك

الفصل الخامس والثلاثون

كنيسة ماري يوحنا

ولم يكد يفيق في صباح اليوم التالي حتى سمع دقّ النواقيس في سائر كنائس المدينة ورأى أهل القصر يتهيأون للذهاب الى الكنيسة فسأل خفيره عن ذهابه فقال تعال معنا أن الصلاة لا تمنع عن طالبها ولم تمض برهة حتى خرج توما باحسن ما يكون من اللباس فمشى وحوله الاعيان والوجهاء ورجال الدولة بأفخر الالبسة من الحرير المزركش على اجمل الوانه وأزهاها

وكانت الكنيسة على مقربة من القصر فلم يكن الا القليل حتى وصلوها فاذا هي محاطة بسور عظيم الارتفاع يوقع في النفس رهبة فدخلوا منه الى باب الكنيسة الجنوبي وهو كبير مرتفع الاعتاب فدخلوا منه الى صحن الكنيسة وهو فسيح مبلط بالرخام الملون طوله نحو ٢٠٠ خطوة وعرضه ١٥٠ (١) وتحيط به الاروقة وفيها الاعمدة الهائلة من الرخام الابيض النقي أو الغرانيت الملون باحسن ما يكون من الدقة تعلوها تيجان جميلة الصنعة على النمط الروماني اكثرها محلى بالذهب . حتى اذا أشرف على الهيكل حيث تقام الصلاة بهره ما على جدرانه من الصور البديعة بالالوان الطبيعية وفيها الذهب فضلاً عن النقوش الجميلة من الفسيفساء البلورية بالالوان البديعة . وكان حماد كيفما التفت تمثلت له عظمة الروم في ابان مجدهم فبهت لانه لم يشاهد مثل هذه الكنيسة قط

فادرك خفيره ذلك منه فقال له ما بالي أراك منذهلاً . قال اني لم أر مثل هذه الكنيسة في الشرق الا بانطاكية فمن هو الذي بناها من الملوك . قال انه

(١) الروضة الغناء للقساطلي

بناء أقدم من النصرانية عهداً فقد كان هيكلا وثنياً من ايام الآراميين الذين ورد ذكرهم في التوراة بني على اسم اله من آلهتهم اسمه رامون وكان له مذبح جميل أمر آحاز ملك يهوذا ان يبني مثله في هيكل سليمان باورشليم

فلما أستولت دولتنا الرومانية على الشام قبل النصرانية اتخذوه معبداً لاوثانهم حتى اذا تنصرت قياصرتنا جعله أحدهم ارخاديوس قيصر كنيسة على اسم يوحنا المعمدان وكان قد تخرب بعضه فرممه ونقش فيه صور القديسين ومن جملة ما نقشوه آيات من الكتاب المقدس ترى كثيراً منها على الجدران والسقف وأظنك قرأت ما هو منقوش على الباب عند دخولنا فقد كتبت عليه هذه العبارة باليونانية « ملكوتك أيها المسيح ملكوت أبدي وسلطانك يمتد مدى الادوار » (١)

ولم يكد ينتهي الرجل من حكايته حتى انتظم عقد الصلاة وقام الاساقفة بمباخرهم وصلبانهم وعلت أصوات الترتيل والترنيم والجدران تردد الصدى حتى صمت الآذان وتخشع الناس ونظر حماد الى الجماهير فرآهم وقوفاً وقد ولوا وجوههم المشرق وفي مقدمتهم توما في كرسي من العاج المرصع بالفسيفساء فوقه قبة من العاج بديعة النقش . ولما انقضت الصلاة حول توما وجهه نحو الجماهير وبيده صليب من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة وأمامه طاولة عالية فوقها كتاب مغشى بالذهب عرف حماد انه الانجيل الشريف والتفت توما وقد تغير منظره وهو يهيء كلاماً يقوله . فاصغى الناس ففتح الانجيل ووضع يده اليسرى عليه وفي يده اليمنى الصليب يشير به وهو يتكلم وقال ما معناه « اعلموا يا معشر النصرانية ان عمي ومولاي جلالة الامبراطور هرقل قد كتب الينا يستحثنا على دفع هؤلاء الاعراب عن أسوار دمشق واخراجهم من بلاد الشام فقد القوا الفتن فيها وما هم بالحقيقة الا قوم جياع عراة ساقهم فقر بلادهم وجدب ارضهم الى التماس الغزو من غياض الشام وخيراتها وقد اطمعهم فيها ما لاقوه من ضعف حامية بصرى وقائدها رومانوس اللعين الذي قاده الانتقام

(١) الروضة الغناء للقساطلي . (لما فتح المسلمون الشام اتخذوا بعض هذه الكنيسة جامعاً ثم استقلوا بها جميعاً وعرفت بالجامع الاموي)

الى التسليم . اما انتم فانكم رجال اشداء قائمون على الولاء فلا يهمكم من امر هؤلاء شيء . ولا احرضكم الا على الاتحاد ونبذ الاختلافات المذهبية فقد آن لنا ان نفقه حالنا ونعتبر بما صار اليه الناس قبلنا وما هؤلاء العرب بشيء يذكر اذا نحن اتحدنا والا فان العاقبة وخيمة فاذا رأيتم الخروج اليهم خرجنا واذقناهم مر العذاب »

فقال رجل واقف بالقرب منه « ما لنا والخروج اليهم ونحن آمنون في أسوارنا فلنهملهم حتى يملوا الاقامة فينقلبوا على أعقابهم »

فتأمل حماد في حال ذلك الجمع وفيهم خيرة رجال الدولة فرأى التردد والخمول مستولين عليهم وكان يحسب كلام توما يثير فيهم حمية فاذا هو لم يسمع منهم الا غتمة ولم يرَ الا تقاعداً وقد فقدوا الحمية بما انغمسوا فيه من الترف والبذخ والرخاء وفسدت أخلاقهم وساءت آدابهم فقابل ذلك بما آنسه في جند العرب من الانفة وعزة النفس والنشاط ووحدة الكلمة فتمثلت له عاقبة الامر جلياً وأيقن انها عائدة على الروم اذا هم لم يصالحوا العرب فلبث ينتظر ما يأتي به القدر

وعادوا من الكنيسة وهم يتحدثون بما سمعوه وحماد منشغل بهند وقد حاول الخروج منفرداً الى كنيسة مريم فلم يستطع لما ضيقه عليه توما من الحجر فان خفيره لم يكن يفارقه لحظة وخاف اذا خرج خلسة أن يرتكب ذنباً يستوجب عليه القتل فصبر نفسه . وفي صباح الغد خرج توما ومعه رجاله الا الخفير فانه بقي في القصر وحماد معه وآنس في خروجهم حركة غير اعتيادية فاستطلع الخبر فقال الخفير أن البطريق سار الى الاسوار يرمي العرب منها بالنبال ولم يأت المساء حتى عاد الروم وفيهم توما ويده على عينه وقد جاءه الاطباء فسأل حماد عن حاله فقيل انه أصيب بنبلة من نبال العرب ففقأت عينه [1] وانه تشاءم من ذلك كثيراً فقال حماد في نفسه عسى ان يرجع الى صوابه ويرغب في الصلح

---

(١) الواقدي

الفصل السادس والثلاثون

باب الفرج

ومضت بضعة أسابيع والحرب سجال بين الجانبين والروم ينتظرون نجدة من هرقل والنجدة تمتنع عنهم حتى اذا كان ذات صباح وحماد جالس في بعض غرف القصر يئساً اسيفاً اذ جاءه رسول يستدعيه الى توما فسار اليه وقلبه يخفق مخافة أن يكون في الدعوة ما يدعو الى الخطر

فلما دخل عليه رآه جالساً على سريره مقطب الوجه فحياه فاجلسه توما الى جانبه وهو يبش له فآنس حماد منه رقة لم يعهدها فيه . ثم أشار توما فخرج كل من في الغرفة ولم يبق غيرهما فقال توما دعني أقص عليك خبراً أقلقني وهو حلم رأته امرأتي في منامها البارحة وهي حامل أما الحلم فانها رأت الدماء تتدفق عن أسوار دمشق والاسواق مزدحمة بالقتلى فأفاقت من نومها مرعوبة فقصت عليَّ الحلم وهي ترتعد وتقدمت اليّ أن اقبل بصلح هؤلاء العرب حجباً للدماء ولقد ساءني اقتراحها لاني راغب في الحرب الى آخر نسمة من الحياة ولكنها ابنة الامبراطور صاحب الامر والنهي فضلاً عن منزلتها عندي وهي حامل . وأذكر انك أخبرتني عن أبي عبيدة قائد فرقة باب الجابية انه ميّال الى السلم فهل تظن اذا خابرناه به يفعل ويحفظ عهده

فاستبشر حماد بذلك وانفرجت كربته وقال لا ريب عندي بحفظه العهد اذا عاهد

قال أتذهب اليه وتستطلع رأيه في ذلك سراً وتعود بالخبر

قال افعل ذلك مأموراً طائعاً فأذن بمن يرشدني الى الطريق ويخرج بي من الباب وأنا أسير الى الرجل وأخاطبه

قال قد أذنا لك بذلك ولكنني أشترط في أمر الصلح شرطاً لا بد منه

قال وما هو

قال أريد من هؤلاء العرب اذا دخلوا المدينة أن يحفظوا الارواح ويحجبوا

الدماء وأن يتركوا لنا كنائسنا ولا ينقصوا علينا منها كنيسة

فقال حماد لا أظنهم يخالفوننا في ذلك وعلى كل فاني أسير اليهم بالامر وأعود اليك بالجواب . وكان حماد يكلم توما وهو معجب بتنازله الى هذا الحد على ان خيال هند ما زال نصب عينيه فخطر له ان يغتنم تلك الفرصة للاستعانة به على تسهيل زواجه بها وقال في نفسه لا أخالني أرى رجلاً أقدر على مساعدتي من صهر الامبراطور وهو الآن في حاجة اليّ فاذا استعنته ووعدني فقوله نافذ على جبلة وغيره

فتوسم توما في حماد توقفاً وتردداً فقال له ما بالك تتردد ألعلك خفت الذهاب الى العرب . قال كلا يامولاي فاني اقتحم المخاطر في سبيل انفاذ أوامرك ولكن لي أمراً يهمني ليس هذا محل الكلام فيه على أني لا أرى بداً من استعانتك فيه وهو من اسهل الامور عليك فاجعل مساعدتي في اتمامه مكافأة لي اذا فزت في عقد الصلح على ما تريدون

فقال توما وماذا عسى أن يكون طلبك

قال اخاف اذا ذكرته ان تضحك مني وتظنني مشتغلاً بعبث الغلمان ولكن الامر يا مولاي قد اقلقني ولا ارى بداً من استعانتك فيه فاعذرني

قال قل ما هو

قال أتعرفون الامير جبلة الغساني

قال أليس هو ملك الغساسنة حليفنا

قال بلى يا مولاي هو هو بعينه

قال وما خبره

قال حماد أقول بالاختصار اني خطبت ابنته هنداً ثم ان ابن عم لها يقال له ثعلبة يسعى في الحصول عليها وقد قبل والدها به ولكن الفتاة لا تريده . ونظراً لما أعهده من نفوذكم على جبلة أرجو ان توعزوا اليه أن يعطيني الفتاة

فتبسم توما وقد تذكر ابان شبابه وزمن عشقه فعذر حماداً وطيب خاطره وقال انه امر سهل ولك علينا قضاؤه . فانبسطت نفس حماد ومال الى مشاهدة هند وتبشيرها بذلك الوعد وهمّ باستئذان توما في أن يمر بكنيسة

مريم اثناء ذهابه فاذا هو قد ابتدره قائلا « فاتقدم اليك ان تسرع في مهمتك فتسير حالا الى مخابرة ابي عبيدة فاذا عقد الصلح وهدأت الاحوال زففنا اليك هنداً رضي والدها أو لم يرض »

فشكره حماد شكراً جزيلاً وقد صمم في باطن سره على ان يحتال في المرور خلسة ثم سمع توما ينادي اثنين من حاشيته فأتيا فقال لهما أعدّا مركبة من مركبات القصر احملا بها هذا الشاب العراقي الى باب الجابية حالا وافتحا له الباب وليركب جواده هناك واما انتما فانتظرا رجوعه فمتي عاد ارجعا به الى هنا

فقالا سمعاً وطاعة وخرجوا جميعاً وحماد آسف لمسيره في المركبة اذ لا يتأتى له الوقوف عند الكنيسة

وبعد برهة أعدت المركبة فركبوها فجرت مسرعة وقد تعاظمت قرقعتها على بلاط الشوارع خصوصاً الشارع المستقيم حتى اذا دنت من كنيسة مريم خفق قلب حماد وشاعت عيناه وهو يلتفت نحو النوافذ والشرفات لعله يرى هنداً أو أحداً من اهلها فخاب رجاؤه وتجاوزت المركبة الكنيسة وهو يصيخ بسمعه مخافة ان يناديه احد وتحول قرقعة المركبة دون سماع النداء ولكنه ما لبث ان وصل الى باب الجابية فوقفت المركبة وكان جواده هناك فركبه وخرج والعلم معه حتى أتى معسكر ابي عبيدة فلم يستفهمه احد من العرب فسار توًّا الى خيمة عبد الله وهي في الطريق فرآه جالساً حزيناً لانشغال باله فحالما وقع نظره عليه نهض مسرعاً وضمه الى صدره وسأله عن سبب غيابه فقص عليه الخبر فحمد الله على سلامته . ثم سأله حماد هل سمع شيئاً عن سلمان فقال لا لم اسمع عنه شيئاً ولكنني ارسلت دليلنا الى بصرى لعله يراه هناك فيخبره بمقرنا ولم يعد الدليل بعد فانشغل بال حماد ولبثا برهة يتحادثان في امر جبلة وجنده فقال عبد الله اظننا اذا تم الصلح بين العرب والروم لا نعدم وسيلة في العثور على سلمان نهيا بنا الان الى ابي عبيدة ثم نهضا معاً حتى اتيا فسطاطه فرحب بهما فقص حماد ما اشترطه توما من امر الكنائس

والاموال فقال ابو عبيدة لقد قبلنا بذلك فليرسل من يعتمدهم من رجاله لعقد الشروط

فودعهم حماد وعاد الى دمشق وقد مضى معظم النهار فوصل القصر فرأى اهله في هرج وضجة فسأل عن السبب فقيل له ان امرأة البطريق توماتتمخض والبطريق عندها ينتظر ساعة الولادة (١) فقال ابعثوا اليه من ينبئه برجوعي فانبأوه فخرج اليه وامارات البغتة ظاهرة على وجهه فقال ما خبرك فقال ان الامير ابا عبيدة قبل الصلح فارسل من تعتمده لعقده . فامر مئة من كبار القصر ان يخرجوا في صباح الغد ومعهم حماد وقال لهم اني مشتغل في ما تقاسيه ابنة الامبراطور من آلام المخاض وعسى ان يأتي الفرج قريباً

الفصل السابع والثلاثون

صلح الشام

وكان الليل قد سدل نقابه فباتوا تلك الليلة واصبحوا وقد تهيأ مئة منهم بالالبسة الرسمية وحملوا الاعلام والصلبان وساروا حتى اتوا باب الجابية وكان حماد اكثر الناس رغبة في ذلك الصلح املاً بقرب الوصول الى هند

فلما وصلوا الباب كان بعض العرب هناك وعليهم ابو هريرة قد قاموا ينتظرون وفد الروم فانبأهم حماد بما أتوا من أجله ففتحوا الابواب وخرج الوفد باعلامهم وصلبانهم وقد تكسرت اشعة الشمس عن خوذهم وقلانسهم وارديتهم المختلفة الالوان وصلبانهم المرصعة بالحجارة الكريمة مما يبهر الابصار ومشى ابو هريرة ورجاله في مقدمتهم حتى أتوا معسكر ابو عبيدة . فلما أشرفوا على المضارب أوعز اليهم ابو هريرة ان ينزعوا الصلبان (٢) فنزعوها حتى وصلوا الى فسطاط ابي عبيدة فاستقبلهم بالحفاوة وعقد مجلساً امضوا فيه الشروط وفي جملتها ان يتركوا الكنائس على ما هي . وكان في دمشق عدة كنائس منها كنيسة مريم وكنيسة يوحنا المعمدان المتقدم ذكرها وكنيسة سوق الليل وكنيسة انداد (٣)

(١) ابن الاثير (٢) الواقدي (٣) الواقدي

فكتب لهم ابو عبيدة كتاب الصلح والامان ولم يسم فيه اسمه ولا أثبت شهوداً فتناولوا الكتاب ودعوه لصحبتهم ليدخلوا المدينة معاً فقام ابو عبيدة ومعه ٣٥ من أعيان الصحابة وسار الجميع وفيهم عبد الله وحماد . فلما وصلوا باب المدينة وقف ابو عبيدة وقد تذكر امراً هاماً وذلك انه لسلامة نيته رضي بالصلح وقبل بدخول المدينة مع عدوه ولم يخامره ريب من غدر أو نحوه ولكنه لما وصل الابواب ورأى الاسوار وفوقها الجند بالاسلحة تخوف وتحذر فقال لمن معه من الروم اننا نطلب منكم رهائن قبل الدخول فيبقى منكم اناس رهناً عندنا حتى اذا حدث غدر ذهبوا ضحية الغدر . فتركوا بعضاً منهم وسار الباقون حتي دخلوا الابواب واقبلوا على الشارع المستقيم وقد تزاحم فيه الناس وفي مقدمتهم الاقسة والرهبان . فلما دخل ابو عبيدة استقبلوه بالاناشيد واعتذروا عن تخلف البطريق توما لاشتغاله باهل بيته ثم مشوا بين يديه على مسرح الشعر وقد رفعوا الاناجيل والمباخر وفيها البخور يتصاعد دخانه حتي حجب عنهم أواخر الشارع فساروا يهتفون شكراً لله على حجب الدماء والاعلام تخفق فوق رؤوسهم وبينها اعلام المسلمين والروم معاً

وكان الدمشقيون يطلون من النوافذ وعن الاسطحة والشرفات رجالا ونساء وأولاداً وكلهم فرحون بنجاة انفسهم وأموالهم لان أهل البلد اكثر الناس نفوراً من الحرب لانها عائدة عليهم بالخسارة في أي حال

وأما حماد فكان مشتغلاً عن تلك الضوضاء يعلل نفسه بقرب اللقاء وعبد الله الى جانبه وكان الموكب سائراً ببطء فنفذ صبر حماد وهو يتشوف من خلال الاعلام والصلبان الى كنيسة مريم عن بعد وقد عزم على ترك الموكب ودخول الكنيسة خلسة ليرى هنداً ويبشرها بانفراج الازمة

الفصل الثامن والثلاثون

خصام ابي عبيدة وخالد

وفيما هو في ذلك تراءى له في آخر الشارع جموع قامون نحو الموكب فراراً من أناس يطاردونهم فامعن نظره فرأى مع الطاردين اعلاماً اسلامية ورجالا من المسلمين في ايديهم السيوف والرماح وقد امعنوا في الناس قتلاً ونهباً ورأى في مقدمة الاعلام علماً اسود عرف انه راية العقاب لخالد بن الوليد ثم ما لبث ان رأى الفارين يتقدمون حتى التقوا بالموكب عند كنيسة مريم ثم دنا خالد فلما رآه ابو عبيدة عجب لامره وناداه قائلاً « كف يا ابا سليمان قد فتح الله على يدي المدينة صلحاً وكفى الله المؤمنين القتال »

فصاح فيه خالد « وما الصلح لا اصلح الله بالهم واين لهم الصلح وقد فتحتها بالسيف وخضبت سيوف المسلمين من دمائهم وأخذت الاولاد عبيداً ونهبت الاموال »

فقال ابو عبيدة « اعلم أيها الامير أني ما دخلتها الا بالصلح »

فقال خالد « انك لم تزل مغفلا وانا ما دخلتها الا بالسيف عنوة وما بقي لهم حماية فكيف صالحتهم »

فقال ابو عبيدة « اتق الله أيها الامير والله قد صالحت القوم ونفذ السهم بما هو فيه وكتبت لهم الكتاب »

فاعترضه خالد وارتفع الصياح بينهما وقد شخص النـاس اليهما واصحاب خالد لا يزالون يقتلون وينهبون . وكانوا قد دخلوا المدينة من البـاب الشرقي وهم لا يعلمون بصلح ابي عبيدة ولكنهم اغتنموا الفرصة باشتغال توما ورجاله بالقصر والولادة (١)

فقال ابو عبيدة « وانكلاه حقرت والله ونقض عهدي » وجعل يقسم على المسلمين ان لا يمدوا ايديهم نحو الطريق الذي جاء هو منه حتى يرى ما

(١) ابن الاثير

يتفق هو وخالد عليه فسكتوا عن النهب واجتمع رجال المسلمين هناك وتفاوضوا في الامر فتم الرأي على القبول بالصلح على أن يخرج توما وهربيس (وهو وال على نصف الشام من قبل توما) وبينما هم في الجدال جاء توما وهربيس وذكروا ابا عبيدة بالعهد وقالا اذا أبيتم صلحنا فاننا نخرج من المدينة ونكون في ذمتكم نحن وأهلنا واموالنا وبعد جدال طويل قبل خالد بذلك (١)

فاخذ توماً يتاهب للخروج وكان حماد في جملة الوقوف يسمع ما دار من الحديث فلما علم بخروج توما على هذه الصورة ارتبك في أمره وعلم انه لن يرجو منه نفعاً ولكنه عزم على دخول الكنيسة ومقابلة هند فاستأذن عبد الله فقال هلم ندخل معاً

وتركا الناس في تزاحمهم وعرجا نحو الكنيسة فاذا هي مقفلة فالتمسا مفتاحها فظن البواب انهما يريدان بها أذية فذكرهما بالعهد فقالا اننا لا نريد أمراً غير الزيارة ونحن مسيحيون مثلكم ففتح لهما الباب فسأل حماد عن قيم الكنيسة فتقدم اليه قسيس شيخ وكان مختبئاً في الهيكل وهو يخاف الفتك فلما رأى الرجلين يرسمان علامة الصليب اطمأن باله فسألهما عن مرادهما فتقدم اليه حماد وقبل يده وقال هل يقيم في هذه الكنيسة أحد من الغرباء . قال القسيس لم تجر العادة ان يقيم الناس في الكنائس

قال وانما اريد هل يقيم احد في بعض الغرف التابعة للكنيسة

قال لا يا سيدي ولكن اهل ملك غسان وكلهم من النساء كنّ مقيمات عندنا ومعهم الخدم ولكنهم خرجوا جميعاً منذ بضعة أسابيع

فاضطرب قلب حماد وقال وقد ظهرت البغتة على وجهه والى اين خرجوا

قال لا أدري ولكن رجالا جاؤوا من قبل الامير جبلة أقاموا هنا ساعات قليلة ثم خرجوا جميعاً . فوقف حماد مدة صامتاً وقد نسي موقفه وغلب عليه اليأس وجعل يفكر في ماذا عسى أن يكون سبب رجوعهم . فاعاد السؤال وأوضحه فلم يفهم شيئاً آخر

---

(١) الواقدي

قالت اذا بقيت حية سأذهب الى بيت المقدس

قال ان الحرب قد انقضت وتم الصلح فلا بأس عليك ولكنني لا أظنك تستطيعين الذهاب وحدك وأنت امرأة

قالت انما استطيع ذلك لاني امرأة لان هؤلاء العرب شديدو المحافظة على الاعراض فاذا لقيني أحد منهم كان لي عوناً في ايصالي الى حيث أريد

فقال أوصيك اذا أتيت بيت المقدس وكانت هند لا تزال هناك ان تقريها مني السلام وتخبريها اني قادم اليها على عجل ان شاء الله

قال ذلك وتحول مسرعاً وعبد الله معه ثم قال علينا بالاسراع الى بيت المقدس

قال عبد الله علينا قبل الذهاب أن نحمل أمتعتنا فانها في معسكر ابي عبيدة

قال لا بد لنا من الانتظار ريثما يهدأ البال وتسكن الاحوال فنودع ابا عبيدة ونشكره على حسن وفادته وننصرف ولعله يصحبنا بمن يدفع عنا خطر الطريق

فخرجا من المنزل فلقيا القسيس فودعاه وخرجا الى الشارع وكان الناس قد استأمنوا وهدأت الاحوال فسارا تواً الى قصر الحاكم فرأيا المسلمين قد دخلوه ووضعوا ايديهم على ما فيه وأهل توما يحملون الاحمال ويخرجون مهرولين وفيهم النساء والرجال فاسفا لما انتهت اليه حال هؤلاء وتذكر حماد انفة توما يوم لقيه في ذلك القصر فاعتبر وتأمل

وقضيا بقية ذلك اليوم والناس في هرج بين مهاجر ومستسلم ولم يستطيعا مقابلة ابي عبيدة ليخاطباه بشأن الذهاب

وفي اليوم التالي دخلا عليه فاذا هو قد ازداد رفعة بعز النصر وكان جالساً على كاتبه وهو يكتب الى الامام عمر بخبر الفتح فتنحيا حتى انتهى من الكتاب فدخلا عليه فرحب بهما وبش لهما وخاطب حماداً قائلاً انك خدمت هذه المدينة خدمة تستوجب الثناء عليها لانك كنت الواسطة في حقن الدماء

فخجل حماد لذلك الاطراء وقال أني لم أفعل شيئاً استوجب عليه ثناء وان ما حصل من الصلح أنما كان من رغبة الامير في السلام . ثم همَّ حماد أن يذكر له عزمه على الخروج الى بيت المقدس ولكنه لم يرَ سبيلاً الى ذلك فصمت فادرك عبد الله ذلك فيه فخاطب ابا عبيدة قائلاً لقد اتينا يا مولاي نهنئك بالفتح الذي تم على يدك ونستأذنك بالانصراف

فقال ابو عبيدة والى أين تنصرفون

قال ان لنا في بيت المقدس أهلا نريد النزوع اليهم

ففكر ابو عبيدة مدة ثم قال لم يأن زمن الانصراف بعد فالبثوا في ضيافتنا اياماً نحسن وفادتكم بعد ما عانيتم معنا في زمن الحرب ثم تنصرفون ومعكم رجال منا حتى تبلغوا مأمنكم

فلم يجرأ عبد الله على مراجعة أبي عبيدة ولبث صامتاً على نية العود الى الاستئذان في فرصة أخرى ولكنه استأذنه في الخروج الى المعسكر ليستولي على الامتعة

فقال ابو عبيدة ان أمتعتكم وخيولكم في مأمن مع أمتعتنا في المعسكر ونحن خارجون اليها لاننا لا نحب الاقامة في القصور خوفاً من الانغماس في الترف

الفصل الاربعون

مهمة خطرة

وفي الغد خرج الجميع الى المعسكر وقد اقتسموا الغنائم ونزل كل الى خيمته وكان عبد الله يتوقع عود الدليل من مهمته التي سار فيها الى بصرى فلم يعد فعلم أنه أنما رغب في الذهاب فراراً من غائلة ذلك الحصار فلبثا وهما قلقان على سلمان وهند فحاولا مخاطبة ابي عبيدة مرة ثانية في المسير الى بيت المقدس فلم يتمكنا فرصة لاشتغاله في تسيير الجند لفتح سواحل الشام وغيرها من البلاد . فصبرا ريثما تسنح الفرصة فمضت ايام وهما على ذلك حتى اصبحا ذات

قالت اذا بقيت حية سأذهب الى بيت المقدس

قال ان الحرب قد انقضت وتم الصلح فلا بأس عليك ولكنني لا أظنك تستطيعين الذهاب وحدك وأنت امرأة

قالت انما استطيع ذلك لاني امرأة لان هؤلاء العرب شديدو المحافظة على الاعراض فاذا لقيني أحد منهم كان لي عوناً في ايصالي الى حيث أريد

فقال أوصيك اذا أتيت بيت المقدس وكانت هند لا تزال هناك ان تقريها مني السلام وتخبريها اني قادم اليها على عجل ان شاء الله

قال ذلك وتحول مسرعاً وعبد الله معه ثم قال علينا بالاسراع الى بيت المقدس

قال عبد الله علينا قبل الذهاب أن نحمل أمتعتنا فانها في معسكر ابي عبيدة

قال لا بد لنا من الانتظار ريثما يهدأ البال وتسكن الاحوال فنودع ابا عبيدة ونشكره على حسن وفادته وننصرف ولعله يصحبنا بمن يدفع عنا خطر الطريق

فخرجا من المنزل فلقيا القسيس فودعاه وخرجا الى الشارع وكان الناس قد استأمنوا وهدأت الاحوال فسارا توًّا الى قصر الحاكم فرأيا المسلمين قد دخلوه ووضعوا ايديهم على ما فيه وأهل توما يحملون الاحمال ويخرجون مهرولين وفيهم النساء والرجال فاسفا لما انتهت اليه حال هؤلاء وتذكر حماد انفة توما يوم لقيه في ذلك القصر فاعتبر وتأمل

وقضيا بقية ذلك اليوم والناس في هرج بين مهاجر ومستسلم ولم يستطيعا مقابلة أبي عبيدة ليخاطباه بشأن الذهاب

وفي اليوم التالي دخلا عليه فاذا هو قد ازداد رفعة بعز النصر وكان جالساً على كاتبه وهو يكتب الى الامام عمر بخبر الفتح فتنحيا حتى انتهى من الكتاب فدخلا عليه فرحب بهما وبش لهما وخاطب حماداً قائلاً انك خدمت هذه المدينة خدمة تستوجب الثناء عليها لانك كنت الواسطة في حجب الدماء

فخجل حماد لذلك الاطراء وقال اني لم أفعل شيئاً استوجب عليه ثناء وان ما حصل من الصلح انما كان من رغبة الامير في السلام . ثم همّ حماد أن يذكر له عزمه على الخروج الى بيت المقدس ولكنه لم ير سبيلاً الى ذلك فصمت فادرك عبد الله ذلك فيه فخاطب ابا عبيدة قائلاً لقد اتينا يا مولاي نهنئك بالفتح الذي تم على يدك ونستأذنك بالانصراف

فقال ابو عبيدة والى أين تنصرفون

قال ان لنا في بيت المقدس أهلا نريد النزوع اليهم

ففكر ابو عبيدة مدة ثم قال لم يأن زمن الانصراف بعد فالبثوا في ضيافتنا اياماً نحسن وفادتكم بعد ما عانيتم معنا في زمن الحرب ثم تنصرفون ومعكم رجال منا حتى تبلغوا مأمنكم

فلم يجرأ عبد الله على مراجعة أبي عبيدة ولبث صامتاً على نية العود الى الاستئذان في فرصة أخرى ولكنه استأذنه في الخروج الى المعسكر ليستولي على الامتعة

فقال ابو عبيدة ان أمتعتكم وخيولكم في مأمن مع أمتعتنا في المعسكر ونحن خارجون اليها لاننا لا نحب الاقامة في القصور خوفاً من الانغماس في الترف

الفصل الاربعون

مهمة خطرة

وفي الغد خرج الجميع الى المعسكر وقد اقتسموا الغنائم ونزل كل الى خيمته وكان عبد الله يتوقع عود الدليل من مهمته التي سار فيها الى بصرى فلم يعد فعلم انه انما رغب في الذهاب فراراً من غائلة ذلك الحصار فلبثا وهما قلقان على سلمان وهند فحاولا مخاطبة ابي عبيدة مرة ثانية في السير الى بيت المقدس فلم يتمكنا فرصة لاشتغاله في تسيير الجند لفتح سواحل الشام وغيرها من البلاد . فصبرا ريثما تسنح الفرصة فمضت أيام وهما على ذلك حتى اصبحا ذات

يوم وهما على مثل الجمر في انتظار الخروج الى بيت المقدس يتوقعان حيلة يخرجان بها فرأيا بعض الجند في هرج ومسارة فخرجا فاذا هما بهجان قد دخل المعسكر وعليه غبار الاسفار فعرفا انه رسول من الامام عمر الى ابي عبيدة ثم رأياه ترجل ودخل فسطاطه فمكثا ينتظران ما جاء به

وبعد هنيهة خرج الرسول وجاء بعض القائمين في خدمة ابي عبيدة والتمسوا من عبد الله وحماد الذهاب الى فسطاط الامير حالاً . فاوجسا خيفة لئلا يكون في تلك الدعوة ما يدعو الى التأجيل

فلما دخلا رأيا ابو عبيدة في صدر الفسطاط والى جانبه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما من الامراء فحياهم فأمر لهما بالجلوس

ثم قال لهما مخاطباً عبد الله « لقد انبأني أخي (واشار الى خالد) انكم من أهل العراق ولم اكن أجهل ذلك ولكنني علمت منه انكم من أمراء العراق العارفين باحوال تلك البلاد وقد شاهدنا من اخلاصكم في خدمتنا ما دعانا الى تكليفكم أمراً تستوجبون عليه الاجر والثواب

فازداد عبد الله خوفاً من تلك الدعوة ولكنه تظاهر بالارتياح وقال اننا في خدمة الامير طوع ارادته

فقال لقد جاءنا رسول مولانا أمير المؤمنين الآن يدعونا الى نصرة اخواننا في العراق وان تنفذ اليهم جنداً ممن خبروا تلك الارض [1] فاريد أن تسيرا مع تلك النجدة وفي ذهابكما خير لكما وخدمة لجند الجهاد

فقال عبد الله ان امر مولاي الامير مطاع ولو انفذني الى حيث أراد لفعلت ولكنني خرجت من العراق منذ أعوام ولا أدري ما طرأ عليها من التغيير والتبديل فاخشى ان لا يكون في ذهابي فائدة لكم . وزد على ذلك اننا مشتغلو البال على بعض أهلنا في بيت المقدس

وكان خالد مصغياً لما يبدو من عبد الله وكان يتوقع ذلك الجواب منه فقال له لقد سمعت من خادمك سلمان يوم صلح الحيرة انك صاحب عقار وكلمة نافذة وقد حمينا لك مالك وأهلك في ذلك الصلح فكيف تعتذر عن الذهاب .

---

(١) ابن الاثير

قال خالد ذلك وعلامات الغضب تكاد تظهر على وجهه فخاف عبد الله عاقبة اعتذاره فابتدره قائلاً اني لا أعتذر عن الذهاب فان ذلك فرض عليَّ ولكنني أود ان اتفقد الذين في بيت المقدس ايضاً

فقال ابو عبيدة فليذهب ابنك حماد الى بيت المقدس ونحن نصحبه بمن يوصله اليها وسر أنت الى العراق وكن واثقاً اننا نحافظ على أهلك وولدك محافظتنا على اهلنا لانك في ذمتنا واعلم أن سفرك الى العراق لا يطول لان الفتح قريب ان شاء الله

فاذعن عبد الله صاغراً لعلمه ان تردده ربما هاج غضب خالد لما يعلم من شدته وتسارعه

أما حماد فشق عليه فراق عبد الله ولكنه تأسى بقرب مشاهدة هند

فقال عبد الله هل يأمر مولاي بتسيير ولدي هذا قبل خروجي

قال نعم سنسيره في الغد وأما انت فلا بد من بقائك بضعة ايام وريثما يتأهب الجند للذهاب

ثم خرج عبد الله وحماد الى الخيمة لا يلويان على شيء وباتا تلك الليلة لا حديث لهما الا حديث ذلك الفراق وفكرا طويلاً في الفرار ولكنهما خافا العاقبة فضلاً عما حسباه من تجسس العيون وما قد تكون عاقبة الفرار لو قبض عليهما . ولو كان حديثهما مع أبي عبيدة لهان التخلص لما يعلمانه من سهولة أخلاقه اما خالد فانه سريع الانتقام

وفي الغد ركب حماد وودع عبد الله وتواعدا على اللقاء في بيت المقدس واذا اضطر حماد للخروج قبل مجيء عبد الله فليترك له خبراً في كنيسة القيامة هناك . ثم سار حماد الى أبي عبيدة فودعه فقال ابو عبيدة وهو يتبسم سر بحراسة المولى ونرجو أن نلاقيك قريباً في بيت المقدس وقد نحتاج الى خدمتك هنالك مثل حاجتنا اليها في دمشق . فادرك حماد انه يشير الى قرب ذهابهم لحصارها فتجاهل ولم يجب فأمر ابو عبيدة بعض الرجال يسيرون معه لحمايته أثناء الطريق فسار وعينا عبد الله تراعيانه حتى توارى

أما هو فلما ابتعد عن دمشق تذكر هنداً وحالها وخيل له انها تزوجت

بثعلبة فارتعدت فرائصه ولكنه قال في نفسه انها لو كانت تقبل به لما انفذت في طلبي الى دمشق ولا استبقت خادمتها لاستقدامي الى بيت المقدس ثم فكر في طول مدة غيابه فخيل له انها يئست من قدومه فاضطرت الى مجاراة والدها والقبول بثعلبة فقضى معظم الطريق في مثل هذه الهواجس

الفصل الحادي والاربعون

خيبة المسعى

وصل حماد بيت المقدس فنزل في دير بالقرب من كنيسة القيامة حتى اذا استراح قليلاً خرج للبحث عن هند في دير القيامة نفسه فأخذ يفتش ويستطلع لعله يتنسم خبراً فلم يرَ أحداً يعرف جبلة ولا أهله ولم يكن حديث القوم الا الحرب وعواقبها وكلهم خائفون مما سمعوه عن سقوط دمشق فقال في نفسه لاذهبن الى قيم ذلك الدير لعله ينبئنا نبأ وكان يونانياً فسار اليه فقال له القيم ان أهل الملك جبلة نزلوا هنا اياماً ولكنهم سافروا منذ أسبوع

فاجفل حماد وقال هل سافروا جميعاً نساء ورجالا

قال لقد كان النساء فقط عندنا ولكن رجالهم اتوا منذ أسبوع واقاموا هنا ساعات قليلة ثم اقلعوا جميعاً الى حيث لا يعلم أحد

فقال حماد ألم يتركوا شيئاً من أمتعتهم هنا . قال تركوا منهــا ما لا قيمة له من ثقيل الاحمال هبة للدير ولم يأخذوا الا ما خف حمله وغلا ثمنه

فبغت حماد لذلك الخبر وقال في نفسه وهل ثعلبة معهم . ثم لم ير بداً من اعادة السؤال فالتفت الى القيم وقال له أتقدم اليك ان تعيرني سمعك ولا يثقل عليك سؤالي لان هؤلاء القوم يهمني أمرهم وقد كنت في دمشق اقاسي عذاب الحصار فلما تم صلحها اتيت لافتش عنهم فهل عرفت اشخاصهم جيداً

فاهتم القيم لحديث حماد عن حصار دمشق وكان شديد الرغبة في سماعه فقال له وهل عاينت الحصار بنفسك ورأيت جند العرب رأي العين

قال نعم رأيتهم واختلطت بهم وسمعت أحاديثهم

قال ألا قصصت عليَّ حديث الحصار

فاضطر حماد أن يقص عليه الخبر مختصراً استعجالاً لرضاه لعله يصبر على اسئلته فلما انقضى الحديث امتقع لون القيم وهو راهب طاعن في السن فقال وما ظنك بهم هل يأتون الينا

قال أظنهم يأتون اذا لم يجدد الامبراطور هرقل الهمة في التجنيد والترميم فان هؤلاء العرب أشداء صبورون على القتال ولكن الله يحمي عباده. فاخبرني الآن عما تعرفه من امر أهل الملك جبلة

قال أما وقد افصحت لي عن رأيك بعد ان خبرت الامور فاخبرك ياولدي ان سقوط دمشق أوقع الرعب في قلوب رجالنا فاصبح كل منهم خائفاً لا يأمن على نفسه ولا أهله وكذلك جبلة فانه اسكن أهله في هذا الدير وفي عزمه أن يعقد لابنته الوحيدة على ابن عمها ... فهل بينك وبينهم قرابة

قال ليست بيننا قرابة ولكن لي مع الامير جبله شغلاً هاماً قال ذلك وهو ينتظر بقية الخبر ليرى ماذا تم من أمر الاقتران

فقال الراهب ولكنني لحظت من الفتاة نفوراً شديداً من ابن عمها هذا وكان والدها قد كلفني باقناعها

فثارت الغيرة في قلب حماد وأصبح كله آذاناً ليسمع نهاية الحديث وقال وهل اقتنعت

قال كلا ياولدي لانها كانت شديدة النفور وكنت اذا سألتها أجابتني والدموع ملء عينيها تعتذر ووالدتها لا تلومها

ولم يتم الراهب كلامه حتى تناثر الدمع من عيني حماد فتشاغل باصلاح كوفيته اخفاء لعواطفه وقال لقد همني أمر هذه الفتاة وأرى من الظلم ان يجبروها على الاقتران برجل لا تريده

قال الراهب لقد صدقت يا ولدي ولذلك فان العناية الصمدانية حلت هذا المشكل على أهون سبيل

فقال حماد وكيف ذلك

قال الراهب ان ابن عمها المشار اليه قتل في بعض المواقع الاخيرة

فاجفل حماد اجفال البغتة وقال هل تيقنت ذلك يا مولاي لعل الذي قتل هو غير الخاطب

قال بل تحققت انه هو لاني سمعتهم يتحدثون بحكايته وكانهم يهنئون هنداً بذلك

فقال حماد ألا تذكر اسمه

قال اذكر اسمه ثعلبة

فايقن حماد بنجاته من ذلك المناظر ولكنه ما زال في ريب من مقر هند ووالدها فقال وماذا فعلوا بعد ذلك

قال الراهب وبقي أهل جبلة عندنا بعد ذلك أياماً حتى شاع سقوط دمشق ونصرة المسلمين فوقع الرعب في قلوب الناس وجاء جبلة ومعه بعض الحاشية من رجاله فاسرعوا في حمل أمتعتهم مما خف حمله وغلا ثمنه وخرجوا خروج الهاربين من الموت ولا أدري الى اين

فوقف حماد صامتاً وقد تحير في أمره لا يدري ماذا يعمل فشعر بافتقاره الى عبد الله وسلمان وهو بعيد عنهما فاظلمت الدنيا في عينيه وضاق صدره فنهض للحال فودع الراهب وانصرف الى حجرته وهو غارق في لجج الهواجس لا يفقه جهة مسيره

الفصل الثاني والاربعون

سلمان

وكان حماد في اثناء مسيره الى الدير تائهاً في بحار الهواجس يفكر تارة في هند وطوراً في سلمان وآونة في عبد الله حتى عظم عليه الامر وخيل له ان المسالك سدت دونه تضلاً عما كان يعترض سبيله من احوال الحرب وقد أصبح اهل الشام في هرج على اثر سقوط دمشق وأخذوا في المهاجرة زرافات ووحداناً الى مصر او بلاد الروم او غيرهما

فوصل الدير وهو لا يدري انه وصل اذا كان على مقربة من غرفته

رأى عند بابها رجلا كان جالساً ثم هم مسرعاً لملاقاته وحالما وقع نظره عليه علم انه سلمان فناداه باسمه فترامى سلمان على يده يقبلها ويشكر الله على لقائه فقال حماد أهلاً بك ايها الصديق لقد أطلت الغياب علينا فاذقتنا من الوحشة ما لم يبق لنا صبراً عليه

فخجل سلمان لذلك الاطراء وقال لقد غمرتني ايها الملك بفضلك فدعوتني صديقاً لك وما أنا الا من بعض خدمك

فلما سمع حماد لفظ الملك تمثلت له حالته وتذكر حكاية النذر والانتقام وما شغله عن ذلك من شواغل الغرام وما انتهت اليه حاله من اليأس حتى كأن الايام قد كتبت عليه الشقاء فلا يكاد يقترب من نصيبه حتى يفاجئه عارض يحول دون مرامه وأفضت به الحوادث الى ضياع كل آماله بفرار جبلة وأهله الى حيث لا يدري أحد . ولكن ظلمات تلك المخاوف كان يتخللها بعض النور مما يتوقعه من مساعدة سلمان ومشورته فزاد استئناسه به ولما رآه ينكر عليه ذلك الاطراء مال اليه وصافحه وقال له لا بل انك صديق وأعز من صديق وما نحن في معرض الانساب وانما يفضل أحدنا الآخر بما طبع عليه من مكارم الاخلاق والشهامة وصدق المودة ولقد رأيت فيك من ذلك ما يعز مثاله

فاطرق سلمان خجلاً ومشيا حتى دخلا الحجرة وكل منهما يتوقع سماع حديث الآخر فلما استتب بهما المقام قال حماد أين كان مقامك كل هذه المدة وما الذي جاء بك الى هنا حتى التقينا على هذه الصورة

قال سلمان ان لقاءنا يا سيدي لم يكن على سبيل الصدفة ولكنني قطعت القفار وأطلت البحث حتى علمت بمقرك وجئت على ما ترى . وقبل سرد حديثي الطويل أبشرك بموت ثعلبة

فتنهد حماد وقال لقد عرفت ذلك يا سلمان ولكنه جاءنا متأخراً وقد كادت تنقطع منا الآمال

فقال سلمان وكيف ذلك

قال لاني سمعت بمقتل ثعلبة وفرار جبلة في وقت واحد في هذا اليوم

قال سلمان وأي فرار

قال لقد تحققت فرار الامير جبلة من بيت المقدس باهله الى حيث لا يعلم أحد وقص عليه مختصر الحديث من يوم مجيئه الى دمشق وسقوطها وسماعه بمقام هند في بيت المقدس وما سمعه من قيم الدير

وكان سلمان شاخصاً ببصره مصيخاً بسمعه حتى اتى على آخر الحديث فامتقع لونه وظهرت عليه مظاهر الاسف والفشل ولبث صامتاً كأنه أصيب بصدمة وكاد الدمع يتناثر من عينيه ثم تنهد وقال ألم تعلم الى أين سافر جبلة يا سيدي

قال كلا ولولا ذلك لهان الامر

قال سلمان لا تيأس يا مولاي اني غير تارك وسيلة لا استخدمها في سبيل البحث عنه ويكفينا الآن اننا تخلصنا من ثعلبة

فقال حماد وكيف عرفت بقتله ومن أهداك الى مكاني

قال ستعلم ذلك من سياق حديثي عن سبب تغيبي عنك

قال اقصص علينا خبرك

قال تركتكم في بصرى وجئت اليرموك فشهدت حربها وكان الامير جبلة في جملة المحاربين فلما عقد لواء النصر للمسلمين وقد علمت أن هنداً في دمشق هممت بالمسير اليكم ثم حدثتني نفسي أن استطلع مقاصد جبلة وكان قد فرّ الى حمص برجاله وفيهم ثعلبة فما التقيت بهم حتى أمروا بالمسير لملاقاة المسلمين في اجنادين فسرت اليها وشهدت موقعة هائلة وقعت بين الروم والعرب هناك تشيب لهولها الولدان وفي تلك الواقعة قتل ثعلبة وفشل جند الروم وفر الغساسنة. وكنت قد سمعت بحصار دمشق فآن لي أن اسير اليكم بالخبر فأسرعت الى بصرى فلم أجد أحداً منكم فظننت الراهب الشيخ ينبئني بخبركم فسرت اليه فاذا هو قد مات فأسفت لوفاته لعلمي انه لو كان حياً لهداني الى مقركم فمكثت في بصرى مدة ابحث عنكم واسأل كل من عرفته فلم يرشدني مرشد فظننتكم انكم في دمشق ولكنني استبعدت ذلك لما علمت من حصارها ثم ما لبثت أن سمعت بسقوطها فهممت بالمسير اليها لعلي أرى احداً استطلع منه خبركم وفيما

انا اهتم بذلك رأيت جنداً من المسلمين قادماً الى بصرى فقلت لعلي اتنسم منه خبراً فلقيت أميره مالك بن الحارث بن هشام وقد وجهه ابو عبيدة اميراً على حوران بعد سقوط دمشق[١] وكان الحارث بن هشام والد الامير مالك قد جاء مع ابي عبيدة أميراً في بني مخزوم لحصار دمشق[٢] فقتل في بعض الوقائع فلما سقطت دمشق تعين ابنه مالك أميراً على حوران ليجند الجند الذي يقدم من الحجاز مدداً لابي عبيدة في حروبه بالشام[٣]

فلما وصل هذا الجند الى بصرى تمكنت بطرق مختلفة من الاجتماع بالامير مالك فاخبرني عما كان من نزولكم على أبي عبيدة في الجابية والمهمة التي انفذك بها هذا الامير الى حاكم دمشق الى أن انبأني بخروجك الى بيت المقدس وخروج الامير عبد الله الى العراق فهرولت حتى أتيت هذه المدينة وما زلت أبحث عن مقرك حتى علمت اليوم أنك مقيم في هذا الدير وانك خرجت منذ الصباح فاقمت هنا في انتظارك حتى أتيت فاحمد الله على سلامتك وأرجو أن نلتقي بسيدي عبد الله قريباً

فقال حماد لقد نفذ الصبر يا سلمان واحتملت من غدر الزمان ماتعلم واراني قد مللت هذه الحياة المحفوفة بالمكاره الممزوجة بالمشاق ويخال لي ان الله لم يكتب لي نصيباً بهند مع ماتعلمه من تعاقد قلبينا . قال ذلك وترقرقت الدموع في عينيه . فثارت الحمية في رأس سلمان حتى كاد يتقد غيرة ونظر الى حماد وقال دع ذلك اليَّ يا مولاي واتكل على الله واذا كانت لك على أبي عبيدة دالة فلنذهب اليه لعلنا نستطلع منه خبراً

فقال حماد ان لي عليه دالة عظمى ولقد أصبح بعد ما تم على يدي من صلح الشام كثير الوثوق بي حتى أشار يوم قدومي الى بيت المقدس الى انه

(١) تاريخ الاعيان في جبل لبنان (٢) الواقدي (٣) والحارث ابن هشام هو جد الامراء الشهابيين من عشائر لبنان ويقال انهم سموا بالشهابين نسبة الى قرية شهباء من قرى حوران أقام بها مالك بعد ذلك (ذكره تاريخ الاعيان نقلا عن مجلات محكمة صيدا الشرعية)

ربما يحتاج اليَّ فيها مثل حاجته في دمشق فلا أظنني اذا استعنته في البحث عن جبلة الا فاعلاً ما أريد

قال سلمان وأين هو الآن

قال تركته في دمشق يبعث البعوث لفتح ما بقي من بلاد الشام

قال اذا أذنت ان نذهب اليه غداً فعلنا

قال حسناً

فقال سلمان والاهتمام ظاهر على وجهه أتقدم اليك يا مولاي فيأمر ارجو ان تطيعني فيه

قال وما هو

قال ارجو اذا نحن ظفرنا بجبلة هذه المرة ورأينا منه تردداً أو سمعنا منه وعوداً اذ لا نضيع الوقت في الانتظار والمماطلة عبثاً

قال حماد وما معنى ذلك

قال معنى ذلك يا سيدي ان تأخذ هنداً من بين يديه أراد هو أو لم يرد

فضحك حماد وكان قد قضى زمناً لا يضحك وقال سنرى في ذلك يا سلمان

وقضيا بقية ذلك اليوم في الاحاديث المتنوعة وباتا على نية الاهتمام في الركوب الى دمشق في الصباح

الفصل الثالث والاربعون

حصار بيت المقدس

ولما اصبحا أخذا يهمان في الخروج وكان ذلك اليوم من الاحاد فقال حماد هلم بنا ندخل كنيسة القيامة نتبرك بسماع الصلاة قبل ذهابنا فخرجا حتى أتيا الكنيسة فرأيا جماهير الناس في صحنها ينتظرون قدوم البطريرك لاقامة الصلاة فوقفا بينهم فلم يسمعا من أحاديثهم الا ما يتوقعونه من قدوم العرب

لفتح بيت المقدس ثم ماج الناس وتزاحموا يسابق بعضهم بعضاً فعلما أن البطريرك قادم ولم تمض مدة حتى أطل بموكبه يتوكأ على عكازه يحف به الاساقفة والقسيسون وقد أوقدت الشموع وفتح الناس طريقاً في وسطهم مر بها البطريرك وهم يتبركون بلمس ردائه حتى دخل الكنيسة فتبعوه حتى وقف عند الهيكل فبدل ثيابه بما يلبسه البطاركة أثناء الصلاة وعلى رأسه تاج مرصع بالحجارة الكريمة وعلى كتفه رداء مزركش بالذهب والفضة وفي عنقه صليب مرصع يتدلى على صدره بسلسلة من الذهب وقد أوقدت الشموع واحرق البخور وعلت أصوات المرنمين والمصلين ثم وقف البطريرك على عرشه وهو كرمي من العاج مزين بالفسيفساء الجميلة والتفت نحو الجماهير فعلموا انه يهم بالكلام فاصغوا اليه فقال بعد البركة

« اعلموا معاشر النصرانية ان رجال الحرب الحجازيين الذين قد سمعتم بقدومهم هذه البلاد واستيلائهم على بصرى ودمشق قد استفحل امرهم حتى فتحوا حلب وحمص وبعلبك وقيسارية وقنسرين وانطاكية (١) وغيرها وقد بلغني في هذا الصباح أنهم قادمون الى هذه المدينة المقدسة بجند كبير . وقد بلغكم على ما أظن خروج مولانا الامبراطور هرقل من بلاد الشام الى القسطنطينية لاحوال اقتضت ذلك وقد فوض الينا التصرف في امر هذه الحرب بالتي هي احسن ففاوضنا حاكم هذه المدينة فرأينا من الحكمة أن لا ندع لاولئك العرب سبيلاً لتخريب شيء من ابنيتها المقدسة فان فيها كنوز النصرانية بل ندافعهم بالامر الممكن فاذا رأينا خطراً في مقاومتهم عقدنا معهم صلحاً نحفظ به الارواح والاموال ونستبقي كرامتنا لا كما فعل اهل دمشق . فما علينا الا ان نصلي الى الله أن يؤيدنا بالنصر في الدفاع عن قبر ابنه المخلص وهذه حصوننا متينة وعندنا العدة والرجال فانبذوا الشقاق واطيعوا أولي الامر واعلموا ان الله لم يمكن هؤلاء العرب من بلادنا الا لما اردناه من الانغماس في دنيانا والاشتغال عن طاعة الله بالشقاق والانقسام فلتجتمع قلوبكم ولندافع جهد طاقتنا والله يفعل ما يشاء »

(١) ابن الاثير

فلما انتهى البطريرك من خطابه ضج الناس وهم بين مصوب ومخطىء اما حماد فلما انقضت الصلاة خرج وهو يقول لسلمان لم تعد ثمت حاجة بنا الى دمشق فاننا لا نلبث ان نرى ابا عبيدة هنا ويلوح لي انني سأخدمه في هـذه المدينة خدمة اعظم شأناً من خدمتي في دمشق لان اهلها على ما يظهر اقرب الى الصلح من الدمشقيين . وسار الى مرتفع من المدينة يطل على ضواحيها وقضيا بقية ذلك اليوم يتشوفان لعلهما يريان جند العرب قادمين واهل المدينة يتأهبون للدفاع وفي صباح اليوم التالي رأيا الغبار يتصاعد في الافق وبانت من تحته اعلام المسلمين وفي مقدمتها راية العقاب فعلم حماد انهم رجال خالد بن الوليد وفي اليوم التالي جاءت فرقة اخرى نزلت في جانب آخر من المدينة وما زالوا يرون كل يوم فرقة تأتي باعلامها وخيامها وتنزل في ناحية من المدينة حتى صارت عدة الفرق سبعاً كل واحدة منها خمسة آلاف وجملة الجند ٣٥ الفاً عليهم سبعة قواد عرف حماد بعد ذلك انهم خالد بن الوليد وشرحبيل والمرقال ويزيد والمسيب وقيس المزادي وعروة بن المهلهل [١] فلما تحقق حماد وسلمان انحصار المدينة على هذه الصورة جعلا يبحثان عن ابي عبيدة لعله جاء معهم فلم يريا رايتـه هناك ولـكن حماداً كان يظن ان لا بد من حضوره فتح تلك المدينة

وقضيا اياماً يترددان بين اسوار بيت المقدس والدير يستطلعان مقـاصد الروم فرأيا الخوف مستولياً على الخاصة اما العامة فـكانوا لا يزالون مضرين على الدفاع فرموا المسلمين بالنشاب عن الاسوار فاجابهم المسلمين بمثلها ومضت ايام والحرب سجال بين الجانبين حتى مل حماد الانتظار وصمم على الخروج الى الشام لملاقاة ابي عبيدة وسؤاله عن جبلة فقال له سلمان ان الطريق لا تخلو من الخطر يا مولاي واخشى اذا خرجنا من المدينة ان يستغشنا اهلها فيريدوا بنا سوءاً والا فليكن خروجنا بحيلة فتربصا بضعة أيام وهم في كل يوم يقفان في مشارف المدينة يطلان على ما وراء الاسوار من السهول والمسالك فرأيا يوماً جيشاً جديداً قادماً من جهة دمشق عرفا انه جند أبي عبيدة وفيهم رايته

(١) الواقدي وذكر ابن الاثير عمرو بن العاص وبين روايته ورواية الواقدي تباين وكان ذلك في السنة الخامسة عشر للهجرة

فاستبشر حماد وقال قد آن الوقت ياسلمان فلنسع في سبيل الى الخروج فما الرأي

قال الرأي أن نحرض حاكم المدينة على مخابرة العرب بشأن الصلح فلعله أن يأذن بخروجنا أو يخرج أحدنا للمخابرة

قال حماد ومن يوصلنا اليه وأنا لا أعرفه وهو لا يعرفنا ولا يثق بنا

قال سلمان دع ذلك اليَّ فاني أدبره باذن الله . وأطلعه على ما ينوي اجراءه

الفصل الرابع والاربعون

صلح بيت المقدس

ورجعا الى الدير ولبس سلمان احسن لباس عنده وسار يلتمس الحاكم فقيل له انه عند البطريرك في الكنيسة فسار اليه فرأى الخدم والحاشية وقوفاً امام غرفة الاستقبال لا يأذنون لاحد بالدخول فتقدم الى كبيرهم وقال له اني آت بمهمة ذات بال الى حضرة الحاكم فاستأذنه بالدخول عليه . فاستأذنه فاذن له فدخل سلمان فاذا هو في غرفة قد خلا فيها البطريرك والحاكم وعلى وجهيهما دلائل البغتة وكأنهما كانا في جدال فسجد بدخوله امام البطريرك فقبل يديه ثم قبل يدي الحاكم ووقف متأدباً فاذن له بالجلوس فجلس فقال له الحاكم وهو مقطب الوجه ما غرضك

قال ان غرضي يا مولاي سلامة هذه المدينة من سلاح الاعداء وصيانة قبر السيد المسيح من الاهانة والاحتقار

قال ومن أنت

قال أني تابع لامير من امراء العراق كان في جملة من شهد فتح دمشق وتوسط في صلحها بين الروم والعرب ولولا توسطه لاهرقت الدماء وخربت تلك المدينة وله مع أمراء جند المسلمين معرفة ودالة

فقال الحاكم أتريد أن نلتمس الصلح من عند نفسنا ونحن لم نبد دفاعاً بعد

فقال سلمان كلا يا سيدي أنا انا أعرض عليكم الامر عرضاً ولا غرض لي فيه سوى حجب الدماء

فقال البطريرك بورك فيك يا بني ولكننا لا نرضى بما رضي به أهل دمشق فان في بيت المقدس قبر سيدنا ومخلصنا وما تسليمها بالامر السهل

فقال سلمان اذا امر مولاي بسماع رأيي لا أظنه الا راضياً به

قال قل

قال اري انكم اذا خابركم هؤلاء العرب بامر الصلح ان لا ترضوا بعقده على يد أحد منهم اجلالا لمقام هذه المدينة المقدسة وحفظاً لمنزلتكم ولكنكم تطلبون ان يتم ذلك على يد أمير المسلمين الاكبر وهو سلطانهم وخليفتهم ومقامه في يثرب بالحجاز فاطلبوا أن يكون الصلح على يده فاذا رضوا به وأتى الخليفة بنفسه من كرسي ملكه الى هنا كان في ذلك حفظ لكرامة هذه المدينة وامتيازها عن كل ما فتح من مدن الشام قبلها

فامعن البطريرك بفكرته قليلا ثم قال اين هو مولاك الامير

قال هو في منزله هنا فاذا أمرتم باستقدامه فعلت

فامره باستقدامه فذهب سلمان وقد سر بنجاح مهمته حتى أتى حماداً وكان في انتظاره فلما قص عليه ما دار من الحديث نهض فلبس لباس الامراء وسار مع سلمان حتى دخل على البطريرك والحاكم فلما رأياه استأنسا بطلعته وما يجلى في وجهه من المهابة والجلال فاذنا بجلوسه ثم قال البطريرك هل تعرف قائد جند هؤلاء العرب

قال نعم أعرفه جيداً ولي معه صداقة

قال هل انبأك تابعك بما استقدمناك بشأنه

قال نعم وهو الامر الذي أراه انا ايضاً وقد شهدت حرب هؤلاء في دمشق وبصرى وغيرها ورأيت من ثباتهم وصبرهم ما لا أقول أن الروم يعجزون عن مثله ولكنهم قد يقلقون راحة الناس فتقف حركات الاعمال بلا فائدة وخصوصاً بعد ان رسخت اقدامهم في كثير من البلدان وزد على ذلك أن السبيل الذي تطلبون مخابرتهم به يحفظ مقام هذه المدينة وكرامتها الي

الا بد اذ لا يخفى على حضرتكم ان امير المسلمين المقيم في يثرب رجل عظيم جداً قد اقر بعظمته القريب والبعيد وهو عندهم في ارفع منزلة بعد نبيهم لانه خليفته والقائم بامره ولم يسبق انه قدم هذه البلاد لمثل هذا الشأن فقدومه بنفسه على ما ذكرت امتياز خاص ونظراً لما لي من الصداقة لدى الامير أبي عبيدة كبير أمراء هذا الجند سأحبب اليه أن يجيب طلبكم ولا أظنه الا فاعلاً

فالتفت البطريرك الى الحاكم كأنه يستشيره فقال الحاكم لا بأس من ذلك غير اني لا أرضى أن يفهم هؤلاء اننا خائفون أو اننا نطلب الصلح لعجزنا عن القتال

فابتدره حماد قائلاً لا تخف يا مولاي فاني اذا خابرتهم انما أجعل ذلك من عند نفسي على أسلوب ليس عليكم منه بأس غير اني التمس أن يصحبني من يخرجني من الاسوار لئلا يستغشني احد من رجالكم

فقال الحاكم لك علينا ذلك ونحن نطلب أن يبقى تابعك هذا هنا ريثما تعود

قال لا بأس بذلك وخرج حماد حالاً فركب جواده ومعه بعض أهل القصر حتى أوصلوه الى باب المدينة فخرج الى معسكر ابي عبيدة فلما رآه أبو عبيدة استقبله باسماً ورحب به وقال له ألعلك جئت بمهمة أخرى

قال اني لا آلو جهداً يا مولاي في كل ما يؤول الى حجب الدماء

فقال ابو عبيده هل جنح أهل بيت المقدس الى السلم

قال نعم يا سيدي أظنهم يريدون الصلح ولكنني فهمت أنهم رفعة لمقام هذه المدينة المقدسة يريدون أن يكون صلحها عن يد خليفتكم الامام عمر ابن الخطاب . ألا ترى انه يقدم اليها بنفسه وهي مدينة مقدسة يحترمها كل طوائف الناس

قال لا أظنه الا قابلاً بذلك . وما بعد قبوله

قال اذا اكدت لي قبوله جعلت المخابرة في ذلك رأساً بينكم وبين حاكم

المدينة أو بطريركها على مشهد من الناس وأني انما جئت توطئة للامر بمهمة خصوصية

فاثنى أبو عبيدة عليه وقال له قد سعيت سعياً حسناً بورك فيك واذا تم الصلح وقدم أمير المؤمنين الى هنا سأقدمك اليه واذكر له شهامتك

قال ان ذلك شرف كبير احسبني سعيداً اذا حصلت عليه وأتقدم الى مولاي الامير بسؤال ارجو أن لا يثقل عليه

قال قل وما هو

قال أتعرف جبلة بن الايهم أمير الغساسنة الذي كان يحاربكم مع الروم

قال نعم أعرفه وما حديثه

قال ان لي معه أمراً يهمني وقد كنت أحسبه في بيت المقدس فجئت كما علمت فلم أجده ولا أحداً من اهله وقيل لي انهم كانوا هناك وخرجوا خروج الفارين لا يعلم أحد بمقرهم فهل يعلم مولاي شيئاً عن هؤلاء الغساسنة

قال ابو عبيدة ان الذي أعرفه من أمر هذا الامير انه خرج من بلاد الشام جملة هو وأهله وقد بثثت العيون عليه فاذا عرفت مقره انبأتك به أو ربما سمعت بقتله بسيفنا الا اذا سلم صاغراً

قال وكيف تقتلونه وهو انما يحارب بسيف مولاه الامبراطور ولعله اذا خير لا يختار غير التسليم

قال أما اذا سلم فهو في ذمتنا له ما لنا وعليه ما علينا والا فان السيف بيننا وبينه واخشى مع ذلك أن يكون قد قتل في بعض الاماكن ولم يعلم به أحد

فاضطرب قلب حماد وخاف أن يفتك الحجازيون بجبلة وأهله اذا التقوا بهم في مكان فوقع في حيرة ونظر الى ابي عبيدة وهو يهم أن يخاطبه في الامر ويوقفه الحذر

فلحظ أبو عبيدة ذلك فقال ما لي أراك تحاذر ان تخاطبني فهل يسوءك قتل جبلة

قال نعم يسوءني يا سيدي

قال وهل بينكما قرابة

قال وقد تلجلج في الجواب نعم بيننا شبه قرابة

قال وأي قرابة بينكما وانت من لخم وهو من غسان فالظاهر انها قرابة المصاهرة

فقال وهو مطرق نعم يا مولاي ثم رفع نظره اليه وقال هل يأذن لي الامير بامر اتقدم اليه فيه

قال قل ما بدا لك

قال ان امر جبلة يهمني كثيراً وحياته افتديها بحياتي

قال وما معنى ذلك اني لم افهم السر فاذا كانت بينكما هذه العلاقة فما بالك لم تدافع عنه في شيء ولا ذكرته امامي في مثل هذا المرض قط

قال ان الاحوال لم تلجئني الى ذلك قبل الآن اما وقد آنست فيك هذا هذا الانعطاف فاتجاسر في بثك امراً يهمني كتمانه الآن ولكنني ابسطه لديك عساه ان يعود عليَّ بالفائدة

قال قل ما هو

قال اعترف لمولاي الامير أيده الله ان لي في جبلة مأرباً يهمني كثيراً ولا أخفي عنك اني خاطب ابنته وقد قضيت بضعة أعوام في انتظار وقت القران فحالت الحروب بيني وبينه وكان آخر عهدي بالامر ان اجتمع به وباهله في بيت المقدس فلما جئتها رأيتهم قد رحلوا الى مكان لا يعلمه أحد فجئت استفهم عن مكانهم . قال ذلك وقد ظهرت على وجهه علامات الاهتمام يمازجها الحياء

فقال أبو عبيدة وهو ينظر الى وجهه ويراعي حركاته « كيف هان على ملك غسان أن يزوجك ابنته وأنت غريب ولست من سلالة الملوك »

فتغير حال حماد وعلا وجهه الاحمرار لما تذكر من حقيقة نسبه ولكنه تجاهل وقال « لقد عانينا في سبيل ذلك مشقة ولعله السبب في تأجيل الاقتران الى اليوم »

فقال أبو عبيدة طب نفساً يا حماد واعلم أني نصيرك في الحصول على مرامك ولا يحق لجبلة أن يفاخرك في النسب وأنت شهم همام قد رفعتك همتك الى

أعلى من مقام الملوك وها أني باث العيون والارصاد للبحث عن جبلة وسأحمله على ما تريد قهراً

فاثنى حماد على غيرته وشكر له وهمَّ بوداعه على أن يعود الى حاكم بيت المقدس بنتيجة الرسالة . فقال له ابو عبيدة تمهل ريثما اشاور الامراء في الامر

وأمر فجاء خالد وسائر الامراء وخرج حماد فعقد أبو عبيدة مجلساً شاور فيه أصحابه فلما انفض المجلس استدعى حماداً فدخل على أبي عبيدة ولم يكن في الخيمة غيره فرآه عابساً فقال له ما بال مولاي مقطب الوجه

فقال ليس بي بأس ولكنني لقيت من الامراء رغبة في اجراء الصلح على يدنا استعجالاً للفتح . لان استقدام الخليفة من المدينة يستغرق زمناً طويلاً وقد يمتنع عن المجيء لما يحول بينه وبين ذلك من المشاغل الهامة

فادرك حماد أن البادىء في ذلك الرأي خالد بن الوليد لما يعلم من عجلته ورغبته في الفخر فقال أظن الامير خالداً اكثر الامراء ميلا الى هذا

فلم يجب أبو عبيدة في بادىء الرأي فصمت حماد ولبث ينتظر الجواب فقال أبو عبيدة عد الى حاكم ايلياء (١) وقل له اننا قبلنا باجراء الصلح على يد امامنا الخليفة أمير المؤمنين واذا جاءهم أحد من الامراء بغير ذلك فهم مخيرون في القبول أو غيره

فنهض حماد فودعه ورجاه بالسعي في البحث عن جبلة ثم خرج يريد بيت المقدس

فلقيه سلمان فاخبره الخبر فسر لنجاح مهمته وقال له هلم بنا الى الحاكم فسارا اليه ولما اقبلا عليه استطلعهما الخبر فقص حماد ما دار بينه وبين أبي عبيدة

فقال الحاكم لا نصالح أحداً غير الامام

فقال البطريرك (وكان حاضراً) وكيف نميز بين الامام واحد الامراء لو جاءنا باسمه

فقال سلمان أني عالم بصفة امامهم وقد شاهدته بنفسي غير مرة في المدينة يوم شهدت فتح مكة وكان لا يزال اميراً كسائر الامراء

(١) بيت المقدس

وفي اليوم التالي صعد البطريرك والحاكم الى اسوار المدينة ومعهما حماد وسلمان متنكرين فلبثوا ينتظرون ما يكون من أمر العرب فجاءهم رسول على جواد خاطبهم من أسفل السور يطلب اليهم التسليم فقال البطريرك اننا نقبل بالصلح اذا كان على يد أعظم امرائكم

فمضى الرسول وبعد هنيهة عاد ومعه فارس آخر علموا من لباسه وحاله انه من الامراء فقال الرسول هذا هو كبير امرائنا فصالحوه

فنظر حماد فاذا هو أبو عبيدة بنفسه فعلم أن رأي امرائه غلب على رأيه فجاء يطلب الصلح بنفسه فلما رآه البطريرك استطلع رأي حماد عن الرجل فقال هذا هو ابو عبيدة كبير امراء جند الشام

فقال أليس هو ملكهم الكبير

قال كلا

فنظر البطريرك الى أبي عبيدة وقال اننا لا نصالح أحداً غير خليفتكم المقيم في المدينة فاستقدموه واحجبوا الدماء

فعاد ابو عبيدة وفي اليوم التالي جاءهم خالد بمثل ذلك فابوا مصالحته (١) وأصروا الا أن يأتيهم عمر بنفسه وكان الفصل شتاء وقد تكاثرت الامطار والعواصف فامتنع على المسلمين الثبات هناك مثل ثباتهم في دمشق الشام لان أهل بيت المقدس مقيمون في البيوت والعرب في الخيام على أنهم صبروا على مناجزتهم أربعة أشهر بين حرب ونضال ومخابرة والروم مصرون على أن يكون الصلح على يد الامام عمر فلم يرَ ابو عبيدة بداً من استقدامه فكتب اليه بذلك

أما حماد فكان يتردد الى معسكر ابي عبيدة يستطلع ما حدث من أمر جبلة ويستحث اباعبيدة على استقدام عمر قياماً بوعده فمضت الاشهر الاربعة ولم يقف لجبلة على خبر

أما سلمان فانه لم يطق صبراً في انتظار ابحاث ابي عبيدة فخرج بنفسه يستخبر الناس ممن ظن انهم يعلمون شيئاً عن جبلة وأهله فلم يسمع الا اخباراً متضاربة فمن قائل انهم فروا الى العراق أو مصر أو غيرها وقال آخرون انهم

---

(١) الواقدي

لا يزالون مختبئين في بعض بلاد الشام ولكن الاكثرين على انهم فروا الى العراق فعاد الى حماد بتلك الاخبار المتضاربة فلم تغنه شيئاً فاشتد به اليأس وضاقت دونه السبل ولم يكن ير تعزية الا بلقاء أبي عبيدة . ففيما هو عنده ذات يوم وسلمان ينتظر خارجاً اذ دخل عليه رجل منبسط الوجه كأنه جاء ببشارة فقال ابو عبيدة ما وراءك

قال ان بالباب رسولا من أمير المؤمنين جاء يخبرنا بقدومه

قال فليدخل . فدخل وآثار السفر بادية على وجهه وعلى ثيابه

قال له أبو عبيدة أين تركت امير المؤمنين

قال تركته راكباً من دمشق وأسرعت لبشارتكم

فقال ابو عبيدة ما باله ابطأ علينا

قال انما ابطأ لما اعترضه في طريقه من المسلمين يستفتونه ويتقاضون اليه وهو لا يرى الا سماع أقوالهم والعدل بينهم

قال هكذا يكون الامراء بورك ببطن حملك يا عمر . ثم بعث الى خالد وسائر الامراء فجاؤوه فانبأهم بقدوم عمر وقال فلنذهب للقائه والتفت الى حماد وهمس في اذنه هلم بنا لعلنا نسمع من أهل المدينة خبراً عن صاحبك جبلة

فركب الامراء وركب حماد ومعه سلمان وقد شغله ركوبه هذا عن اهتمامه بجبلة وخبره وكان الامراء بلباس الديباج والحرير (١) وقد امتطوا خيولاً فوقها السروج الفضة (٢) مما غنموه من دمشق الشام وغيرها الا ابا عبيدة فقد كان على قلوصه (ناقته) وفوقه عباءة قطوانية وخطام الناقة من الشعر وساروا وقد تركوا الجند في مكانهم حول أسوار بيت المقدس . وكان حماد مشتاقاً لمشاهدة عمر بعد ان تولى أمر المسلمين وهو يتوقع ان يراه في موكب حافل كما تعود أن يرى أو يسمع عن ملوك الروم والفرس مما يبهر النظر ويستوقف البصر . فكان كلما مشوا قليلا تشوف عن بعد لعله يرى الغبار أو نحوه مما يتقدم المواكب فلم يرَ شيئاً

---

(١) ابن الاثير (٢) الواقدي

الفصل الخامس والاربعون

الامام عمر بن الخطاب

وفيما هو يتشوف رأى هجناً قادمة فقال في نفسه هذه هي طليعة الموكب قد جاءت ببشارة فلما اقتربت رأى في مقدمتها هجيناً أحمر عليه من الجانبين غرارتان وامام الرحل قربة للماء ووراءه جفنة للزاد وقد امسك بخطام الناقة بدويّ ماشٍ . وعلى الناقة رجل أبيض الوجه مع حمرة تعلوه شديد حمرة العينين حسن الخدين والانف خفيف العارضين ضخم الكراديس على رأسه عمامة وعلى كتفيه عباءة من صوف عليها بضع عشرة رقعة بعضها من الجلد والبعض الآخر من الصوف (١) يحمل بيده درة هي عبارة عن سوط عريض من الجلد . فتحير حماد في امر الهجان والتفت الى سلمان فابتدره قائلاً هذا هو الامام عمر يا مولاي . ثم ما لبث ان رأى ابا عبيدة ترجل عن ناقته واسرع نحوه وترجل عمر أيضاً وتعانقا فتحقق حماد انه الامام عمر فعجب لزهده . ثم ما لبث ان سمع عمر ينتهر بعض الامراء فتقدم ليسمع كلامه فاذا هو يؤنبهم لما اتخذوه من لباس الديباج والحرير وقال لهم ما بالكم تمسكتم بالدنيا وغفلتم عن الآخرة ما هذه الملابس انها ألبسة اهل الترف وانتم في سبيل الجهاد قال ذلك وحثا عليهم التراب . فقال ابو عبيدة انهم يا أمير المؤمنين انما اتخذوه كساء خارجياً وتحته السلاح (٢)

ثم نادى ابو عبيدة حماداً فاقبل فقدمه الى عمر وقال له انه شاب من امراء العراق كان لنا نصيراً في حصار الشام وواسطة في صلحها

فرحب به عمر والتفت الى ابي عبيدة وقال لقد اذكرتني بجبلة بن الايهم الغساني ألم يصلك كتابي بشأنه

قال كلا يا مولاي وما خبره

---

(١) الواقدي (٢) ابن الاثير

قال له خبر طويل سأقصه عليك بعدئذ وهلم بنا الآن الى بيت المقدس . وركبوا جميعاً

أما حماد فلما سمع اسم عمه جبلة خفق قلبه وتاق لسماع حديثه ولكنه لم يجسر على التماس ذلك فاضطر للانتظار الى فرصة اخرى

وما زالوا سائرين حتى أشرفوا على بيت المقدس وحولها معسكر العرب ورأوا الاعلام عن بعد ولما اقتربوا من الخيام سمعوا ضجيج الناس ورأوا جماعات منهم مهرولين لملاقاة عمر فرحب عمر بهم واثنى على غيرتهم وشكرهم لحسن جهادهم وذكر ما فتح من المدن على أيديهم حتى اذا وصلوا معسكر أبي عبيدة نزل عمر في فسطاط من شعر نصبوه له هناك ونزل الامراء معه وتزاحم الناس للتيمن بمشاهدته وسماع كلامه . اما هو فجلس على التراب وجلس الجميع معه وحماد يعجب لزهده وتواضعه

ثم نهض والقى عليهم خطاباً ولما انتهى جلس الجميع يتحدثون بأمر الفتح وما لقوه من الجهد وما كان من فوزهم وكلهم فرحون وعلامات الافتخار ظاهرة على وجوههم

وكان حماد ينتظر ان يجري حديث جبلة لعل عمر يقص خبره فاشتغلوا عن ذلك باحاديث الفتح ثم نودي بالصلاة

فخرج حماد وقد مل الانتظار فقال ما قولك يا سلمان هل نسأله ليقص علينا خبر جبلة

قال لاحاجة بنا الى ذلك وانما يكفينا ان نسأل ابا عبيدة وهو يطلب اليه

قال حسناً وسارا الى أبي عبيدة بعد الصلاة فلما وقع بصره على حماد قال له غداً نسمع حديث امير المؤمنين عن جبلة واهل بيته اما الآن فاطلب اليك ان تسير الى حاكم هذه المدينة فتنبئه بقدوم امير المؤمنين وقل له ليخرج للصلح ومتى عدت من هـذه المهمة قدمتك الى مولانا الخليفة فتنال منه بركة وحظوة

فخرج حماد وسلمان فانبأا الحاكم والبطريرك بقدوم عمر فخرج البطريرك على الاسوار وطلب أن يرى عمر رأي العين

فعاد حماد بالخبر فركب عمر ناقته ومرقعته وتقدم نحو الاسوار وابو عبيدة الى جانبه وكان حماد قد عاد الى الاسوار وأشار الى البطريرك أنه هو الرجل فاستغرب ما رآه من سذاجة لباسه وكثرة زهده واعتبر بما انغمس فيه الروم من الترف والرخاء وما أراد الله من خضوعهم لاولئك العربان . ثم نظر الى أعيان المدينة وكانوا وقوفاً معه على الاسوار وقال « اليكم يا أهل بيت المقدس هذا هو الرجل الذي تفتح بلادنا على يده فاخرجوا اليه واطلبوا صلحه واعقدوا معه الامان والذمة [1] » ففتحوا الابواب وكانوا قد ضاقوا ذرعاً عن احتمال الحصار وخرجوا أفواجاً وفيهم الرجال والنساء والشيوخ والاطفال وصاحوا بصوت واحد يستغيثون فلما رآهم عمر على هذه الحالة تخشع لله وسجد وهو على قتب بعيره ثم اناخ ناقته ونزل وقال للناس عودوا الى منازلكم ولكم الذمة والعهد

فعادوا ولم يقفلوا الابواب وعاد عمر الى معسكره وفي صباح الغد دخل عمر المدينة والناس يرحبون به وقد رفعوا أصواتهم بالترنيم والترتيل وفيهم القسس في ايديهم المباخر حتى أتى سراي الحاكم قرب كنيسة القيامة واجتمع اليه الحاكم والبطريرك وكبار أهل الدولة وعقدوا صلحاً اقروا به على أداء الجزية وأوصى بهم الامام عمر خيراً وهدأت الاحوال وسكنت القلوب [2] الا قلب حماد فانه ما زال يتقلب على جمر الانتظار والتردد

الفصل السادس والاربعون

جبلة بن الايهم

ومكث عمر في بيت المقدس عشرة ايام لم يخل يوماً واحداً من الوفود من سائر انحاء سوريا خصوصاً عظماء البلاد التي خضعت للمسلمين فانهم كانوا في اشتياق لرؤية الخليفة . وفي اليوم الخامس من دخوله وهو الجمعة خط عمر

(١) الواقدي (٢) فتحت بيت المقدس سنة ١٥ ه (ابن الاثير)

محراباً في المدينة وفي موضعه بنى جامعه بعد ذلك . ففي ذلك اليوم سار حماد الى أبي عبيدة وشكا اليه قلقه ورغبته في سماع حكاية جبلة عن لسان الامام عمر فاستمهله الى المساء وقال له ان أمير المؤمنين سيخرج من المدينة بعد صلاة العصر ليصلي العشاء مع سائر الامراء في فسطاطه ونقضي السهرة هناك فيقص علينا الخبر

وفي العصر خرج حماد وسلمان الى معسكر ابي عبيدة حتى اذا كان العشاء وصلى المسلمون سارا الى خيمة الامام عمر فلقيهما الحاجب فاستأذن لهما فدخلا وجلسا في بعض جوانب المكان وكانت الخيمة كبيرة وفيها زهاء خمسين رجلاً

وكان الجميع جلوساً على الثرى تمثلاً بامامهم الخليفة وبعد ان قرأ القراء بعض السور وتبرك الناس بذلك المساء تقدم أبو عبيدة الى الامام عمر أن يقص عليه حكاية جبلة بن الايهم ملك غسان وما كان من امره

فقال الامام عمر ماذا تعلمون عنه انتم

قال ابو عبيدة نعلم أنه فر باهل منزله الى مكان لا نعلمه

فتبسم عمر وقال أنه لم يفر ولكنه جاء المدينة بعد فتح دمشق يلتمس الدخول في الاسلام فقبلت منه ذلك فاعتنق الاسلام واقام بيننا في أهل منزله معززاً مكرماً واذنا له ان يبقى على ما اعتاده من فاخر اللباس من الحرير والديباج وركوب الخيل مسرجة بالسروج الثمينة عليها سلاسل الذهب في أعناقها واذا ركب وركبت حاشيته عقدوا اذناب الخيل فسارت تخطر بهم حتى لا تبقى واحدة من نساء المدينة الا وتخرج لمشاهدتهم (١)

ولكننا ما برحنا نرى فيه روح الاستبداد والظلم مما يأنفه عدل الاسلام، لان هؤلاء العرب المتنصرة عاشروا الروم واعتنقوا دياناتهم وتخلقوا باخلاقهم ولا يخفى عليكم ما في دولة هؤلاء الروم من التفاوت بين طبقات رعاياهم فيأكل القوي منهم الضعيف بغير وجه الحق فاراد جبلة أن يسير على ذلك فأوقفناه عند حده

(١) الاغاني ج ٢

ومما دعانا الى ايقافه خاصة حادثة جرت لرجل من فزارة مع جبلة وذلك أننا خرجنا مرة للحج وفيما نحن نطوف في البيت ومعنا جبلة وجمع غفير من المسلمين وفي جملتهم رجل من فزارة فوطيء الفزراي ازار جبلة فانحل الازار فغضب جبلة . ورفع يده وضرب الفزاري فهشم انفه فجاءني هذا الرجل يشكو ما ألم به. فبعثت الى جبلة فأتى فقلت ما هذا قال نعم اني هشمت انفه لانه تعمد حل ازاري ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف

فلما قال ذلك علمت انه يريد الاستبداد فقلت اعلم يا جبلة انك مخطيء وقد أقررت بما ارتكبته فعليك اما أن ترضي الرجل واما أن يفعل بك مثل فعلك به . فعظم ذلك على الغساني واستغرب وقال وماذا . قلت آمر بهشم انفك كما فعلت

قال كيف ذاك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وانا ملك

قلت ان الاسلام جمعك وأياه فلست تفضله بشيء الا التقى والعافية

فقال وقد خاب ظنه كنت ظننت يا أمير المؤمنين اني اكون في الاسلام أمنع مني في الجاهلية

فقلت دع عنك هذا فانك ان لم ترض الرجل أقدته منك

فقال اذاً اتنصر

فقلت له ان تنصرت ضربت عنقك لانك قد أسلمت فان ارتددت قتلتك

فلما رأى ابن الايهم ما صممت عليه سكت ثم قال اني ناظر في ذلك ليلتي هذه

قلت انظر ما شئت . ثم انصرف ولم اعد أراه ولم أدر مقره . وقد كتبت اليك بشأنه والتمست أن نبحث عنه فهل علمت عنه شيئاً

قال ابو عبيدة كلا يا مولاي اننا قضينا أشهراً ونحن نبحث عنه فلم نقف له على خبر

الفصل السابع والاربعون

مشورة وذكرى

وكان حماد يسمع حديث عمر وهو شاخص ببصره يتطاول بعنقه وقلبه يخفق في انتظار آخر الحكاية فلما أتى عمر على آخر كلامه انقبضت نفس حماد وعظم عليه الامر وهمَّ بمخاطبة عمر يستطلعه رأيه في مصير جبلة وأهله فاقعدته هيبة المجلس ومقام الخليفة وما صدق ان ارفض الجمع حتى خلا بسلمان ووقف بالقرب من معسكر ابي عبيدة فقال حماد ما رأيك يا سلمان

قال لقد هان الامر يا مولاي والرأي عندي أن نبحث عن جبلة في الطريق بين المدينة والشام اذ لا أظنه اذا فر من الحجاز الا قادماً الى أطراف الشام أو البلقاء أو مكان آخر لم يفتحه المسلمون أو لعله يختبيء في بعض الاديار ولا بد له في كل حال من المرور بدير بحيراء ولو متنكراً فلنبحث عنه ونستخبر أهل الدير واذا اشكل الامر اكثر من ذلك قصدنا ناسك حوران فان له معرفة وكرامة

فتأفف حماد وتذمر ولكنه فكر في الامر فرأى كلام سلمان معقولا فظل صامتاً برهة وسلمان ينظر اليه ويتأمل حاله فرآه غارقاً في بحار الهواجس وقد تولاه الانقباض وغلب عليه اليأس فقال له ما بال مولاي لم يعتد بكلامي ألعلي مخطىء فيما أقول

قال لا أقول مخطئاً ونعم الرأي رأيك ولكنني افكر يا سلمان في هند كيف طال هذا الامد ولم يصلني منها علم ولم اسمع عنها خبراً مع علمها بذهابي الى بيت المقدس بعد فتح الشام

قال لا تلمها يا سيدي ألا تعلم انها فتاة لا تستطيع المجاهرة بسرها فضلا عما كانوا فيه أثناء فرارهم من الخوف والاهتمام وأقاموا في المدينة غرباء ثم عادوا فارين كما قد رأيت فهل تستطيع هند أمراً

فقال حماد لا أدري ولكنني اراني مقيد الفكر مغلول اليدين والامير

عبد الله بعيد عنا لا نعلم خبره ولا ما لاقاه في العراق

قال سلمان أما الامير عبد الله فانت تعلم انه من الحكمة والتعقل في ما لا نخشى فيه بأساً ولا يلبث أن يعود الينا وقد نال حظوة في عيني المسلمين ولـكن ... وصمت

فقال حماد ما بالك صمت قل ما في نفسك

قال سلمان ماذا أقول ونحن كما قلت مقيدو الفكر مغلولو الايدي

قال وماذا تعني

قال أعني يا مولاي اننا شغلنا بحروب الشام والتماس ملك غسان عن امر أنا أتينا هذه البلاد من اجله ولولاه لـكان مقامنا في العراق معاً ندافع عن دولة الفرس دفاعنا عن انفسنا

فانتبه حماد الى حكاية النذر وحقيقة نسبه وما له من الثأر على الفرس فقال لقد صدقت يا سلمان اننـا تقاعدنا عن ثأرنا وشغلنا بمهام انفسنا عن وصية والدي ووالله لو اني فرغت مشاغلي المتواترة وخلوت بنفسي يوماً واحداً لما بقيت في هذه الديار بل كنت أول شاخص الى العراق أشهد فتح المدائن عاصمة تلك الدولة الظالمة واني لواثق بقرب سقوطها لما نعلمه من بطش العرب وفساد نيات الفرس وانقسام حكامهم بعضهم على بعض

فقال سلمان اذاً نسير الى العراق . . .

قال حماد بصوت مختنق ونفس صغيرة « وهند » ونظر الى سلمان فكان لنظرته وقع السهام على قلب سلمان فنظر اليه وتبسم ثم همَّ به وضمه الى صدره وقال له ان هنداً في المقام الاول يا مولاي ثم الثأر

فتنهد حماد وقال لا بل الانتقام للملك النعمان قبل كل شيء هكذا أوصانا بصوته المنبعث من ظلمات القبر ولـكن . . . . قال ذلك وترقرقت الدموع في عينيه

فابتدره سلمان قائلا ان كلا الامرين مستدرك فلنبحث أولا عن مقر هند فاذا التقينا بها وكان السفر الى العراق مستعجلا وكان أجل الفرس قريباً اجلت الاقتران الى ما بعد الرجوع منها وسقوط دولة الفرس والا فانك

تتزوج ثم نسير . فقم بنا الى بيت المقدس وغداً نستطلع أخبار العراق ثم نسير للبحث عن جبلة وأهله في اطراف الشام وحوران ويفعل الله ما يشاء

فقال حماد حسناً ترى ولكن ذهابنا الى بيت المقدس في هذا الليل لا يخلو من المشقة فضلا عن الخطر وقد دعانا أبو عبيدة للمبيت عنده فلنبت هنا الليلة وغداً لناظره قريب

قال حسناً . وتحولا نحو الفسطاط وقبل الوصول اليه سمعا اصواتاً عرفا انها أصوات القراء يتلون القرآن والناس يصلون فتنحيا برهة حتى فرغوا من الصلاة فدخلا على أبي عبيدة فقال لهما أين ذهبتما وأنا أبحث عنكما منذ خروجنا من مجلس الخليفة

فقال حماد لقد كنا في شأن جبلة وخبره ولم يزدني حديث امير المؤمنين الا تلبكاً فلا أدري أين هو هذا الرجل الآن

فقال أبو عبيدة سنبحث عنه في سواحل الشام لعله يقيم في مكان هناك أو اذا كان قد خرج منها الى بلاد الروم أو مصر أو غيرها عرفنا خبره

فقال سلمان ونحن نرى أن نفتش عنه في أطراف الشام وحوران لعلنا نسمع عنه شيئاً في بعض الاديار . قال أبو عبيدة نعم الرأي رأيت وسيكون بحثنا وبحثكم معاً فمن استطاع أثراً اطلع الآخر عليه

فقال حماد وماذا تعلمون من اخبار العراق وفارس فان والدي لم يكتب اليَّ شيئاً منذ سفره

فقال أبو عبيدة ان ما أتانا به مولانا أمير المؤمنين يسر كل مسلم فان النصر معقود لواؤه لجنود المسلمين حيثما ولوا وجوههم وقد كان الامام عمر على موعد من موقعة هائلة بين المسلمين والفرس في القادسية فخرج من المدينة وهو في انتظار البريد بخبرها وقد أبطأ عليه فاوعز الى نائبه في المدينة اذا جاء بريد العراق أن ينفذه اليه في بيت المقدس حالا فنحن ننتظر ورود البريد (١) انتظار الظمآن لموارد الماء . وكلنا على يقين من نصرة رجالنا مهما تكاثرت جنود الفرس وافيالهم ودوابهم فما هم اشد وطأة من الروم بل نحن اشد

(١) ويقال ان معاوية أول من رتب البريد

وطأة على الفرس منا على الروم لان هؤلاء أهل الكتاب قد أوصينا بهم خيراً وأما الفرس فانهم مجوس يعبدون النار [١] فضلا عن اختلال احوال مملكتهم وتنازع دعاة الملك على كرسيهم فقد توالى على ايوان كسرى بضعة ملوك في عام واحد بعضهم نساء والبعض الآخر من الرجال وملكهم الآن يزدجرد بن شهريار بن كسرى انوشروان وهو ضعيف الرأي لا يستطيع القيادة فهل يعقل أن جنده يغلب جند امير المؤمنين عمر بن الخطاب . وعلى كل حال ان موعدنا من اخبار النصر قريب ان شاء الله

ثم امر بعض رجاله فاعدوا خيمة للضيفين فباتا تلك الليلة واصبحا وقد قام الامام للخطابة والصلاة فاذن المؤذنون وصلى المصلون فتنحى حماد وسلمان ومشيا خارج المعسكر يتحدثان في تلك الشؤون فوقع نظرهم على هجين قادم من عرض الافق بسرعة البرق فقال سلمان هذا هو صاحب البريد على ما اظن فوقفا فاذا به دار حتى أتى معسكر ابي عبيدة وترجل عند فسطاطه فأسرعا الى الفسطاط فرأيا أبا عبيدة خارجاً من خيمته ومعه الهجان وهو لا يزال بغباره وقد مشى وهجينه وراءه حتى أتوا فسطاط عمر فدخلوا جميعاً ودخل حماد وسلمان معهم فرحب عمر بهم وخاطب صاحب البريد قائلاً ما وراءك يا عبد الله فقال ما ورائي الا الخير ومد يده فاستخرج من بين أثوابه صندوقاً فتحه واستخرج منه ملفاً من جلد ناوله الى الامام عمر ففضه ودفعه الى بعض خاصته وقال اتله علينا لنرى ما كان من امر المسلمين في العراق

فتناول الرجل الكتاب ووقف وأخذ يقرأ والناس سكوت فاذا فيه :

الفصل الثامن والاربعون

وقعة القادسية

« الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب من سعد بن مالك أمير جند العراق أما بعد فاني اكتب اليك تفصيل واقعة القادسية التي فاز بها المسلمون على أهل

(١) ابن خلدون ج ٢

فارس واليك هي . جئنا يا أمير المؤمنين بجنود المسلمين ممن تعلم مع ما انضم اليهم من جند الشام وجملتهم جميعاً ٣٥٠٠٠ ونزلنا في القادسية بين العقيق والخندق بحيال القنطرة . والقادسية يا أمير المؤمنين واقعة في رأس بحيرة وراءها مضيق من البر يفصل بين البحيرة والفرات فأقمنا هناك شهرين ندافعهم تارة ونطاردهم أخرى حتى ملوا منا فكتبوا الى ملكهم يزدجرد وشكوا ما يقاسونه وقالوا انا أخربنا ما بيننا وبين الفرات ونهبنا الدواب والاطعمة . فبعث يزدجرد الى رستم كبير قواده وألح عليه ان يقدم هو بنفسه لقتالنا . فجاء وعسكر في ساباط . وقد كتبت اليك بذلك في حينه فكتبت الينا أن لا يكربنا ما يأتينا عنهم فاستعنا الله وأرسلنا نفراً من المسلمين الى يزدجرد في المداين يدعونه الى الاسلام أو الجزية أو السيف فاستقدم رستم اليه واستشاره فيما جاؤوا من أجله فلما سمع مقالهم هددهم وتوعدهم ثم وعدهم بقوت ومال وكساء فأجابوه بكلام شديد فأخرجهم من المداين مهانين فلما رأينا ذلك منهم جعلنا نغزو ما حولنا من البلاد والقرى نسوق أغنامها وأبقارها واسماكها وابلها . فلما بلغ رستم ذلك حمل بجند عدده مئة الف وعشرون الفاً (١) اربعون منها يقودها رجل اسمه الجالينوس والباقون يقودهم رستم فجاؤونا في هذا الجند الثقيل ومعهم الفيلة والخيول وكانوا لا يمرون ببلدة الا اساؤوا اهلها وشربوا خمورها وا كثروا من الفساد فيها فنقم الناس عليهم وقد علمنا من بعض أسراهم أنهم قضوا في انتقالهم هذا من المداين الى القادسية اربعة اشهر فلما وصلوا القادسية عسكروا حيالنا ورأينا معهم فيلة بعضها مشهور عندهم بالفتك كالفيل المسمى فيل سابور الابيض وغيره . فنظم رستم جيشه فجعل من الافيال ١٨ في الوسط و١٥ في المجنبتين ثم انفرد هو في مكان مشرف ينظر منه الى جندنا وبعث الينا أن نوافيه برجل منا يكلمه فأرسلت اليه واحداً فأخبرني لما عاد أنه دخل على رستم فاذا هو جالس على سرير من الذهب وبين يديه البسط والنمارق والوسائد المنسوجة بالذهب فلما وصل رسولنا بعباءته ودرعه وسيفه لم يبهره ما رآه هناك من بهارج الدنيا فقاد جواده فوق البسط وشق

(١) ابن الاثير

وسادتين وربطه بهما فسألوه ان يضع سلاحه فأبى حتى أقبل على رستم فابتدره ترجمانه وهو من أهل الحيرة واسمه عبود فسأله عما جاء من أجله . فاجابه بالدعوة التي تعاهونها فعظم ذلك عليهم وقالوا « كيف تطلبون قتالنا أو الجزية وقد كنتم في قشف ومعيشة سيئة لا نراكم شيئاً وكنتم اذا قحطت ارضكم استعطيتمونا فنأمر لكم بشيء من التمر والشعير ونردكم ولا نظنكم قادمين علينا الا من الجهد فانا آمر لاميركم بكسوة وبغل والف درهم ولكل منكم وقر تمر وتنصرفون عنا » فاجابه الرسول بما اسكته . وبعد جدال طويل غضب رستم واقسم ان النهار لا يطلع قبل أن يقتلنا اجمعين فقال له الرسول من يقتل منا يدخل الجنة . وأرسلت اليه رسلاً آخرين يدعونه الى ما هو خير لنا وله فاجابهم بمثل جوابه الاول فلم يجدنا ذلك نفعاً

« وفي اليوم التالي جلس رستم على سريره وضرب عليه طيارة وعبن الافيال كما ذكرت واتخذ في ايصال خبر الحرب الى ملكه يزدجرد طريقة اعجبتني ولعلي متخذها في بعض حروبي ان شاء الله وذلك انه جعل بينه وبين يزدجرد رجالاً على كل دعوة رجلا أولهم على باب ايوانه في المداين وآخرهم عند رستم فكل ما فعل رستم شيئاً قال الذي معه للذي يليه كان كذا وكذا ثم يقول الثاني ذلك للذي يليه وهكذا الى أن ينتهي الى يزدجرد في أسرع وقت . وكنت يا أمير المؤمنين مصاباً بدمامل وعرق النساء فلا أستطيع الجلوس وانما كنت اجلس مكباً على وجهي وصدري فوق وسادة على سطح القصر اشرف على الناس وأرى قتالهم ولكن الله اعاننا بمنه وكرمه فاننا لما رأينا الفرس يتهيأون للقتال بعثنا الخطباء في الجند وقرأنا سورة الجهاد ثم صلينا الظهر وكبرنا أربعاً فزحف الجند وتلاحم الجيشان ووالله يا أمير المؤمنين لقد كنت أرى جند فارس ينهالون كالسيل وفيهم الافيال كالامواج المتلاطمة وهي تثور فتلتقف الرماح والنبال بخراطيمها وتدوس الناس والخيول بخفافها فهالني أمرها فقلت يا قوم اما من حيلة لها فرماها بعض المسلمين بالنبل فقتل ركابها وتقدم آخرون فازاحوا عنها توابيتها فتلبكت حركاتها وفسد نظامها فجاء

المساء وقد قتل من الفرس جند كبير وفي اليوم التالي وصلتنا نجدة أهل الشام التي ارسلها ابو عبيدة فهاجمنا الفرس حتى كدنا نقبض على رستم ولكنه نجا . وفي اليوم الثالث لقي الجندان شدة وجهداً اما نحن فواصلنا العمل في الليل وكانت ليلة سميناها ليلة الهرير لان رجالنا لم يكونوا يتكلمون وانما كانوا يهرون هراً فنقلنا الجند الى مكان يأخذ العدو من خلفهم فعلنا ذلك وهم لا يعلمون

« ولما أصبحنا هاجمنا أعداء الله من كل جانب ففشلوا واختل نظامهم ووصل بعض رجالنا الى سرير رستم وقد اطارت الريح الطيارة عنه فاستظل بظل بغل فقتلوه وقتلوا الجالينوس فانهزم الفرس شر هزيمة فتعقبتهم رجالنا وغنمنا أسلابهم وانتصرنا نصراً مبيناً[1] ونحن سائرون الآن لفتح المداين بعون الله تعالى » انتهى

فما فرغ القارىء من قراءة الكتاب حتى ضج المسلمون بالتكبير والشكر لله على ذلك الفتح . أما حماد فانه صبر على سماع الخبر رغم قلقه فلما تفرق الناس خرج حماد وسلمان فقال سلمان يظهر ان أجل الفرس قريب وسيفتح المسلمون عاصمتهم فيندك عرشهم ويكون ذلك جزاء ما كسبته ايديهم من قتل الابرياء

فقال حماد ولكننا لم نستفد شيئاً عن الامير عبد الله ولا عن جبلة ألا تظن صاحب البريد يعلم شيئاً عن ذلك

قال ربما كان على علم فهلم بنا نستطلعه . وسارا يبحثان عنه فاذا هو قد خرج الى خيمة بعض الجند للاغتسال والوضوء وتناول الطعام

فقال سلمان أظن صاحب البريد يحتاج الى الراحة بعد سفره الطويل فلندعه وشأنه على ان نعود اليه في صباح الغد

قال حماد لقد أحسنت رأياً وانصرفا الى خيمة للاستراحة

---

(١) قيل كانت هذه الواقعة سنة ١٤ للهجرة وقيل ١٥ وقيل ١٦

الفصل التاسع والاربعون

ويأتيك بالاخبار من لا تسائله

تركنا حماداً وسلمان وقد انصرفا الى خيمة يلتمسان الراحة ريثما يتمكنا من مقابلة ساعي البريد واستطلاع خبر جبلة وعبد الله . وفيما هما سائران الى الخيمة رأيا عجوزاً حدباء عليها سمات الفقر وغبار الاسفار قادمة نحوهما تتوكأ على عكاز وقد لفت رأسها بخمار فظناها من المتسولات فلم يعبأا بها وظلا في طريقهما حتى دخلا الخيمة وليس فيها سواهما وما لبثا ان جلسا حتى رأيا تلك العجوز قد شقت حجاب الخيمة بعصاها ودخلت بلا استئذان فصاح بها سلمان ما غرضك يا خالة

فلم تجبه وظلت داخلة حتى دنت من حماد وحسرت اللثام عن وجهها فاذا هي خادمة هند التي لقيها في دمشق فخفق قلبه لرؤيتها وشعر بانعطاف نحوها وقد تنسم منها رائحة حبيبته فبغت وصاح بها ما خبرك واين هند

قالت تمهل ريثما استريح فاخبرك الخبر وقد جبت البلاد وتفحصت العباد وانا في هذا الزي ابحث عنك فلم اقف لك على خبر وقضيت حول هذه المدينة اياماً لا يخبرني أحد عن مقامك ولا انا استطيع المجاهرة باسمك لان حالنا تدعو الى الاستتار . قالت ذلك وهي تبحث عن وسادة تجلس عليها وتنظر الى الخارج مخافة أن يسمعها احد فجلست وعينا حماد تراعيانها وقد نفد صبره في استطلاع حال هند فقال لها اخبريني عن هند قبل كل شيء هل هي في خير

قالت كن مطمئناً انها في خير وسلامة لا ترجو الا لقاءك

فقال اين هي

قالت لا أدري اين هي الآن ولكنني أعرف الخطة التي ستسير فيها فاذا قصصت عليك الحديث من أوله هان عليك فهم الحقيقة

قال قولي باختصار . ولبث صامتاً مصغياً لما تقوله

فقالت تركتني في دمشق بجوار كنيسة مريم فاسرعت الى ما بين يدي

مما يحمل واكتريت بغلة ركبتها حتى اتيت بيت المقدس . وكانت سيدتي هند ووالدتها وسائر اهل القصر مقيمين في دير هذه المدينة فانبأتهم بسقوط دمشق فخافوا ولكنني طمأنت هنداً واملتها بقرب مجيئك فهان عليها كل عسير ولبثنا ننتظر ذلك اليوم . ولكن الامر جاء بالعكس فان سيدي الملك جبلة بعث الينا في اليوم التالي ان نتأهب للرحيل سراً ثم جاء هو وامر ان نسير على عجل بما خف حمله وغلا ثمنه ولم يجسر احد من اهله أن يسأله عن جهة المسير ولولا ذلك لبقيت انا هنا لاخبرك بمكانهم فخرجنا وقد امرت مولاتي هند اليَّ انها حالما تعرف المكان الذي سنقيم فيه تبعث بخبره اليك

فسرنا اياماً وليالي ولم نحط رحالنا الا في المدينة مقام خليفة المسلمين الذي سمعتم الكتاب يتلى بين يديه الآن وقد كنا في خوف عظيم ولكننا آنسنا اكراماً وحسن وفادة وبلغني ان سبب سلامتنا اعتناق سيدي الملك ديانة هؤلاء الفاتحين . فلما ظننا المقام استقر بنا لم يبق على سيدتي الا ان تنفذ اليك بذلك . وقد فاتني أن اخبرك بوفاة ثعلبة أو لعلك سمعت به قبلا

قال حماد لقد سمعنا خبره رحمه الله

قالت ولم نكد نتوسم الراحة ونحيي الامل حتى جاءنا سيدي الملك بعجلة وبغتة كما فعل يوم خروجنا من هنا فتأهبنا وخرجنا في ليل دامس خفنا فيه خوفاً شديداً ولكن بعض جيراننا اليهود من أهل المدينة كانوا لنا عوناً في مسيرنا الى ما وراء اسوارها . وفي اليوم التالي تحققنا اننا قاصدون بلاد الشام فرأيت في سيدتي هند ارتياحاً الى هذه الوجهة على رجاء ان تقرب منك فقضينا في طريقنا هذه مدة طال امدها ونحن نسير ليلا متنكرين ونختبىء نهاراً ولا نقيم الا في الديور لانها أأمن مبيت او مقام لاهل النصرانية وكنا نمكث في بعضها أياماً واسابيع . قالت ذلك وخفتت صوتها لئلا يسمعها أحد وجعلت تتطلع من باب الخيمة خوفاً ممن يتجسس او يسمع . فقال لها سلمان تكلمي لا تجزعي فان ليس في هذا المعسكر من يظن بنا سوءاً ولكن اخفتي صوتك

قالت وآخر مكان اقمنا فيه دير بحيراء ولا تسل عن حالنا لما اطلتنا قبل

ذلك على صرح الغدير وبستانه وميدانه وما استولى عليه اولئك الحجازيون من المغارس والابنية التي بناها الملوك الغساسنة منذ أجيال وقد رأيت في وجه سيدي الملك علامات الغضب والفشل حتى كادت الدموع تتناثر من عينيه لولا عزة النفس . أما سيدتي سعدى وهند فقد بكتا وأظن هنداً انما بكت لتذكرها أمراً وقع لها في ذلك الصرح . والخلاصة اننا لم نصل الى دير بحيراء حتى اخذ اليأس من سيدي الملك كل مأخذ لما ذاقه من ذل التنكر في بلاد كانت طوع اشارته لا يمر بها الا محفوفاً بالجنود والاعوان فتنصب له الاعلام ويحتفل اهلها بقدومه فكيف يمر الآن متنكراً يخاف ان يعرفه احد (قالت ذلك وشرقت بدموعها فمسحتها بطرف خمارها) . فتأثر سلمان وحماد لكلامها وعظم عليهما ما آلت اليه حال الغساسنة وتصور حماد ان حال ملوك الحيرة ستأول الى مثل ذلك فشكر الله في باطن سره لان سقوطهم على يد غير يده

وأتمت المرأة حديثها فقالت . ففي ذات ليلة دعا مولاي الملك سيدتيَّ سعدى وهنداً وخلا بهما في حديث طويل وفي الصباح التالي دعتني هنداً وامرت اليَّ ان ابحث عنك في بيت المقدس فما حولها حتى اقف على مكانك واطمئنك عنها واخبرك انهم ساروا الى العراق ليقيموا في دير هند بعيدين عن الشام والبلقاء لأنهم لا يستطيعون صبراً على ما خرج من ايديهم ان يروه كل يوم رأي العين وأيدي الغالبين فوقه

فلما سمع ذكر دير هند اجفل وقال أي دير تعنين

قالت دير هند في ضواحي الحيرة

فنظر الى سلمان وقال اعهد دير هند في الحيرة وليس خارجها فما هذا الدير

فقال سلمان ان في الحيرة ديرين ينسبان الى هند احدهما الاصغر وهو في الحيرة والاخر في ظاهرها . أما الاول فقد سمي باسم اختك هند بنت لما قبض كسرى على المرحوم والدك الملك النعمان في اوائل حكمه وحبسه قبل ان تولد انت باعوام فنذرت شقيقتك هذه ان رده الله الي ملكه ان تبني ديراً وتسكنه

حتى تموت فلما اطلق سبيل والدك فعلت ذلك ومكثت في ذلك الدير [١]

وأما الدير الاكبر وهو ما يسمونه بدير هند الكبرى فقد بنته هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي بظاهر الحيرة [٢] وهي من كندة وليست من لخم والدير كبير اذكر اني زرته غير مرة وكان رهبانه يترددون على منزل الامير عبد الله للمداولة بشؤون تتعلق باملاك له هناك يأمُّ هذا الدير أناس من جهات العراق وغيره يقيمون فيه اياماً وفيه ما يحتاجون اليه من الزاد ونحوه

فنظر حماد الى المرأة وقال هل تظنين هنداً في ذلك الدير الان

قالت لا ادري اذا كانت لا تزال هناك لانها اوصتني بما تقدم منذ بضعة اسابيع قضيتها في البحث عنك . ولكن مولاتي سعدى امرت اليَّ بعد خروجي من بين يدي هند ان مولاي الملك جبلة انما يريد الشخوص الى القسطنطينية ليقيم بقرب امبراطوره هرقل معززاً مكرماً وانه سيجعل طريقه في الفرات ومنه براً في البلاد التي لم يصل سيف المسلمين اليها اما سواحل الشام فانها في ايديهم لا يخلو المرور بها من الخطر . وقالت لي انها اقنعته ان يقيم في دير هند مدة ليرى ما يكون من حال جند العراق . فاذا طال غيابي عنهم أظنهم يقصدون القسطنطينية وذاك آخر مكان يقصدونه فافعل ما يبدو لك

فلما سمع حماد ختام الحديث انقبضت نفسه مخافة ان يقصد العراق فيذهب سعيه ضياعاً وادرك سلمان فيه ذلك فقال له ألا ترى يا مولاي ان بمسيرنا الى العراق نرمي حجراً فنصيب صيدين . ألم نكن في حاجة للبحث عن سيدي الامير عبد الله في العراق فمسيرنا الى هناك يجمعنا به وبهند ان شاء الله

فقال حماد ألم تسمع ما تلي علينا اليوم من خبر وقعة القادسية وهي بالقرب من الحيرة ألا تظن على الحيرة خطراً

قال سلمان ان الحيرة يا مولاي دخلت في صلح المسلمين منذ اعوام وكنت شاهداً صلحها بنفسي وزد على ذلك ما نعلمه من صيانة الاديار عند المسلمين

فقال حماد وهل تعرف الطريق الى الحيرة

---

(١) ياقوت (٢) المشترك

قال نعم

قال وأنت ماذا تفعلين يا خالة

قالت لا اظنني أستطيع المسير معكما لما انتما فيه من الاستعجال ولكنني اتبعكما في طريق آخر أو ابقى في دير بجيراء انتظر خبراً من عندكم

الفصل الخمسون

هند في دير هند

دير هند الكبرى بناء واسع شادته هند بنت الحارث الكندية بحجارة ضخمة في بستان خارج الحيرة يشرف عن بعد على بحيرة كانت هناك وفي الحديقة انواع الرياحين والازهار وحولها كروم العنب والتين وغيرها من الفاكهة . يأوي اليه الرهبان من العراق وفيه منازل للاضياف هي دار الضيافة ينزل فيها الغرباء من المارة أو نحوهم يقيمون اياماً ثم ينصرفون . ورئيس الدير راهب شيخ سرياني أصله من ساباط . وقد جا جند المسلمين العراق وجرى ما جرى لهم من الوقائع والدير في مأمن لم يصب بسوء وأهله آمنون

ومن يستقبل باب الدير بوجهه يقرأ على عتبته نقشاً هذا نصه « بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة بيت الاملاك وام الملك عمرو ابن المنذر امة المسيح وام عبده وبنت عبيده في ملك ملك الاملاك خسرو انو شروان في زمان مار افرايم الاسقف . فالاله الذي بنت له هذا الدير يغفر خطيئتها ويترحم عليها وعلى ولدها ويقبل بقومها الى أمانة الحق ويكون الله معها ومع ولدها الدهر الداهر » (١)

ففي ذات ليلة بعد انقضاء وقعة القادسية وسكون الناس الى الراحة سمع أهل الدير قرع الاجراس وهي اجراس تعلق بيبان بعض الديور حتى اذا مر غريب دقها فيفتحوا له فيبيت هناك يتناول الطعام أو نحوه . فلما سمع خدام الدير الدق هرول بعضهم الى الباب وكان الباب ثقيلاً مصفحاً بالحديد وفيه

(١) دائرة المعارف • ويلوح لنا انها كانت مكتوبة بالسريانية خطاً ولغة

المسامير الضخمة فاطل من فوقه من غرفة صغيرة فرأى ركباً على افراس ومعهم الخدم والامتعة فنزل الى الباب ففتحه ورحب بالقادمين وأسرع الى قيم الدير يخبره بقدوم ركب كبير فدخلوا وفيهم المشاة والفرسان فلما وصلوا الى ساحة الدير ترجل الفرسان وتقدم بعض المشاة فامسكوا بازمة الخيل ووقفوا جانباً لا يفوه احد منهم بكلمة . فلما ترجلوا جميعاً تقدم واحد منهم وهو لا يزال ملثماً حتى دنا من قيم الدير فهمس في اذنه فاسرع وسار الكل وراءه الى غرفة باتوا فيها تلك الليلة وأهل الدير يتحدثون في من عسى ان يكون هؤلاء الناس الذين لتلثمهم لا يعرف النساء فيهم من الرجال . ولكنهم عرفوا من قيافتهم وسروج افراسهم انهم من اهل الشام وكانوا قد سمعوا بحروب المسلمين هناك فترجح لديهم انهم بعض كبار الغساسنة وهم بالحقيقة جبلة واهله فاقاموا هناك مستترين

اما حماد وسلمان فلما عزما على العراق سارا لوداع ابي عبيدة فاذا هو يتأهب لوداع الامام عمر وقد همَّ بالرجوع الى المدينة فوقف ريثما ودعه فامتطى عمر جمله وركب معه بعض الامراء وودع الناس وتحول نحو المدينة وسلمان وحماد ينظران اليه ويعجبان بما أوتيه من رفعة المنزلة مع رغبته في الزهد والاقتصار على بسائط الاشياء

ولما توارى الامام عاد الامراء الى معسكرهم وفي مقدمتهم ابو عبيدة فانتظر حماد وسلمان ريثما خلا بنفسه فسارا اليه واستأذناه بالانصراف

فقال الى اين

قال حماد اننا سائرون الى العراق لعلنا نلتقي بوالدي فقد طالت غيبته

قال ثقوا بسلامته وصحته فانه مقيم على الرحب والسعة وهل سمعتم خبراً عن جبلة

قال لم نسمع خبراً بعد ولعلنا نعرف عنه شيئاً هناك « قال ذلك وهو يعلم ان ابا عبيدة اذا علم بمكانه بعث من يقبض عليه عملا بارادة الامام عمر فانكر مكانه »

فقال ابو عبيدة اظنكما تعثران عليه في العراق فقد سمعت من بعض الناس

انه سار الى هناك وربما يقيم في دير هند الكبرى خارج الحيرة

فلما سمع حماد ذلك أجفل ولكنه تجلد وتجاهل وقال سنبحث عنه جهد الاستطاعة وهل تظن عليه بأساً اذا عرف مكانه

قال ان امير المؤمنين كتب الى عماله في الشام وفلسطين والعراق كافة أن يقبضوا على الرجل حيثما وجدوه لانه اسلم وارتد وخرج من المدينة فارًّا

فشكر حماد لنفسه لانه لم يبح بمكان جبلة ولكنه خاف عليه من الرقباء ومال الى العجلة في المسير الى العراق فاستأذن ابا عبيدة وودعه سلمان وسارا الى خالد وغيره من الامراء وودعاهم وخرجا يتأهبان للمسير

الفصل الحادي والخمسون

وادي الفرات

وبعد بضعة ايام حملا ما استطاعا حمله من المتاع وخرجا من بيت المقدس وفي أثناء الطريق قال حماد لا نظننا اذا اتينا العراق عائدين الى هذه البلاد فلنأخذ امتعتنا التي تركناها في بصرى وخصوصاً الدرع فانها كنز ثمين عندي وقد احتاج اليها في دفاع او هجوم . فمرًّا ببصرى فنزلا البيت حملا منه ما طاب لهما من خفيف الحمل وغالي الثمن وخرجا الى دير بحيراء ودخلا الصومعة وقبَّلا ايقوناتها فتذكر حماد اياماً مرت به هناك فهاجت فيه ذكرى هند وتنبهت أشجانه وتاقت نفسه الى العراق لملاقاة حبيبته قبل أن يصيبها سوء ولقيا في دير بحيراء خادمة هند فسألاها عن حالها فقالت أنها ستسير في أثرهما مع قافلة من قوافل العراق

اما هما فاصطحبا خادماً او دليلاً يسوس الخيل ويدلهما على الطريق وسارا وهما تارة يمران بفياض وطوراً برمال وآونة بجبال واودية وحيناً بصخور وعرة وكانت اكثر البقاع مشقة عليهما صحراء الشام وفيها بقايا مدينة تدمر العظمى وبعد بضعة عشر يوماً أطلا على وادي الفرات من اكمة

مرتفعة فاذا هو سهول منبسطة يخترقها الفرات وفيها القنوات والبحيرات بينها المغارس والبساتين والمزارع . وكان وصولهم الى هناك قبل الغروب فوقفا والخادم ينصب الخيمة على نية المبيت فوق ذلك التل . أما حماد فوقف وهو على متن جواده والتفت الى تلك السهول الخصبة وما يتخللها من القرى والمدن وفيها الماشية عن بعد وشجر النخل كانه جند واقف لالقاء التحية فتذكر والده النعمان وقال في نفسه هذه هي البلاد التي كان يحكمها والدي . ومرت بذاكرته خيالات جمة اكثرها مخيف ولكن صورة هند كانت تظللها كلها فتزيل المخاوف . على انه ما لبث ان تصورها في حال الضيق فهبَّ من اعماق تصوراته وعاد الى قلقه

اما سلمان فكان يساعد الخادم في نصب الخيمة واعداد معدات الراحة فلما فرغ من ذلك جاء الى سيده وطلب اليه ان يترجل فساق الخادم الفرس ووقف حماد وسلمان ينظران معاً الى وادي الفرات

فقال حماد واين موقع الحيرة يا سلمان

قال ان الحيرة اول مدينة تستقبلك قبل وصولك الفرات واظننا نشرف عليها غداً وبينها وبين القادسية بضعة عشر يوماً

ثم جلسا للعشاء وانصرفا بعده للرقاد لان التعب اخذ منهما مأخذاً عظيما وفي الصباح التالي بكرا وركبا وحماد لا يصدق انه يشرف على الحيرة ويرى دير هند ولو عن بعد . وبعد ظهيرة ذلك اليوم اشرفا على بحيرة من الماء كبيرة ظنها حماد لاول وهلة بحراً فقال ما هذا يا سلمان قال هذه بحيرة النجف يا مولاي وعلى ضفافها جرت واقعة القادسية التي سمعنا خبرها في معسكر ابي عبيدة . ووراء هذه البحيرة شمالا مدينة الحيرة مقام المناذرة اجدادك ووراء الحيرة شرقاً نهر الفرات . واما دير هند فهو خارج الحيرة وربما اطللنا عليه بعد قليل . ولا يخفى عليك ان معظم الكروم والبساتين المجاورة للدير في ضواحي الحيرة هي من املاك الامير عبد الله ولا ندري ماذا جرى فيها بعد واقعة القادسية واذا كان مولاي الامير ممن شهدوا الواقعة فظنه يتدبر في حفظها وحمايتها

فقال حماد ألا ترى اذا اطللنا على الحيرة الآن ان نبيت في الدير الليلة

قال لا أظننا نستطيع ذلك والمسافة بعيدة ولا ندري بما هنالك من العقبات فقد نبيت الليلة في مكان على مقربة من الحيرة وفي الغد نسيرالى الدير

قال حسناً . وفي الغروب ظهرت لهم الحيرة بابنيتها ولكن الظلام غشيها قبل ان يتبيناها فباتا تلك الليلة وأصبحا وحماد لم ينم الا قليلاً لشدة قلقه وتشوقه فكان كلما تصور ملاقاة هند اختلج قلبه فوصلا ضواحي الحيرة عند الظهيرة فاطلا على دير هند فلما رآه حماد تذكر انه يعرفه من ذي قبل ولكنه لم يدخله فمشيا بين الكروم ومغارس الفاكهة والزيتون وسلمان يدله على ما يملكه الامير عبد الله منها وحماد يزيد استئناساً ولكنه ما زال هاجساً بهند لا صبر له على لقائها . ثم وصلوا الى قناة من الماء تظللها شجرة عظيمة وحولها الاشجار يانعة يمر بها النسيم اللطيف فتسمع لاوراقها حفيفاً يطرب السمع بما يمازجه من خرير الماء الجاري فوق الحصباء . فتقدم سلمان الى حماد ان يستريحا هناك ويتناولا الغداء وفي الاصيل يدخلان الدير

فقال حماد لا صبر لي على ذلك كيف نكون بقرب الدير ولا نسرع اليه

قال سلمان أرى والامر لمولاي ان تستريح أنت هنا والخادم يدبر لك الطعام واذهب أنا الى الدير ابحث عن هند وأعود اليك بالخبر

قال لا أراني قادراً على ذلك ولا بد لي من المسير معك فلنترك احمالنا تحت هذه الشجرة مع الخادم ونذهب الى الدير

قال افعل ما بدا لك فشربا وغسلا ايديهما ووجهيهما من الغبار وهمّا بالمسير

الفصل الثاني والخمسون

الفشل

ركبا وسارا بين الاشجار والشمس فوق الرؤوس فلم يغنهم ظل الاغصان الا قليلا حتى انتهيا الى باب الدير وحماد قد نفد صبره . وكان سلمان عارفاً

الجرس المعلق هناك فجذب الحبل ودق الجرس فدق قلب حماد معه فوقفا برهة لم يفتح لهما أحد فاعادا الدق وبعد قليل أطل من فوق الباب راهب وقال مستفهماً . من انتم ؟

قال سلمان زوار للدير

قال من أين انتم قادمون ؟

قال من جهات الشام

فقال الراهب بلهجة النفور « لا محل للزيارة عندنا » وتحول الى داخل الدير فناداه سلمان فلم يجب فكلمه بلسان أهل الحيرة فعاد الراهب وقد تذكر انه يعرف ذلك الصوت فاطل ثانية من أعلى الباب وقال من انتم ؟

قال سلمان لسنا من أهل الشام وانما نحن عراقيون مثلكم افتحوا لنا فتفرس الراهب في وجه سلمان برهة ثم جذب سلسلة مشدودة بالنافذة ففتح الباب فدخل حماد وسلمان وفرساهما وراءهما فاخذ الراهب يرحب بهما وينظر الى سلمان لعله يعرفه

فقال له سلمان أتعرف هذا الشاب يا حضرة الاب . واشار الى حماد

فالتفت اليه وقال أليس هو الامير حماد بن الامير عبد الله

قال بلى هو فهل رأيت والده في هذه الاثناء

قال رأيته مراراً وهو الآن مع جند المسلمين في خير ولولاه لاصابنا ضنك وربما قتلنا فقد كان لنا عوناً ومجناً بورك فيه ومرحباً بابنه

وما زالوا سائرين حتى أتوا دار الضيافة وحماد ينظر يمنة ويسرة وقد شاعت عيناه لعله يرى شيئاً يتنسم منه رائحة هند فلم يرَ الا رهباناً وفعلة فدخلوا دار الضيافة وتناول الفرسين بعض الخدم فساقوها الى الاصطبل وبعثوا من يدعو الخادم ليأتي بالاحمال

أما حماد فتعاظم قلقه ولم يعد يستطيع صبراً فادرك سلمان فيه ذلك فابتدر الراهب بالاستفهام عما منعه من فتح الباب لهما حالاً وما الذي يخافونه من أهل الشام

فقال نلتمس من الامير حماد عذراً على توقفنا عن استقباله برهة وما

ذلك الا لاننا وقعنا منذ أيام في ورطة بسبب أضياف نزلوا عندنا وكانوا قادمين من الشام

فقال سلمان ومن هم أولئك الاضياف

قال جاءنا جماعة نزلوا في هذا الدير شهراً ونحن نحسبهم من أعيان الشام ثم عرفنا انهم جبلة بن الايهم وامرأته وابنته وبعض خدمه

فلما ذكر جبلة وأهله خفق قلب حماد وخاف أن يسمع خبراً يسوءه وقد عودته حوادث الايام أن يسيء الفأل في كل مستقبل فاصاخ بسمعه ليرى ما تم لهم واكتفى باصغائه حثاً للراهب على اتمام حديثه . وكان بعض الرهبان قد جاؤوا بالمواعين فيها الماء ليغتسل الضيفان فلم يلتفت أحد منهما اليها وظلا مصغيين

قال الراهب : فاقام الملك جبلة بيننا أياماً على الرحب والسعة ونحن لا نحسبه الا من بعض أمراء الشام . على اننا كنا نعجب لاحتجابه في الدير واحتباسه عن العيون ونحن نتوسم من خيوله وخدامه انه يحب الصيد والفروسية. ولكن الامر انكشف لنا بغتة فجاءنا جماعة من جند المسلمين في عصاري بعض الايام وفيهم الفرسان والمشاة وقرعوا الباب ففتحنا لهم ونحن غير هائبين لما نعلمه من العهود التي خصصوا الاديار والكنائس بها . فخرج الرئيس المحترم لاستقبالهم فقالوا لا خوف عليكم ولكن عندكم عدوًّا فرَّ منا في حرب الشام وكان قد أسلم ثم ارتد فلا بد من القبض عليه وسوقه الى الامير سعد بن مالك . فسأله الرئيس عن ذلك العدو فقال انه جبلة بن الايهم ملك غسان . وكان جبلة قد رأى الرجال وعلم انهم قادمون للقبض عليه فتربص ولو كان وحده لتمكن من الفرار ولكنه لم يجد اليه سبيلاً . فقبضوا عليه وساقوه حالا ولم يمهلوه ريثما يلتفت وراءه

فقطع سلمان الحديث قائلاً هل ساقوه وحده ؟

قال ساقوا معه امرأته والخدم

قال حماد وماذا جرى لابنته ؟ . قال ذلك وهو مضطرب الحواس

قال الراهب اما ابنته هند فكانت قد خرجت في صباح ذلك اليوم لزيارة

دير هند الصغرى في الحيرة على أن تقضي نهارها هناك وتعود في المساء . فلما أخذوا والداها لم تكن هي هنا فلما جاءت في المساء أخبرناها بما كان فاجفلت ولطمت خديها وندبت والداها ثم وقفت تبكي تارة وتفكر أخرى حتى قاربت الشمس الزوال ونحن نخفف عنها فسألتنا عما قاله لنا والدها قبل ذهابه فاعتذرنا بانه لم يستطع كلاماً لفرط ما ألحوا عليه بالذهاب . فاسرعت الى جواد لها كان باقياً هنا فركبت وتزملت بعباءة من الحرير المزركش كأنها فارس مغوار واستفهمت عن الجهة التي ساروا فيها بوالدها فاشرنا اليها فهمزت الفرس وخرجت تنهب الارض نهباً ونحن لا نعهد مثل ذلك في البنات . ثم لم نعد نعلم عنها شيئاً

فما أتى الراهب على تمام الحديث حتى انقبضت نفس حماد واتقدت الغيرة في قلبه وتولاه اليأس فلبث صامتاً كأنه أصيب بصدمة ثم التفت الى سلمان فاذا هو صامت يفكر

فاستغرب الراهب ما ألمَّ بهما من البغتة وعهده باللخميين يسرون بما يسوء الغساسنة لما بينهما من الضغائن القديمة فقال لهما ما بالي أرى حديث جبلة قد همكما الى هذا الحد وهو غساني ألعلكما من غسان

فقال سلمان لم يهمنا حديثه ولا يهمنا أمر الغساسنة كلهم ولكننا نفكر في تلك الفتاة المسكينة . فهل مضى على ذهابهم مدة طويلة

قال تزيد على بضعة عشر يوماً

قال وهل سمعتم عنهم شيئاً بعد ذلك

قالوا سمعنا أخباراً متضاربة فمن قائل ان سعداً أمير جند المسلمين قتلهم حالاً وقائل انهم قتلوا قبل وصولهم اليه وقائل انهم لا يزالون احياء

فازداد اضطراب قلب حماد وهمَّ بالنهوض فاقعده سلمان وقال للراهب متجاهلاً وماذا سمعتم عن ابنته المسكينة

قال لم نسمع شيئاً عنها منذ خروجها ولعلها اقتفت آثارهم الى معسكر المسلمين

فلم يعد حماد يستطيع صبراً فنهض الى جواده وتبعه سلمان . وكان خادم

حماد قد وصل الدير بما معه من الامتعة وجعلها في مأمن . فانفرد في مكان فلما خلواً قال حماد دعني يا سلمان اقتفي أثر جبلة فقد ضاق صدري وتحدثني نفسي بسوء أصابهم جميعاً . أهذه نهاية آمالي ونتيجة أتعابي . قال ذلك وحرق أسنانه وتلألأت الدموع في عينيه ولكنه تجلد تجلد الرجال وقال علينا السعي يا سلمان وعلى الله التدبير فما الرأي

قال الرأي ان نقصد معسكر المسلمين وندخل على سعد بن مالك أميرهم فنسأله عن مولاي الامير عبد الله وهو عنده من كبار المشيرين كما تعلم فاذا لقيناه أعاننا في البحث عن جبلة واهله واذا كان جبلة لا يزال حياً وسطنا الامير عبد الله بالعفو عنه

فقال نعم الرأي رأيك ولكن هنداً أين هي

قال نظنها معهم وهب ان والدها قتل فهي لا تقتل لان المسلمين لا يؤذون النساء فقد تكون عندهم في حفظ وخصوصاً اذا كان سيدي الامير عبد الله قد رآها أو عرف مقرها

فقال حماد ألا تظن انهم يتخذونها سبية . . . أعوذ بالله . قال ذلك وهمَّ بالجواد يركبه فقال سلمان تمهل يا مولاي ريثما نلاقي رئيس الدير ونسأله عن معسكر المسلمين لئلا نبذل السعي والوقت عبثاً . قال حسناً وتجلدا ودخلا على الرئيس وكان قد عرف قدومهما فرحب بهما وقبَّل حماداً وامر لهما بمائدة فقالا لا نستطيع طعاماً لاننا خارجان على عجل لامر هام لنا وقد جئنا لوداعك

قال أتودعانني قبل ان نلتقي

قال كذلك قضي علينا وانتم تعلمون ان الامير عبد الله في معسكر المسلمين وفي نيتنا ان نذهب اليه فأين هو معسكرهم

قال ان المسلمين معسكرون الان تجاه المدائن في بهرشير [١] واظنكم تعرفونها وهي بالحقيقة قسم من المدائن فانها في الغرب والمدائن في الشرق وبينهما دجلة . فقد نزل المسلمون على بهرشير وحاصروها شهرين ورموها بالنبال والمنجنيق حتى فتحت فاحتلوها وهم عاملون على فتح المدائن [٢]

---

(١) كتيسيفون (٢) الطبري

فقال سلمان اني اعرف بهرشير جيداً ويسهل علينا الوصول اليها اذ لا يحول بيننا وبينها الا الفرات وبعض السهول

الفصل الثالث والخمسون

فتح المدائن

فودعا الرئيس ونزلا الى الغرفة التي اودعا الامتعة فيها فلبس حماد درعه ورداء والده الملك النعمان وجعل خاتمه بين اثوابه وسلمان ينظر اليه فسأله عن سبب لبسه ذلك الرداء فتنهد وقال ألسنا ذاهبين الى المدينة التي قتل فيها والدي النعمان

قال بلى

قال ألسنا في شك من بقاء هند حية

قال الله اعلم

قال حماد ونحن نعلم ايضاً أنها قد تكون حية أو ميتة اذ لا يعرف احد مكانها وقد سيق والدها الى القتل لا محالة فاذا كانت لحقت به فلا يخلو امرها من احد خطرين اما ان تكون سبية او قتيلة وكلاهما موت . فهل أطمع بعد ذلك في الحياة وقد آن الوقت الذي يجب عليَّ ان انتقم فيه لوالدي وهذه جنود المسلمين على ابواب المدائن فاني محارب معهم حتى ادخل الايوان بنفسي فاقتل كسرى بيدي فاذا قتلت فما انا خير من هند ولا عيش لي بعدها واذا حييت فذلك امر الله يقدره لحكمة لا نعلمها . قال ذلك وقد علاه الغضب وتجلت في وجهه مهابة الملوك فقطب اسرته وما زال يلبس درعه وصليل حديده مسموع الى الخارج . فتهيب سلمان من منظره ولبث صامتاً لا يدري ما يقول . ثم قال ألا ترى يا مولاي ان نتنكر بزي المسلمين لئلا يستغشونا في وسط المعركة فيحسبونا من الفرس او من عرب الحيرة احلافهم

قال لقد رأيت حسناً . وكان بين ثياب سلمان كثير من تلك الاثواب لما كان يحتاج اليه من التنكر فاستخرج ثوبين لبس كل منهما ثوباً وتعمما بعمامة

أهل الحجاز حتى لا يشك الناظر اليهما أنهما حجازيان

وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل وهمّ أهل الدير بتهيئة طعام المساء فشاهدا جماعات منهم عائدين باحمال الاثمار والاخشاب من بساتين الدير

ثم ركبا وأطلقا الاعنة للجوادين فقضيا مدة صامتين وافكارهما سابحة في ما سمعاه يستوقف مجاريها أصوات حوافر الخيل وانغام وقعها بين قرقعة على الحجارة وهمس على الرمال وهما لا يتكلمان . فامسى عليهما المساء وراء الحيرة فباتا في دير هناك وأصبحا راكبين قفراً بجيف بعضها رمم خيول وجمال والبعض الآخر جثث آدميين مبعثرة في تلك السهول لم يبق منها غير العظام الضخمة التي لم تقدر على قضمها النسور . فتذكرا ما وقع هناك من الحروب الهائلة بين المسلمين والفرس . ثم قطعا الفرات على جسر من السفن وفي اليوم التالي أشرفا على المدائن وقصورها عن بعدٍ فرأيا فوقها ضباباً كثيفاً يكاد يحجبها عن الابصار فقال سلمان لقد همني أمر هذا الضباب فاني أظنه غبار الحرب ويخال لي ان المسلمين يهاجمون المدينة في هذا الصباح . ثم وخزا الجوادين حتى وصلا بهرشير فاذا هي في هرج والناس فيها بين فارس وماش يهرعون نحو النهر فسألا عن سعد بن مالك فقيل لهما انه يخوض النهر بجيشه لفتح المدائن والمسلمون يقتفون أثره ففتشا عن الامير عبد الله فلم ينبئهما بخبره احد فصعدا الى اكمة أشرفا على المدائن ودجلة فرأيا المسلمين يقطعون النهر بافراسهم والرماح مشرعة في أيديهم (١) وبعضهم قد بلغوا الضفة الاخرى يحملون الاعلام . ونظرا الى المدائن فاذا ببعض حاميتها قد خرجوا من الاسوار بافيالهم وأفراسهم واعلامهم يتأهبون للقاء المسلمين وقد علا الضجيج حتى استكت المسامع وتصاعد الغبار حتى حجب السماء . فهاجت عواطف حماد وجرى دم الملوك في عروقه وثارت الحمية في رأسه فنظر سلمان اليه فرآه قد احمرت عيناه وهو يتفرس في ساحة القتال كأنه يهم بالوثوب اليها فقال له ما بال مولاي في شاغل

فنظر حماد اليه وقال « أراني يا سلمان راغباً في نزول هذه الساحة فقد

(١) ابن الاثير

آنت ساعة الانتقام لوالدي . هؤلاء هم قتلة النعمان بن المنذر قد نزلوا لقتال المسلمين فلا اراني صابراً عن منازلتهم بوصية والدي خارجة من ظلمات القبر. ولا ريب عندي يا سلمان ان تقاعدي عن القيام بتلك الوصية من اول الامر هو الذي عرقل مساعيّ وحرمني من هند لان طاعة الوالدين واجبة وقد تهاملنا في هذا الواجب فجوزينا بالتعب والشقاء والفشل والقنوط . ألم تكن هند طوع ارادتنا . ألم يكن والدها راضياً بي ينتظر ساعة القران . فما باله أحجم وتغير من يوم قرأنا تلك الوصية المقدسة وعولنا على اغفالها . ذلك اول قصاص نلناه وما زالت تتوالى علينا الاحزن وتقف في سبيلنا العقبات من ذلك الحين حتى خرج النصيب من ايدينا او كاد . وكأن الله سبحانه وتعالى قد جرنا الى هذه الساحة ليذكرنا بما ارتكبناه لعلنا نرعوي ونصدع بالامر وكأني بوالدي يناديني بأعلى صوته من أعماق قبره وأظنه ما انفك يفعل ذلك منذ اعوام ولكننا كنا بعيدين عن مدفنه فلم نسمع النداء . وتحدثني نفسي يا سلمان ان انازل هؤلاء الفرس في جملة المنازلين وعليَّ برد النعمان بن المنذر وبيدي خاتمه فاما ان اقتل شهيد الثأر المقدس واما ان احيا بعد النصر واظفر بخطيبتي فيطيب لي القران عملا بوصية والدي فقد اوصاني ان لا اقضي امراً مثل هذا الا بعد الانتقام له »

وما أتى حماد على آخر كلامه حتى ارتعشت انامله وثارت عواطفه ولم يتمالك عن همز جواده نحو النهر فخاضه وخاض سلمان في أثره حتى اتيا الضفة الاخرى فرأيا المسلمين يطاردون الفرس حتى دخلوا المدائن فدخلاها في أثرهم . وأوغل المسلمون في المدائن وحماد في جملتهم حتى اتوا ايوان كسرى فدخلوا حديقته وخيولهم تدوس الازهار والرياحين ورماحهم تخترق اغصان الليمون والازدرخت حتى وصلوا باب الايوان فكان حماد اول داخل وقد عوّل ان يقتل كسرى بيده . والايوان قاعة كبيرة طولها مائة ذراع وعرضها خمسون مبنية بالاجر والجبص سقفها عقد واحد قائم على عمد من الرخام المنقوش وفي صدر الايوان عرش يجلس عليه كسرى تعلوه قبة مرصعة في اعلاها مروحة من ريش النعام والى جانبي العرش مجالس الاعوان والوزراء

من المرازبة والكهنة وجدران الايوان وسقفه مزينة بالرسوم وفي جملة ذلك رسم كسرى انوشروان وغيره من الاكاسرة العظام وابيات من الشعر الفارسي مكتوبة بالحرف الكلداني وفي سقف الايوان رسوم الافلاك والاجرام

فلما رأى حماد نفسه في وسط الايوان ووقع نظره على ذلك العرش أسرع نحوه وهو يحسب كسرى جالساً عليه فاذا هو خال وليس في المكان احد من الفرس لفرارهم جميعاً الى حلوان (١) ولم تمض لحظات حتى امتلأ الايوان بالمسلمين وقد اخذوا في تكسير التماثيل وتمزيق الصور وكان الفرس قبل خروجهم قد حملوا معهم ما خف حمله وغلا ثمنه وبقي مع ذلك ما لا تقدر قيمته من الذهب والحجارة الكريمة والثياب المزركشة والاسلحة المذهبة والتيجان المرصعة

أما حماد فالما تحقق سقوط المدائن لم يعد يشغله شاغل عن التماس الامير عبد الله فلم يره بين الهاجمين فانشغل باله عليه فاوعز الى سلمان ان يساعده في طلبه وكان سلمان اكثر قلقاً عليه من حماد . فقال لحماد لا تبعد انت عن هذا الايوان فاني ذاهب الى سعد بن مالك امير هذا الجند لعلي اسمع منه خبراً عن مولاي الامير

قال حسناً وبقي حماد في جملة الجند لا يستفشه احد حتى سكنت الغوغاء وهو ينظر الى ما يحمله الفاتحون من التحف الغريبة وفيها التيجان والسيوف المرصعة فسمع قائلا يقول هذا هو سيف النعمان . فلما سمع ذلك خفق قلبه وود لو يناله هو ولكنه لم يجسر على التماسه فقال في باطن سره هذا هو سيف النعمان وهذا ابن النعمان وهذا برد النعمان وهذا خاتمه قد شهدوا حرب الفرس معاً ورأوا سقوط دولتهم رأي العين وذلك ما تمناه والدي ولم يبق لي في الحياة مأرب الا انا ظفرت بنيتي ومنتهى اربي . ولم يكد يتذكر هنداً حتى عادت اليه اشجانه ونسي موقفه والناس في شاغل عنه فهمز جواده واخذ في البحث عن عبد الله فتذكر موعده مع سلمان فوقف حتى عاد سلمان فاذا هو

(١) الطبري

منقبض الوجه فقال له حماد ما وراءك قال لقيت بعض حاشية سعد بن مالك وسألتهم عن الامير عبد الله فقالوا انه كان معهم ولكنه خرج من المعسكر أول البارحة ولم يعد

فقال هل سألتهم عن جبلة

فقال سألتهم فقالوا ان سعداً أمر بقتله منذ قبض عليه

فقال هل علمت اذا كانت هند معه عند قتله وماذا جرى لها

قال علمت أنها لم تكن معه ويظهر أنها لم تصل اليه فقد قال لي مخبر ان جبلة سيق أسيراً ومعه امرأته فقط وعلى كل حال لا نظننا نتبين الحقيقة الا من سيدي الامير عبد الله

تركا المدينة والمسلمون يحسبونهما من جملة جندهم لما تنكرا به من الزي الحجازي حتى اذا سارا الى خارج المدائن قال حماد لقد قضي الامر يا سلمان وسقطت عاصمة الفرس وان يكن ملكها يزدجرد فرَّ ولم يقتل بعد ولكنه مقتولا لا محالة فهما قد أنفذنا وصية والدي ولكننا ما لبثنا أن سمعنا بقتل جبلة ونحن في ريب من أمر أهله ولا نعلم مقرّ هند . قال ذلك وحرق اسنانه وأطرق

فقال سلمان لا أظن هنداً الا في بعض الديور وعلى كل حال اننا لا نستطيع أمراً قبل مواجهة الامير عبد الله

قال حماد وما العمل

قال أرى ان نفتش عنه

قال اخاف أن يكون قد اصاب حتفه ايضاً

قال لا أظن ذلك لانه لم يكن في المعركة وقد علمنا انه كان في المعسكر قبل الهجوم فلعله التجأ الى مزرعة من مزارعه خوفاً من الحرب

قال أتعرف له مزرعة قريبة من هذا المكان

قال أعرف مزرعة له على بضعة أميال منا فلنذهب اليها لعلنا نقف على خبره من بعض الفلاحين هناك

قال حماد سر انت في هذه المهمة ودعني اعود الى الحيرة اجدد البحث عن هند لعل احداً من اهل الدير ينبئنا بخبرها ولنضرب موعداً نلتقي فيه بمكان نعينه

قال لقد رأيت رأياً حسناً وأرى أن نلتقي في دير هند الصغرى في الحيرة بعد ثلاثة ايام فمن استطلع خبراً قصه على الآخر . وافترقا

الفصل الرابع والخمسون

أين هند

فانطلق حماد لجواده العنان وعاد فخاض دجلة وأغرب يلتمس الفرات فقطعه وسار قاصداً دير هند الكبرى وبات في الطريق ليلة ونزل على الدير في أصيل اليوم التالي فقرع الجرس ففتحوا له وهم يحسبونه مسلماً لتنكره بلباس الحجازيين فرحبوا به ولبثوا ينتظرون ما يبغيه فلم يكلمهم وظل قاصداً الرئيس وقد عرف غرفته فاستقبله أحسن استقبال وبالغ في اكرامه فلم يصبر على تنكره فاطلعه على حقيقته فسأله عما لقيه فقص عليه خبر المدائن وفتحها فذكر الله وقال لقد توسمنا قرب سقوط الفرس منذ أشهر لانه سبحانه وتعالى لا يبقي على عبدة النار فان هؤلاء الفاتحين وان لم يكونوا نصارى فهم يعبدون الله ويوحدونه ويؤمنون بالانبياء والرسل ويذكرون عيسى ومريم بالخير ففي انتصارهم نصرة للدين القويم

ولم يكن هذا الحديث ليهم حماداً ولكنه صبر حتى فرغ الرئيس من كلامه فقال له هل سمعتم شيئاً عن جبلة بعد ذهابي

قال لم نسمع عنه شيئاً ولكنا سمعنا خبراً عن ابنته

قال وماذا سمعتم عنها

قال ان بعض رهباننا ينزلون الحيرة مرتين في الاسبوع يحضرون سوقها يستبدلون ما يفضل عندنا من غلات ارضنا بما نحتاج اليه من الانسجة او الآنية او نحوها فاتفق للذين نزلوا على أثر خروج جبلة واهله انهم رأوا تلك الفتاة

في بعض طرق الحيرة على أنهم اختلفوا في حقيقتها فانكرها بعضهم وأصرّ الآخرون على انها هي هي بعينها فلا ندري أيهما مصيباً

فلما سمع حماد ذلك قال ألا يتنازل حضرة المحترم لاستقدام اولئك الرهبان لعلي أتحقق الامر بنفسي

قال حباً وكرامة . وصفق فجاء الراهب فامره ان يدعو راهبين سماهما وبعد هنيهة جاء الراهبان فسألهما حماد عن تلك الفتاة فقال أحدهما رأيناها قبل ان ندخل الحيرة بقرب بحيرة هناك ويخال لي انها ابنة جبلة ولكن اخي هذا ينكر عليّ ذلك

فقال الاخر لا اظنها هي لأني لم أتوسم فيها ما عهدناه من الانفة والعز فقد عرفناها هنا وفي وجهها مهابة الملوك وفارقتنا على جواد كأنها من امهر الفرسان والفتاة التي شاهدناها لا اقول انها لا تشبهها ولكنها أشبه بعامة الناس منها بالملوك او الامراء

فلما سمع حماد كلامهما تحير في امره ومال بكليته للمسير الى الحيرة يتفقد هنداً بنفسه فتظاهر بالاكتفاء بما سمعه وهمّ بالنهوض فدعاه رئيس الدير للمبيت عندهم تلك الليلة فاعتذر بما يدعوه الى سرعة المسير وودعه وخرج والشمس قد مالت نحو المغيب وجعل الحيرة وجهته ولم يكد يتوارى عن الدير حتى أشرف على الحيرة ورأى غديرها المتصل بالبحيرة وقد غابت الشمس واخذت الكواكب في الظهور فاظلمت الدنيا في عينيه فالتفت فاذا هو على ميل وبعض الميل من المدينة ثم اشتد الظلام فلم يعد يرى الطريق فتبين له عن بعد نور مزدوج عرف من خفقانه انه وقود عند الشاطىء انعكس نوره في الماء فظهر مزدوجاً فقصده وقبل أن يصله سمع صوتاً يناديه بلغة العراق « من أنت »

فقال غريب لا اعرف الطريق ومن انت

فقال يا هلا بالضيف يا هلا بالفارس

ثم رأى حماد الرجل قادماً وبيده مشعلة يستضيء بها فتفرس فيه فاذا هو شيخ طاعن في السن قد استرسلت لحيته وشاب شعره ولكنه لا يزال في

نشاط الشباب عليه عباءة خلقة وبيده عصا كبيرة فعرف حماد من مجمل منظره أنه راع على انه ما لبث ان شم رائحة الزريبة وسمع معاء الماعز فتحقق ظنه ولكنه لم ير حوله بناء ولا خيمة فترجل وسلم والراعي يتفرس فيه وينظر تارة الى وجهه وطوراً الى لباسه

ثم قال له ما بالي ارى لباسك حجازياً وكلامك عراقياً

قال اني من كليهما . وقطع الكلام . فسكت الراعي وتقدم الى الفرس فقاده بعنانه وليس في ذلك المكان غيرهما فمشيا لا يسمعان صوتاً غير معاء الماعز ونقيق الضفادع حتى انتهيا الى كوخ صغير مبني من سعف النخل وقد ربض عند بابه كلب كبير الجثة ظل رابضاً هادئاً كانه أدرك ان النازل ضيف لا خوف منه على القطيع

الفصل الخامس والخمسون

اين الشجي من الخلي

اما حماد فلما وصل الكوخ واشتم رائحة الرعاة استنكف من الدخول اليه فقال للشيخ دعنا نجلس ههنا فان ذلك افرج لنا .

قال مرحباً بك حيثما جلست . واتاه بفرو من جلد الماعز جلس عليه وذهب الشيخ بالفرس الى عمود وراء الكوخ شده اليه واخذ في نزع السرج . وفيما هو يفعل ذلك سمعه حماد يتمتم ويقول اقوالاً لا يفهمها

فناداه فلم يجبه فاعاد النداء فجاء الشيخ واللجام بيده فنظر حماد اليه فاذا هو يبتسم فبانت لثته ولم يبق فيها الا سن بارزة الى الاعلى

فقال له حماد ما يضحكك يا أخا لخم

قال انما اضحكني ما رأيته في عدة هذا الجواد مما يشبه عدة فرس تعودت ان اراه كل ليلة من ليالي الاسبوع الماضي يركبه فارس قد اعجبني فيه ما اعجبني فيك

قال من هو ذلك الفارس وما الذي اعجبك فينا

قال لقد اعجبني فيكما التنكر فان ذاك كان يأتيني في كل صباح ملثماً وعليه عباءة من الحرير فيكلمني بصوت النساء وعليه رداء الرجال . وانت جئتني بلباس الحجاز وكلام العراق فلا ادري تغيرت الارض واختلط الناس ام كيف

فتذكر حماد هنداً وما سمع من تزملها بالعباءة يوم خروجها من الدير فاستأنس من حديث الرجل فهمَّ باستيضاحه فاذا هو قد تركه وتحول نحـو الزريبة فاستقدمه فاجاب انه آت على عجل فلبث حماد كأنه على مقالي الجمر حتى عاد الراعي وفي يده قطعة من الخشب قد اكمد لونها من توالي السنين على استخدامها بلا غسل وفيها لبن حلبه من ماعزه وقدمها له ليشرب

فاعتذر حماد بانه لا يحتاج الى طعام

فقال الشيخ لقد نزلت ضيفاً فما عليك الا ان تتناول الطعام واذا كنت ملآن الجوف فهل ربما آتيك ببعض الخمر قال ذلك وتحول نحو الكوخ وعاد بقصعة فيها خمر فقدمها لحماد وهو يقول اليك هذه الخمر فانها من غلة كرمنا هذا العام فتناول حماد القصعة لا رغبة في الشرب ولكنه خاف اذا اعتذر ان يأتيه الشيخ بشيء آخر

ثم جلس الراعي بجانب كلبه ويده على رأس الكلب يلاعب ناصيته بين أصابعه وهو ينظر الى حماد

فابتدره حماد قائلاً ذكرت لي الفارس المتنكر ولم تتم حديثك

قال هذا كل حديثي عنه فانه اتاني منذ بضعة عشر يوماً فاوقف جواده عند هذا الكوخ وسألني الذهاب الى دير هند لاستفهم له عن اناس قادمين من الشام هل نزلوا الدير ام لا . وكنت اذا نظرت اليه رأيته فارساً ملثماً فاذا تكلم خلته امرأة فسألته أن يحسر اللثام عن وجهه فابى ودفع اليَّ ديناراً فاطعت امره ووعدته بالجواب في المساء فعاد في المساء وهو يظنني ذهبت لانفاذ مهمته ولم يدر أني لا استطيع التخلي عن ماشيتي وليس عندي من اعهد امرها اليه . فلما سألني أجبته اني سألت أهل الدير فقالوا انه لم يأتهم احد . وما زال يكرر زياراته ودفع الدنانير وانا اجيبه جواباً متشابهاً حتى اذا كان منذ بضعة ايام استحلفني بدّر الماشية والسيدة مريم أن آتيه بالخبر اليقين.

فسرت الى الدير فسألتهم فقالوا انهم لم يأتهم احد وهب ان احداً من اهـل الشام جاءهم فلا يقبلون زيارته . فلما اجبت الفارس هذا الجواب غضب وتمم وكأني سمعته يلطم ثم تحول عني ولم اعد اراه من ذلك اليوم فندمت لاخلاص الخدمة وانفاذ المهمة بالصداقة . فلما رأيتك وآنست ما انست من المشابهة بينكما ضحكت وعولت على ان لا اصدق في خدمتك

فلما سمع حماد ذلك تحقق أن السائل هند بعينها فقال للشيخ ألم تعلم الجهة التي سار فيها ذلك الفارس

قال لا . وهب اني اعلم فما انا صادقك

فمد حماد يده واستخرج دينارين دفعهما اليه فتناول الشيخ النقدين وهو يتفرس فيهما ويضحك ثم قال أما اذا شئت ان اصدقك الخبر فاعلم ان الفارس سار محاذياً هذا الشاطىء قاصداً الحيرة فلما بعد عني وصار على مقربة من المدينة رأيته ترجل ووقف مدة فظننته عائداً اليّ فانشغلت عنه مديدة ثم التفت فلم أره

فاستولى القلق على حماد وعجب لترجلها ووقوفها ولبث صامتاً يفكر ثم قال ومتى حدث ذلك

قال حدث منذ أسبوع

أما الشيخ فلما آنس من حماد بذلاً حاول المبالغة في اكرامه فجعل يقدم له الخمر واللبن فلما رآه لا يشرب شيئاً وقد مضى بعض الليل دعاه للرقاد في الكوخ

فقال حماد لا احتاج الى رقاد

فقال اذا كنت تحتقر كوخي وقد تعودت المنام على الاسرة فاني معد لك فراشاً من الحرير . ودخل الكوخ ثم عاد وفي يده ملاءة فرشها له فعجب حماد لوجود تلك الملاءة عنده فتفرس فيها فاذا هي عباءة مزركشة فاجفل لرؤيتها ومد يده فتناولها ونظر اليها بضوء القمر فاذا هي عباءة هند وكان كثيراً ما يراها عليها اذا ركبت فصاح في الرجل وأنى لك هذه العباءة . فضحك

الراعي ضحكة يمازجها خوف ولم يجب

فندم حماد على ما بداه به من الجفاء وقال بهدوء لقد أعجبني لطفك وحسن وفادتك فاني يا عماه لا استطيع القيام بحق شكرك على هذا الاكرام ألا تخبرني ممن ابتعت هذه العباءة

فسكن روع الشيخ وأشار الى كلبه وقال انها من صيد هذا الكلب

قال وكيف ذلك

قال افتقدته ذات صباح فلم اجده وكان قد تعود السرح في بعض الايام ثم ما لبث ان عاد وقد عض على هذا الرداء بفيه وجاء يجره وراءه

فازداد قلق حماد وقال ومن أي جهة قدم به

قال من جهة الشاطىء

قال ألا تظنها العباءة التي كان ذلك الفارس ملتحفاً بها

فتنحنح وتشاغل عن الجواب وحرك حاجبيه وكتفيه كأنه يقول لا اعلم

الفصل السادس والخمسون

المناجاة

فتحقق حماد أنها عباءة هند نخاف أن يكون لوجودها هناك سبب محزن نخفق قلبه وتشاءم وحدثته نفسه أن يتتبع الشاطىء لعله يقف على أثر آخر ثم تردد مخافة ان يتوه عن الطريق والوقت ليل فحاول الانتظار الى الصباح ولكنه نظر الى السماء وتأمل مواضع الابراج فعلم انه في نصف الليل فاستبعد الاجل . وكان القمر قد طلع حتى تكبد السماء فأنار البحيرة وشاطئها وأبنية الحيرة . وفي اول تلك الابنية قصر الخورنق الشهير فعوّل على مفاقلة الراعي والمسير الى الشاطىء فتظاهر بالضجر والقلق وقال له اراني لا أستطيع رقاداً الآن فاحتفظ بالفرس ريثما أتمشى على هذا الشاطىء برهة لعل النعاس يأتيني واعطني العباءة التحفها فتقيني من البرد

فقال افعل ما بدا لك

فتناول حماد العباءة وتزمل بها وسيفه الى جنبه فرفعه وعلقه بمنطقته لئلا يطرق الارض فيحدث صوتاً يعترض مجاري تصوراته وسار الهوينا محاذياً للشاطىء وقد سكن الهواء وأوت الطيور الى اوكارها . فبعد ان مشي هنيهة وقف والتفت وراءه فاذا بالزريبة قد توارت عنه فنظر الى ما حوله فعلم انه على مقربة من الحيرة وبينه وبينها المغارس والكروم وامامه البحيرة وقد هدأ ماؤها ونور القمر ينعكس عن سطحها فيتلألأ كالزجاج والطبيعة هادئة ساكنة لا يتخلل سكونها الا نقيق الضفادع . فجلس على صخر هناك واطلق لتصوراته العنان ففكر في ما هو فيه من الهواجس وتصور هنداً وعباءتها وما الذي أوصل ذلك الكلب اليها فاعترضه فكر اقشعر منه بدنه وخيل له ان هنداً لما يئست من لقائه ألقت بنفسها في ذلك الماء فبقيت العباءة على الشاطىء حتى حملها الكلب الى الزريبة ولما تصور ذلك انقبضت نفسه واحس كأنك صببت عليه ماء بارداً وهم بالعباءة يقبلها ويتنسم رائحة هند منها فغلب عليه الوجد فاخذ في البكاء وجعل يخاطب العباءة وهو يبكي ويتنهد ويقول

« اخبريني يا عباءة هند اين تركت هنداً هل انت خلعتها أم هي خلعتك وقد غرقت في هذا الماء وتركتك نذيراً بمصيرها . آه من طوارىء الحدثان . آه من تقلبات الزمان . أين هند الان ؟ ألعلها لا تزال في قيد الحياة أم هي غارقة في هذا الماء وقد أكلت لحمها الاسماك . . . كيف تموت هند وحماد حيّ يرزق . . » وسكت مديدة ثم قال « ألعلي قصرت في البحث عنك حتى يئستِ من لقائي . من يخبرني أين أنت . . . هند هند . . أين أنت . أ ألبستني درعاً لتقيني وتقتلي نفسك ؟ قبح الله رأي والدك وضعف عزيمته لقد جرّ علينا الشقاء سامحه الله اذا كان لا يزال بين الاحياء . من يخبرني ان هنداً حية أو ميتة فاذا تحققت موتها استودعت الدنيا ولحقت بها لعلنا نلتقي في دار الابدية . . . » ثم سكت ومسح دموعه ونظر الى ما حوله فاذا هو منفرد ليس من يسمعه أو يراه فاطلق لنفسه عنان البكاء وعاد الى العباءة فلف بها وجهه وجعل يشمها ويقبلها ويشهق في البكاء حتى كاد يغمى عليه

ثم رفع العباءة عن وجهه ووقف بغتة والتفت نحو الحيرة فاذا ببيوتها ساكنة هادئة فقال « هؤلاء أهل الحيرة نيام لا يزعجهم طيف ولا يقلقهم خيال . هل يعلمون ان على شاطىء بحيرتهم ملك يبكي كالطفل . هل يعلمون ان ابن ملكهم النعمان صبٌّ هائم يبحث عن حبيبته في اكنافهم .. ؟ هبوا ايها الراقدون اخبروني أين هي هند . . أين انت يا هند أين قامتك أين عيناك أين أنت . اجيبيني فاخبرك ان دولة الفرس قد سقطت وانتقمت لوالدي . تعالي نجتمع وننسى الاحزان والاتعاب لقد آن زمن الراحة . . ولكن آه أين الراحة من فتى مات والده قبل أن يولد هو وانقضت زهرة عمره وهو لا يعرف نسبه حتى اذا عرفه وآن له ان يستريح نكبه الزمان بضياع حبيبته — آه يا ليتني لم أعرف ذلك النسب فان معرفته جرت عليَّ كل هذا البلاء — ما أحلى الحب وما اسعد الحبيبين اذا التقيا ولو عاشا في كوخ مثل كوخ هذا الراعي » . ثم أوغل في البكاء وهو يقلب العباءة بين يديه ويقبلها ويشم رائحتها حتى بلها وقد تعب وخارت عزيمته فاتكأ على الصخر فعقره الدرع فتوسد الثرى وألقى رأسه على حجر فغلب عليه التعب والنعاس فغمضت اجفانه وهو بين اليقظة والمنام

ثم استيقظ مذعوراً كأنه سمع صوتاً ينـاديه فنظر الى ما حوله فلم ير أحداً فعلم انها احلام اقتضتها هواجسه وشكوكه . ولكن ذلك الصوت ما زال يرن في اذنيه وقد اضطربت حواسه وخيل له لهدوء المكان وسكون الطبيعة انه في عالم الارواح وان ذلك الصوت خارج من القبور فاقشعر جسمه

وكان البرد قد قرسه والتعب انهكه على أثر ما قاساه من الركوب نهاره كله مع ما ألمَّ به من التهيج والكدر في ذلك الليل فالتف بالعباءة جيداً ونهض ومشى بالشاطىء وهو يحاذر ان تسمع خطواته كأنه يخاف احداً ثم رأى النجوم تتوارى رويداً رويداً حتى لم يبق منهـا الا القليل وقد تضاءل ضوءها فعلم أن الفجر قريب . ثم بدا الشفق من وراء الافق يطارد اشعة القمر وهو سابح في الفضاء كانه يودع الليل على موعد . ورأى الاطيار خارجة من اوكارها بين مغرد ومرنم ومصفق ومرفرف ومحلق . فمشى حماد والعمامة

على رأسه وقد فسد هندامها لما قاسته من صدمات العباءة . أما العباءة فجعلها على كتفيه وشدها على صدره يتقي بها البرد ولم تمض ساعة حتى سمع دق الاجراس من كنائس الحيرة واديرتها فاخذ يتفرس في الشاطيء لعله يقف على أثر آخر من آثار هند ثم خاف ان ينزل احد من اهل الحيرة ليغتسل أو يستقي فيراه في تلك الحال فهمَّ بالرجوع . وفيما هو يتحول سمع وقع حوافر فاجفل فالتفت فرأى فارساً خارجاً من سور الحيرة كانه يطلب البحيرة ولم يقع نظره على الفرس حتى خفق قلبه لأنه يشبه فرس هند ولكنه لم ير فوقه سرجاً وقد ركبه غلام يشبه ان يكون خادماً فوقف حتى دنا الفرس منه فتأمله فاذا هو فرس هند بعينه فبغت واستبشر وصاح في الغلام فوقف

فقال له الي يا غلام

فلما رأى الغلام العمامة الحجازية خاف واسرع نحوه

فقال له لمن هذا الفرس

قال هو للامير فلان

قال ومتى اقتناه

قال اول البارحة

قال وممن اشتراه

قال من بعض الرهبان عرضه للبيع في سوق الاربعاء

فقال وأنى للرهبان مثل هذا الفرس وهو من خيول الشام

فقال لقد تعودنا مشاهدة مثل هذه الخيول يا سيدي منذ قامت الحرب فكل قتيل لم يكن له وارث وهبت أمتعته وأسلابه للاديرة تنفقها في سبيل البرّ فكم من فارس قتل وظل فرسه تائها فاستولت عليه الاديار وباعته

فلما سمع حماد ذلك ايقن بموت هند غرقاً في تلك البحيرة وتحوّل عن الغلام خشية ان يرى بكاءه وأطلق لدموعه العنان والشمس لم تشرق بعد . أما الغلام فلم يصدق انه نجا من ذلك الحجازي فحوّل عنان الفرس وكان قادماً ليسقيه فعاد ولم يسقه

فلما خلا حماد بنفسه وقف عند الماء والعباءة تظلله ونظر الى السماء وتنهد

وقال أأطمع بعد ذلك بالبقاء .. لمن احيا وقد فقدت حياتي .. أأشرب الماء وقد غرقت فيه حبيبتي ... ما الذي حملك على الانتحار يا هند . أيأسك من لقائي ففضلت اللحاق بي الى دار الابدية وقد ظننت اني سبقتك اليها ؟ فنحن على كل حال لاحق اثر سابق ولكن ويلاه أنفترق أعواماً ونحن في جهاد وشقاء فاذا آن اللقاء وزالت العراقيل امتنعت علينا الحياة ... ثم سكت ونظر نحو الشمس فاذا هي لم تطل بعد فقال أأنظر شروقك لعلك تأتيني ببشارة ام انت لا تحملين الا البلاء والشقاء . دعيني اتوسد الماء قبل ان ارى وجهك . ونظر الى الماء أمامه فاذا هو رقيق لا يغرقه فتحوّل الى صخر رآه ناتئاً فوق الماء على مقربة منه وقال الاولى بي ان ألقي بنفسي من فوق ذلك الصخر فمشى نحوه وفيما هو ذاهب شعر بجاذب في نفسه يمسكه عن الانتحار فاعتبر ذلك من قبيل الضعف الذي يتولى الانسان اذا تحقق دنو الاجل

الفصل السابع والخمسون

لقاء هائل

فلما وصل الى الصخر صعد الى حافته فزلت قدمه وتعثر باذياله فوقع وفيما هو يتحفز للنهوض حانت منه التفاتة فرأى اشباحاً خارجة من ضواحي الحيرة تطلب البحيرة فقال في نفسه فلاعجلن الاجل قبل وصولهم فتقدم فاحس بما يمسكه عن ذلك العمل واستولى عليه الضعف الطبيعي فتجلد ونظر الى تلك الاشباح فرآها تقترب نحو الشاطىء فتأملها فاذا هي اشباح نسوة احداهن تحمل جرة والاخرى سلاًّ واخرى تسوق بعيراً وكلهن في زي واحد فاستغرب البستهن المتشابهة وكلها سوداء وعلى رؤوسهن اغطية سوداء . فهمه امرهن وعلم أن تلك الالبسة لا تكون الا في الاديار . فخيل له انهن راهبات خرجن قبل الفجر للاستقاء وقطف الاثمار والبقول من مزروعات الدير فحسدهن على سذاجتهن وخلو قلوبهن من لواعج الحب ورأى حاملة الجرة تقترب نحو الشاطىء ثم ما لبثت ان دنت منه حتى كرت راجعة كأن

احداً يطاردها فاستأنس بخطواتها لمشابهتها خطوات هند ولكنها اضعف منها كثيراً فعلق ذهنه بتلك الفتاة وود لو انه يراها لحظة اخرى فظل يتبعها بنظره حتى رآها وقفت الى رجل يحطب فخاطبته واشارت الى حماد فاشتغل بال حماد ومال الى معرفة سر ذلك الخطاب ثم رآهما آتيين معاً الفتاة بجرتها والرجل بفأسه

فلبث ينتظر وصولهما فتقدم الرجل اولاً وحيا حماداً وتلطف في السلام عليه وحماد ينظر الى الفتاة وهي منصرفة نحو الشاطىء لتملأ جرتها فقال الرجل لحماد اتأذن لي بسؤال . قال قل . قال من اين اشتريت هذه العباءة

قال وما يعنيك من امرها

قال لانها مسروقة من صاحبها فاذا اخبرتنا عمن باعك اياها طالبناه بها

قال وما ادراك ان هذه هي بعينها ان العبي قد تتشابه

قال ان صاحبها رآها بعينه وعرفها وله فيها علامات

قال ومن هو صاحبها

قال الفتاة التي رأيتها الآن فانها حالما رأتك عادت اليّ بالخبر وقد كنا قضينا ثلاثة ايام ونحن نبحث عنها

فلما سمع ذلك الكلام ظن نفسه في منام فمسح عينيه والتفت الى ما حوله واستشهد وجدانه فتحقق انه في يقظة فنظر الى حاملة الجرة فرآها قد ملأت جرتها وعادت الى رفاقها فجعل يتأمل خطواتها فاذا هي خطوات هند ولكن الجسم نحيل . فقال الرجل ما بال صاحب العباءة لا يطالب بها بنفسه

قال لان صاحبتها من راهبات دير هند الصغرى ولا يؤذن لهن بمخاطبة الرجال . واما انا فمن خدمة الدير المكلفين بمثل ذلك

فقال حماد (وقلبه يكاد يطير من الفرح وهو يمسك نفسه ويتجلد) وهل صاحبة هذه العباءة قديمة في سلك الرهبنة

قال لا تزال حديثة وقد دخلت في طور الابتداء فاذا مضى عليها بضعة اشهر تحت الاختبار رسموها ولذلك فقد وهبت للدير كل ما كان معها من

الثياب والمصاغ والدواب فايقن حماد انها هند ولولا عمامته والباسه الحجازي لعرفته لاول نظرة وهي لولا ثوبها الاسود ونحولها لعرفها . فلما ايقن انها هي بنفسها ارتعدت فرائصه لما كان فيه من الخطر وحمد الله لنجاته على هـذه الـكيفية وحدثته نفسه ان يسرع الى هند فيطلعها على حقيقته فخاف عليها من البغتة مع ما آنسه من ضعفها فصبر نفسه . وخاف من الجهة الثانية ان تكون قد نذرت العفة فلا يبقى له اليها سبيل فقال للرجل وهل نذرت العفة

قال لا تنذرها قبل ان تقضي مدة الابتداء

فاطمأن باله ونظر فاذا بالفتيات لا يزلن في شواغلهن بعيدات لا يسمعن ولا يرين وصاحبة الجرة قد وضعت جرتها على الارض وجلست على حجر منفردة تنتظر رفيقاتها ليرجعن الى الدير معاً

فقال حماد للرجل اذهب الى صاحبة العباءة وقل لها اني لا أعطي العباءة الا تسليما بيدها

قال قلت لك يا مولاي انها لا تستطيع ذلك

قال اليك هذا البرد . وخلع بُرد النعمان عنه من تحت العباءة وقال ادفعه اليها بدلا من عباءتها

فتناول البرد وتأمله فاذا هو اثمن من العباءة كثيراً فاسرع بهِ حتى أتى الفتاة وهي لا تزال جالسة وحدها فدفعه اليها وقال لم يعطني العباءة ولـكنه دفع اليَّ هذا البرد . فلما رأته صاحت للحال حماد حماد . . . وتركت الجرة واسرعت نحوه وكان هو يراقبها ليرى ما يبدو منها فلما رآها نهضت واسرعت نحوه لم يبق عنده ريب بشأنها فاسرع لملاقاتها وقد نزع العمامة عن رأسه فلما التقيا وقعت هند مغمياً عليها فاستلقت على جنب حماد فانهضها وكان خادم الدير قد رآها تسرع نحو حماد فلما أُغمي عليها اسرع بالماء ورشها فأفاقت وهي تقول حماد حماد حماد . . . وهو يقول هند هند حبيبتي هند أأنت حية وأنا احسبك غريقة في هذا الماء ولو تأخر قدومك لحظة اخرى لذهب حماد طعاماً للاسماك

قالت حماك الله يا حبيبي . ثم غلب عليها الحياء فغطت رأسها بالنقاب

الاسود وجلست متأدبة وقد امتقع لونها وتولاها الهزال . فقال لها أين والدك يا هند . قالت أما سمعتم خبره انهم قتلوه واظنهم قتلوا والدتي آه من تقلبات الايام وأوغلت في البكاء

قال هل تحققتِ مقتله

قالت لم أره ولكنني سمعت به ولولا ذلك لرأيتني معه حيثما كان لأني لما قبضوا عليه وعلى والدتي امتطيت جوادي وتعقبت أثرهما فوصلت الحيرة فبت في هذا الدير وقد كنت أتردد اليه قبلا فاشارت عليَّ الرئيسة ان ابقى عندها وابعث من يستطلع الخبر فعاد المخبرون وقد اكدوا مقتلهما فلم يبق لي نصير الا حبيبي حماد ومن يخبرني بقدومه فان الخادمة التي كنت أرسلتها للبحث عنك في بيت المقدس لم تعد بعد فاستخدمت راعياً بالقرب من هذه المدينة كنت أتردد اليه متنكرة ليسأل عن قدومك الى الدير فقطع أملي من دخولك الدير لان أهله لا يقبلون فيه أحداً من الشام فضقت ذرعاً واستولى عليّ اليأس ولم يبق لي في الدنيا مطمع بعد فقد والديَّ وضياع حبيبي وزوال عز الملك وخسارة الاموال والعقار . ولا أنكر عليك اني هممت بالانتحار غير مرة ولكن قلبي لم يطاوعني لأني لم أيأس من لقائك بعد . فلم أجد وسيلة غير الترهب في دير أعرف رئيسته وبعض راهباته فطلبت ذلك فقبلوني مبتدئة تحت التجربة فوهبتهم كل مالي من الثياب والفرس ولم أحفظ شيئاً غير الاساور وهي عربون المحبة بيننا فانها مخبأة بين أثوابي وكنت قد أضعت عباءتي هذه في أثناء رجوعي المرة الاخيرة من عند الراعي لفرط قلقي وهواجسي على أثر ما أنباني به من خبر الدير فوقعت العباءة عني ولم أنتبه فبحثت عنها في اليوم التالي فلم اجدها وهو اليوم الذي طلبت فيه الانضمام الى الرهبنة فاخبرتهم أني فقدت هذه العباءة فاذا عثروا بها كانت حلالا للدير وهذا اليوم الثالث من دخولي وقد كلفوني تجارب كثيرة فحملت الاحمال واشتغلت الاشغال الشاقة فزادني ذلك ضعفاً على ضعف

الفصل الثامن والخمسون

دير هند الصغرى

وكان الخادم واقفاً وقد ذهل لما رآه فتقدم الى هند فأومأ اليها ان عملها هذا مخالف لشروط الرهبنة فقالت دعنا نذهب الى الرئيسة فنهضت ونهض حماد يمشي لمقابلة الرئيسة . وهما في الطريق سألته عن سبب تنكره وما مرّ به فاحكى لها حكايته بالاختصار حتى أتى الى حديث المدائن والبحث عن والدها فلما بلغ الى هناك تنهدت هند وقالت آه يا حبيبي أني سعيدة بلقياك ولكن حظي غير تام لما قاسيته من فقد والديّ

فقال لها اننا لم نتحقق مقتلهما وقد كلفت سلمان بالبحث عنهما وموعدنا الالتقاء في دير هند هذا في الغد وهو اليوم الثالث من افتراقنا ومن عرف خبراً اطلع الآخر عليه فقد فزت بطريدتي فعسى هو ان يفوز بمن يبحث عنهم والامير عبد الله معهم

وكانا ماشيين في وسط المدينة لا يهمهما استغراب الناس لسيرهما معاً بل كانا في شاغل من تجاذب القلوب لا يكادان يريان الطريق . فلما وصلا الدير أسرع الخادم الى الرئيسة فأنبأها بما شاهده من جرأة ذلك الحجازي على الراهبة المتبدئة مما يخالف العهود المعطاة من المسلمين . فاطلت الرئيسة من باب الدير فرأت هنداً وحماداً قادمين وكان حماد قد نزع عمامته فعرفت من ملامح وجهه انه عراقي فارادت استطلاع السر فدخلت بهما الى غرفة منفردة فهمّ حماد فقبل يد الرئيسة فعرفت انه مسيحي فسألته عن امره

فقال اذا أذنت فاخبرك ان هذه الفتاة خطيبتي منذ أعوام وقعت حروب الشام بافتراقنا لا يعلم أحدنا بمكان الآخر حتى اذن الله باجتماعنا على يدك

وتأملت الرئيسة في وجه حماد وهو يكلمها فآنست في وجهه هيبة وجلالا فقالت ألست عراقيًّا

قال بلى ومن بني لخم

قالت ويخال لي ان هنداً شامية من غسان

قال نعم

فقالت وكيف اجتمعتما

قال كذلك قدّر الله

أما هند فتذكرت أول معرفتها حماداً وتذكرت والديها ويأسها من حياتهما فترقرقت الدموع في عينيها

فلحظت الرئيسة فيها ذلك فقالت لها ما بالك تبكين يا ابنتي وكان حماداً قد أدرك سبب بكائها فقال أظنها تبكي لضياع بعض اقاربها في أثناء حرب الشام فجعلت تخفف عنها وتعزيها . وتذكر حماد الامير عبد الله وسلمان فصبر نفسه ليري ما يأتي به الغد وقال للرئيسة ألا ترين ما يمنع خروج هند من سلك الرهبنة

قالت لا أرى مانعاً لانها لم تنذر العفة بعد

قال فلتبق اذاً يوماً آخر في ضيافتك لانني على موعد مع خادمي باللقاء هنا غداً وقد ذهب للتفتيش عن ضائع لنا فاحتفظي بها ريثما أعود فاني ذاهب الى راع في ضاحية الحيرة تركت فرسي عنده البارحة

ثم نهض فلبس العمامة لئلا ينكره الراعي وترك العباءة عند هند وهمّ بالخروج فأمسكته قائلة لا تذهب فاني لست تاركتك لحظة بعد هذا اللقاء فقد كفاني ما قاسيته فلا يفرق بيني وبينك الا الموت

قال والفرس

قالت دعنا من الافراس أو ارسل من يأتي به فما انا راضية بذهابك ولا نخرج من هذا الدير الا معاً إما الى القتل وإما الى الحياة

فعذرها والتفت الى الرئيسة فطلب اليها ان تنفذ رسولاً من قبلها يستجلب الفرس فبعثت واحداً يعرفه الراعي ويثق به فأطلعه حماد على علامة يتقدم بها وبعث اليه دينارين ولبث ينتظر عودته

أما الرئيسة فقالت لحماد لا يخفى عليك يا سيدي اننا في دير راهبات لا يؤذن للرجال دخوله الا اذا نزلوا في دار الاضياف واما اجتماعهم بالراهبات

فمحظور فاذا رأتك الراهبات مع هند وهن لا يعرفن علاقتكما ساءوا الظن فهل تتفضل فتنزل في دار الاضياف ريثما يأتي الغد

قال افعل ما تأمرين. وودع هنداً ونزل يصحبه الخادم الى دار الاضياف فمر بمربط الخيول فرأى افراساً شاهد بينها فرساً يشبه فرس سلمان فاستبشر واسرع الى الدار فلقيه سلمان فهمّ احدهما بالاخر وهما يبتسمان فاستبشرا معاً فقال سلمان هل ظفر سيدي بهند

قال نعم ولكنها راهبة في هذا الدير

قال وهل نذرت العفة . فضحك حماد وقال لا وانت هل ظفرت بالامير عبد الله

قال ظفرت به وبجبلة وامرأته . قال اين هم

قال سيصلون الينا الليلة أو غداً وسيأتون متنكرين لانهم كانوا مختبئين عند سيدي الامير عبد الله ولولاه لكان حموك جبلة في عالم الاموات ولكن الامير عبد الله حالما علم بالقبض عليه استرضى الذين امسكوه واظهر للناس انه قتل وخبأه في منزله بتلك المزرعة ريثما يتمكن من العثور على هند او الاجتماع بك فلما وصلت اليهم وانبأتهم بخبرك انفذني لاطمئنك واساعدك في البحث عن هند ريثما يقدمون الينا

فانشرح صدر حماد ايما انشراح وحمد الله على انقضاء الازمة بالتي هي احسن ولم يملك صبراً عن تبشير هند ببقاء والدها حياً

وهمّ بالرجوع الى الدير فرأى هنداً واقفة في الشرفة تطل الى دار الضيافة لانها لم يعد يرتاح بالها على حماد الا اذا كان امامها فلما رأته عائداً وعليه امارات الدهشة اومأت اليه فنظر اليها وضحك فضحكت هي وقد اشرق وجهها ونسيت كل متاعبها وقالت ما وراءك

قال همساً : ان والدك ووالدتك قادمان الينا غداً

فابرقت اسرّتها واسرعت لملاقاته عند الباب ولم تعد تعبأ بقوانين الدير . فلما لقيته مدت يدها اليه وصافحته وضغط كل منهما على يد الآخر ضغطة ما ادراك ما وراءها ولا تسل عن حديث القلوب وجواذب العيون

فقالت هند هل انت متحقق قدوم والديَّ

قال هذا سلمان قد جاء بالخبر اليقين ولكنهم قادمون ومعهم الامير عبد الله متنكرين فاحذري ان يلحظ احد ما نحن فيه لئلا نقع في شر اعمالنا فتكون البلية الثانية شرًّا من الاولى

قالت وسأخبرك خبراً جديداً حدث ساعة خروجك من غرفة الرئيسة

قال وما ذلك

قالت ان خادمتنا الامينة التي كانت تسعى في اجتماعنا ولولاها لا ادري ما تم لنا قد وصلت الدير الان بعد ان قضت اياماً بالبحث والتفتيش ولم تكن عالمة بوجودي هنا ولكنها جاءت تتنسم الاخبار من الراهبات فلقيتني وسررت بها لانها ذات فضل علينا

قال لقد اذكرتني بفضل سلمان الشهم الغيور فلا ادري بماذا اكافئه على مروءته وحسن صنيعه . ثم قال فاذهبي الان الى الرئيسة ودّعيها على ان تفارقها غداً بعد وصول والديك والامير عبد الله واحذري ان تسمي اسم احد منهم

قالت لا تخف من ذلك

وتحوّلت وتحوّل هو الى دار الضيوف ومكث هناك الى صباح اليوم التالي

الفصل التاسع والخمسون

قران سعيد

فاستحسن حماد الخروج لملاقاة القادمين في الطريق فخرج وسلمان معه على الخيول وهند لا تعلم وقطعا مسافة حتى وصلا عين ماء لا بد للقادم من المدائن الى الحيرة من الوقوف عندها فترجلا وجلسا ولم تمض برهة حتى رأيا هنداً وخادمتها قادمتين مسرعتين على الاقدام وهند بثوبها الاسود الجديد . فبهتا وصاح حماد ما الذي أتى بك يا هند . قالت سامحك الله ألم اقل لك أني لم

اعد استطيع البعاد عنك لحظة مخافة ان نعود الى ما كنا عليه من الفراق .
فشكرها وجلسوا ولم يكد يستتب بهم الجلوس حتى رأوا الغبار يتصاعد من جهة الفرات فتقدم سلمان لتحقق القادمين فعاد ضاحكاً مبشراً .فنهضوا جميعاً وتهيأوا لاستقبال القادمين ولكن سلمان عاد فاخبر الركب ان حماداً وهنداً ينتظرانكم هنا . فقبل وصولهم الى العين ترجلوا جميعاً وهمَّ جبلة مسرعاً الى حماد فضمه الى صدره وجعل يقبله والدموع تتساقط من عينيه وأسرعت سعدى الى هند وجعلت تقبلها وتبكي ثم تبادل جبلة وسعدى فقبلت سعدى حماداً وجبلة هنداً واما عبد الله فظل واقفاً يتأمل ذلك المنظر المؤثر . فلما انتهت سعدى من تقبيل حماد تقدم اليه وضمه الى صدره وجعل يقبله ويبكي بكاء مراً ولم يستطع احد ابعاده عنه حتى خافوا عليهما وهم لا يعلمون سبب ذلك وبعد برهة انفصل عنه وقد تبللت عيناه وقال لا تلوموني على ما رأيتم من شدة تعلقي بحماد وان ما ترونه من دموعي انما هو دموع الفرح فان حماداً ملاكي وولدي وصديقي وفخري وسندي ومما زادني تعلقاً به انه انتقم لوالده وشهد سقوط دولة الفرس ومحا العار عن لخم ورفع ثقلا عن عاتقي حملته منذ نيف وعشرين سنة ثم تقدم عبد الله الى هند فقبلها والجميع يبكون بكاء الفرح وسلمان ينظر اليهم وقلبه يكاد يطير فرحاً. فلما سكت الجميع وهدأ روعهم وقف سلمان وقال اتسمحون لي بكلمة اقولها بين ملكين وملاكين . فقد شاركتكم بهذا الاجتماع السعيد فشاركوني بفرحي بمقتل ثعلبة الخائن الذي كان سبب كل هذه الاتعاب . ثم نهض جبلة والدموع لا تزال في عينيه وقال اما انا فلا اقدر اصف خجلي من ولدي حماد لما سببته له من الشقاء .وما بذله هو ورفيقه او قل والده الامير عبد الله من الجهد في انقاذنا من الموت . فنظر سلمان الى جبلة وقال ألا تزال سيدتي هند تمتنع على سيدي حماد ومن يا ترى افضل لديك حماد ام ثعلبة . فضحكوا جميعاً

ثم نهض عبد الله وقال اعلموا ايها السادة اننا في خطر عظيم الآن ولم يعد يحلو لنا المقام في هذه البلاد لاننا اعداء الفرس بالطبع واعداء المسلمين بالفعل لما ارتكبناه من مخالفة اوامر اميرهم فلا شك انهم سيبحثون عنا ويبذلون كل

سعي في القبض علينا

فقال سلمان لقد نطقت بالصواب وازيد على ذلك اننا لا نبرح الحيرة قبل ان نعقد للعروسين ثم نذهب حيثما تشاؤون ولو زعل حماد وهند .. . فضحك الجميع

فقال جبلة ذلك هو الرأي الصواب واذا استحسنتم فلتكن وجهتنا القسطنطينية دار الامبراطور هرقل نقضي بقية العمر هناك اذ لم يبق لنا مقام في الشام ولا العراق

فنهضوا جميعاً الى كنيسة بقرب الدير عقدوا للعروسين بالاختصار

ولا يحتاج القارىء الى تقدير تلك الساعة السعيدة فانها من ساعات العمر وبعد الاكاليل ركب الجميع وساروا متنكرين نحو القسطنطينية فوصلوها بعد بضعة عشر يوماً واقاموا فيها حتى قضى الله بما شاء

﴿ تمت الرواية ﴾